هنري بوردو

الابن الضال

إعداد وتقديم وتحليل
الدكتور رحاب عكاوي



دار الحرف العربي
للطباعة والنشر والتوزيع

هنري بوردو

الابن الضال

اعداد وتقديم وتحليل
الدكتور رحاب عكاوي

دار الحرف العربي

اسم الكتاب :
الابن الضال

المؤلف :
هنري بوردو

إعداد و تقديم و تحليل :
الدكتور رحاب عكاوي

الناشر :
دار الحرف العربي
للطباعة و النشر و التوزيع

زقاق البلاط –بناية فخر الدين
شارع خليل سركيس
تلفون و فاكس : 009611/361045
بيروت – لبنان

E-mail:
Dar_al_haref_alarabi@yahoo.com
DarAlHarefAlArabi@gmail.com
www.dar-alharef-alarabi-lb@jimdo.com

الطبعة :
الاولى 2013

خطوط : علي عاصي

تصميم الغلاف :
موسى نجم

تنضيد و اخراج :
سوزان عكاوي

الترقيم الدولي :
ISBN:978-9953-542-49-2

اسم الرواية في ألاصل الفرنسي

Les Roquevillards

دار الحرف العربي
للطباعة والنشر والتوزيع
ص. ب: ٦٤٨٠/١١٣
فاكس: ٠٠٩٦١١/٣٦١٠٤٥
بيروت - لبنان

Printed In Lebanon طبع في لبنان

هنري بوردو

1963-1870

هنري بوردو سليل عائلة كاثوليكية ملكية موالية للنظام الفرنسي الحاكم وصفها هنري في كتابيه «المنزل» ١٩١٢ و«البلد دون ظل» ١٩٣٥. في طفولته راود الأمل عمته «دين» أن يتبوّأ ابن أخيها عرش «كونت دو شامبورد» (أنا أنتمي إلى عائلة مشت دوماً في طليعة الحزب الملكي الحاكم).



هنري بوردو

وفي «مذكراته» يعود هنري إلى أصوله العائلية، كان والده مواطناً من سانت جيرون (آرييج)، وبشكل عام جاءت العائلة من مقاطعة كوزيران. في عام ١٨٣٢ كان جده لأبيه ضابطاً في الحرس الوطني، ضربه أحد جنود فرقته حتى الموت، وما لبثت زوجته - ماري فريه - أن توفيت بعد فترة قصيرة جراء الحزن والأسى عن عمر سبعة وعشرين عاماً.

ثم إنّ عمه وعمته دخلا سلك الرهبنة، العم إلى دير الرهبان الكرمليين (تحت اسم الأب ألبير من سانت - سوفير الذي تحدث عنه هويسمانز) والعمة إلى دير الكرمليات ولم تعد تربطهما أي علاقة بـ«آرييج». وكان والد هنري حطّ في «سافوا» بتاريخ تشرين الثاني/ نوفمبر ١٨٦٠ وذلك بعد الاتحاد مع فرنسا. وفي عام ١٨٦٢ فتح مكتباً للمحاماة لم ينقطع عن الأداء طيلة ستة وثلاثين عاماً من الأب إلى الابن. كذلك تزوج عام ١٨٦٢ من الآنسة «فريشيت» التي

تنتمي إلى عائلة معظّمة ومثقفة ومتدينة ترتبط بعائلة «سان فرانسوا دوسال». انتقلت العائلة البوردوية بعد ذلك إلى «ثونون» حيث رزق الزوجان تسعة أولاد لم يسلم الأول منهم. وهناك استقرا في منزل تملكه الآنسة «شارموازي» التي قدّمت لسيرة حياة القديس «سان فرانسوا دوسال» و«سانت جين دوشانتال». وبعدها سكنا في المنزل الذي بناه والد هنري بوردو الواقع في جادة «كارتو» اليوم. كما امتلك الثنائي منزلاً صيفيّاً في القرية الصغيرة «تروسي» التي تبعد ١٠ كلم عن «ثونون».

أمّا الأولاد بالإضافة إلى هنري الذي ولد عام ١٨٧٠ فهم: ألبير ١٨٦٥، پول ١٨٦٦، ماري ١٨٦٨، ڤالنتين ١٨٧١، مارتا ١٨٧٣، جول ١٨٧٥، ولويس ١٨٧٨.

أعمال هنري بوردو الأدبية

«تندمج كفاءتي الأدبية بسنواتي الدراسية الجامعية». عندما بلغ هنري السادسة عشرة من عمره، وبعد حصوله على شهادة البكالوريا من شامبيري، غادر إلى پاريس لحضور دراسات قانونية وأدبية. وهناك التقى بالإضافة إلى ألفونس دوديه وابنه ليون فرنسوا كوپيه، وپول ڤرلين، وليون بلوي.

وكونه محامياً مثل أبيه، وبعد تحصيل دراساته القانونية في پاريس، سُجّل هنري في نقابة المحامين في ثونون (١٨٨٩) لكنه سرعان ما عاد إلى الكتابة. وتمتد سنواته المهنية من العام ١٨٨٧ (في حين أن أول أشعاره المنشورة «ربيكا» صدرت عن أكاديمية ساڤوا عام ١٩٦٠، وهي سنة كتابه الأخير «المشعل المقلوب»)!.

أصبح هنري بوردو جمهوريّاً بانضمامه إلى المجلس الرسمي لكنائس الجمهورية (١٨٩٢) وناشطاً في مؤسسة التعاليم

الاجتماعية للكنيسة. وفي عام ١٨٩٣، وبطلب من لجنة الحقوق الجمهورية في ساڤوا، اتبع هنري وجهة صحيفة «يقظة ساڤوا» بهدف الدفاع عن ترشيح السيدة «فرانسواز ديكوت» لمنصب عضو في الهيئة التشريعية، دون أن تنجح في ذلك.

وتعتبر أفكار هنري بوردو وآراؤه وكتاباته، بمرور الزمن، أقرب إلى الكاثوليكية الاجتماعية لـ«فريدريك لوبلاي وألبير دومون» وبمثابة ترحيل سياسي للنشاط الكنائسي في الجمهورية.

نشر عام ١٨٩٤ خلال عمله في پاريس، كمحام ومحرر يواكب پاريس ـ ليون ـ الشرق الأوسط كتابه الأول «الأرواح العصرية»، وقد خاطب فيه بشكل عشوائي كتّابه المفضّلين. وبعد عدة أيام، في اليوم الأخير من أكتوبر/ تشرين الأول ١٨٩٤، نشر رسالة من أربع صفحات وقّعها باسم پول بورجيه، وقال: «منذ زمن بعيد لم أواجه تجربة متعتها بحجم متعتكم». ثم عاد ونشر بضعة أعمال لفكر أوسع (روايته الأولى «الحب يتحقق» والمعروف أيضاً باسم «جنية پورت كروس» أو «طريق اللاعودة» حيث نتنشّق عطر «پيير لوتيه»). وبعد فترة قصيرة نجد هنري يتجه نحو شخصيات (رجالاً ونساء) نلمح في مواقفها الأخلاقية المسيحية والتقليدية تجسيداً حاسماً للحياة اليومية والتي يختصرها في مقدمته الطويلة (١٩٠٥) الملحقة بروايته «خوف الحياة» (١٩٠٢).

ولا شك في أنه من الصعوبة بمكان تلخيص عمل كثير الوفرة يضم أكثر من مائتي كتاب ويتطرق إلى مختلف المجالات: الشعر، المسرح، الرواية، القصص النفسية، القصص الپوليسية، السير الذاتية، الدراسات الأدبية، النقدية، والتاريخية، كذلك المذكرات، وقصص الرحلات.. وهي كتب معظمها في منزله في موپاس في كوغنين.

في العام ١٩١٩ اختير هنري بوردو عضواً في الأكاديمية الفرنسية، وكان شاهداً، بل ممثّلاً أحياناً، على حقب هامة على المستوى التاريخي (الحرب العالمية الأولى، الحركات الاجتماعية خلال عام ١٩٣٠، والحرب العالمية الثانية) وعلى مستوى التطور الاجتماعي الأخلاقي (تعديل في المكان الذي شغرته النساء على المستوى الثنائي والمجتمع ككل، تحسّن ظروف معيشة العمال).

هذا العمل يبدو عادة في إطار سافوا: «شامبيري» آل روكفيار، «وادي الموريين»، «المنزل الميت»، «الحملة الصليبية الجديدة للأطفال»، «راهبة الهيكل»، «لو شابليه»، «المنزل» و«البلد دون ظل».

سلكت روايات بوردو طريق القيم التقليدية على نمط «رينيه بازين» وأحياناً «پول بورجيه». وقد اعترف باشتياقه إلى «السيد» والتي اختلفت قليلاً فيما بعد. وعلى الرغم من تجسيد شخصيات رواياته لأشخاص أمناء وأوصياء على القيم التقليدية في فرنسا إلاّ أنها شاركت في توسع النفوذ الفرنسي في العالم دينيّاً وصناعيّاً وعسكريّاً في صورة أفراد عائلته ذاتها.

في أواخر عام ١٩٣٠ (فترة بروز الجبهة الشعبية) استمد هنري بوردو إيحاءاته من الكاثوليكية الاشتراكية، وكان يتخذ موقفاً واضحاً من قضية تحسين الظروف المعيشية للفقراء (الإسكان، الأحوال والعادات، الصحة، والطعام) وذلك في روايتيه «النضال» و«جرائم لاطوعية» اللتين وضعتا ظروف الحياة في خط مواز مع الرفاهية والمعارضين ودجل طبقة النبلاء والبورجوازية المترفّعة. وفي فترة الصراع قام هنري برحلة إلى ألمانيا ليرى ماهية ما غدت عليه في موضوع الأيديولوجية الاشتراكية المحلية. وقد أثار بشفافية مسألة ألمانيا الجديدة متفاجئاً من ارتياحه ومستهجناً

تسلّط القوى الجديدة على الأرواح.

انتهاء الحرب العالمية الثانية شكّل انقطاعاً في أعمال بوردو الذي تسلّم منصباً رسميّاً لدى المارشال بيتان، وهو صديق منذ سنوات الحرب الأولى (الجدران جيدة ١٩٤٠). وقد استمر في لقائه حتى عام ١٩٤٣. وبعد أن حطت الحرب رحالها بفترة وجيزة، في أيلول/ سپتمبر ١٩٤٥، كان بإمكانه الاندراج ضمن لائحة الصفوة التابعة للجنة الكتّاب المحليين، لكن هذه أغلقت في تشرين الأول/ أكتوبر بسبب الإضراب. وفي هذا الشهر ذاته قام الجنرال شارل ديغول بإهداء كتاب مذكراته حول الحرب (النداء) ١٩٤٠ - ١٩٤٢ بهذه الكلمات: «إلى السيد هنري بوردو الذي غذّت أعماله كلاً من روحي وعقلي».



إهداء الجنرال ديغول

كان هنري بوردو مخلصاً في صداقاته، إذ كان له موقف المدافع عن تشارلز موراس إبان محاكمة هذا الأخير في كانون الثاني/ يناير ١٩٤٥، وخلال الشهر التالي في اجتماع الأكاديمية الفرنسية أتيحت فرصة تعيين تشارلز موراس كفنان ناشط (بما في ذلك رسائله، التي نشر بعضها في مذكراته) ومنحه العفو الرئاسي من الرئيس ڤينسنت أوريول.

غدت الأفكار والقيم التقليدية التي دافع عنها في رواياته بعد الحرب منطوية أكثر فأكثر على مفارقة تاريخية. وفي «ضوء في نهاية الطريق» (١٩٤٨)، نعود إلى الابن الذي التقيناه، كما في «رحلة الاستهلال»، الشخصيات الحقيقية التي (من عام ١٩٠٠ حتى ١٩١٥) أدت أدوارها في العقول والقلوب، أو في مسار الأحداث: بيرغسون، جان جورييه، ديروليد، ميسترال، باريه، موراس، پيغاي، بسيشاري.

«أنجز العمل» فبدأ منذ عام ١٩٥١ بكتابة مسوّدات مذكراته. وفي عام ١٩٥٩ بدأ يعيد حسابات مذكراته كأكاديمي (أربعون سنة في الأربعين). وفي نهاية عمره ـ عاش أكثر من تسعين عاماً ـ تفاجأ حين رأى العالم قد تحول عن الخطوط التي رسمها. يعتبر عمله من أحد أغنى الأعمال لكنه أيضاً من أكثرها قراءة في القرن العشرين. باع العديد من رواياته أكثر من ٥٠٠ ألف نسخة وترجم العديد منها إلى لغات عدة. شارك لعدة سنوات في «نشر العالمئن» طيلة ستين عاماً، والآن يرقد منسيّاً، مع أنه من أكثر كتّاب الروايات شعبية.

دفن هنري بوردو في مدفن كوغنين (بالقرب من شامبيري) وقد حفر على باب المعهد اسمه.

أعماله:

الروايات:

البلد الأم (1900)
خوف العيش (1902)
الآنسة الصغيرة (1905)
آل روكڤيار (أسرة) (1906)
الأعين التي تفتح (1908)
مفترق الطرق (1909)
رداء الصوف (1910)
ثلج على الدرجات (1911)
محبو جنيڤ (1912)
المنزل (1913)
الشباب الجديد، بطلا العشرين ربيعاً (1915) أحدهما سان سيرين ديكلي
قيامة اللحم (1920)
شبح شارع مايكل أنجلو (1922)
ياميليه تحت شجر الأرز (1923)
راهبة الهيكل (1924)
ڤالومبر (1928)
أديل كام، هنا زمن الأرواح (1931)
قصة حب كزاڤييه دو ميستر إلى آوست دارديل، (1931)
الآتي (1932)
الدخيل (1936)
قضية شارع ليبيك (1938)
فارس الريح أو بطولة غينيمير.

موريس روكڤيار

الابن الضال

تُمثّل هذه الرواية لوناً من ألوان الأدب القصصي ونعني به الأدب الواقعي المعاصر الذي تشعر وأنت تقرأه بنسمات الصدق والواقعية تهبّ عليك من خلال سطوره، وكأنك تعيش مع أبطال الرواية في الجو الذي يعيشون فيه، وتعاني من الانفعالات التي يعانون منها، وتنتابك المشاعر التي تنتابهم، وتضطرب في محيط الحياة التي يضطربون في غمارها، بل إن في بعض المواقف ما يملك عليك مشاعرك إلى حدّ تنسى معه أنك تقرأ أدباً يُفترض أنه من نسج خيال مؤلفه، فتخال كأنك تعرف هؤلاء الأشخاص الذين تتلاعب أحداث حيواتهم بعواطفك، فتأسى لأحزانهم حتى لتنساب دموعك من مآقيك مشاركة لهم، أو تفرح لفرحهم، وكأنك أنت من أصابه الحادث الفرح. أو ربما يخفق قلبك حبّاً لمحبوبهم فتحسّ بنفسك قد رددت إلى شبابك الباكر ردّاً عنيفاً لا هوادة فيه، وإذا أنت مستغرق في أحلام الهوى وأماني الصبا ونزوات الغرام الطائش الذي أنسى بطل هذه الرواية كل اعتبارات التعقّل والاحتكام إلى الضمير والإخلاص للصديق أو الأقرباء.. بل الإخلاص للذات، ولو بهدف حمايتها من التردّي في الهاوية التي تصل إليها فيها يد القانون وسطوته وعقابه.

ولا شك في أنَّ أسلوب المؤلف الفذّ بلغ غاية الإعجاز في التوفيق بين النقيضين: بين الواقعية في تصوير المواقف والانفعالات، وتحليل المشاعر والنزعات، وبين الإبداع والرقّة في وصف الأشياء والمناظر والمرئيات، إلى حدّ يرفعه ـ كما يقول بعض النقاد ـ إلى مستوى ورومانسية «لامرتين» و«شاتوبريان» وإلى دقة وصف «تشارلز ديكنز».

فرانسوا روكڤيار محام شهير على رأس عائلة محترمة من «شامبيري» في فرنسا، حملت لواء الشرف والإباء من الأسلاف إلى الآباء والأبناء،

يواجه سوء الطالع الذي ينصب فجأة على الأسرة. أمّا موريس ابنه، الذي نسي المبادئ التي نشأ عليها، فإنه يهرب إلى إيطاليا ليرتبط ارتباطاً مداناً بالمرأة الجميلة فرازن زوجة موثق العقود في المدينة.

استمرت العلاقة الرومانسية بين العاشقين طيلة عام كامل، وحين أدرك الشاب خطأه عاد إلى بلده موصياً صديقه أنطونيو سيكاردي، النحّات، الإعلان عن رحيله وانتهاء علاقة الحب مع عشيقته. وكانت أنباء الفضيحة قد شاعت لأنّ السيد فرازن أراد الانتقام لشرفه المهان. وبناء على نصيحة قدّمها إليه أحد موظفيه الكبار ـ في مكتبه ـ المدعو ويلي فيليبو، ادعى سوء استعمال الثقة ضد الهاربيْن، مؤكداً أنه في الليلة عينها التي غادر فيها الثنائي شامبيري تمّ سرقة مبلغ مائة ألف فرنك من خزانته.

أمّا السيد روكڤيار، الذي سرعان ما توفيت زوجته ڤالنتين جراء الحزن والمرض، فقد تحدّى مشاعر الحسد والكراهية، بمساعدة ابنته مرغريت المؤمنة ببراءة أخيها، والتي كان عليها، في خضم هذا الاضطراب العظيم، فسخ خطبتها من شاب ثري. ولم يتقدّم بالدعم المعنوي والمادي في هذا الخطب الجلل سوى القليل من الأصدقاء المخلصين: العم العجوز إتيين ونقيب المحامين هاميل والفتاة جين ساسيناي التي كانت تحب موريس بإخلاص.

وجرت المواجهة في قاعة المحكمة بين الأب فرانسوا روكڤيار ومحامي المدعي الأستاذ پورتيريو (محامي السيد فرازن). وقد تقدّم فرانسوا بدفاع روحي في استئناف مثير للشفقة، يظهر نبل مشاعر جيل عريق من المزارعين والمحامين والوطنيين، تمكّن معه من إماطة اللثام عن الحقيقة..

بالطبع كانت المذنبة هي إديث فرازن التي ارتكبت جرم السرقة للتوصّل إلى تسوية مع عشيقها.

*

القسم الأول

1 - مزرعة البرج

ارتفع من على قمة التل الصغير صوت السيد «فرانسوا روكفيار» يخاطب العاملات، حاصدات العنب، اللواتي انتشرن على طول الطريق المنحدر، يخفّفن عن الكروم أثقال عناقيدها السوداء: «لقد هبط الليل، فهيّا إلى جولة أخيرة».

أطلقها صاحب الضيعة بصوت رقيق ـ ولكنّه آمر ـ بعث النشاط في الأيدي، وأحنى من جديد ظهور العاملات المتباطئات.. فإذا بهنَّ قد أقبلن على العمل!.. ثم أضاف السيد في لهجة مرحة: «إنّهنَّ في الصباح أكثر خفة ورشاقة من العصافير، فإذا جاء العصر تحوَّلن إلى ثرثارات!».

واستثارت هذه الملاحظة ضحكهنَّ كلهنَّ، فأجبن بصوت واحد مرح: «أجل، أيها السيد المحامي».

لم يكن صاحب مزرعة «البرج» يُخاطب من قِبل مزارعيه إلاّ بهذا اللقب. وكانت هذه المزرعة ضيعة جميلة تتألف من قطعة أرض واحدة، مزروعة بالأشجار والحقول والكروم، تقع في أقصى مقاطعة «كونيان»، على مسافة ثلاثة، أو أربعة، كيلومترات من مدينة «شامبيري»، ويمكن الوصول إليها عبر طريق زراعي بعد عبور قنطرة قديمة قائمة على نهر «أليير» ذي المياه المنخفضة. وهي تطلّ على الطريق المؤدي إلى مدينة «ليون»، الذي كان يربط فيما مضى مقاطعة «السافوا» بالأقاليم الفرنسية المجاورة من خلال صخور «إيشيل» المنحوتة. وقد أُطلق عليها اسم مزرعة «البرج»

نسبة إلى برج قديم كان يعلو قمة تلك الصخور، ولم يبق منه اليوم أي أثر. وتملك هذه المزرعة، منذ قرون عديدة، أسرة «روكفيار» التي دأبت على توسيع رقعتها شيئاً فشيئاً، كما يدل على ذلك المنزل الريفي المقام فيها، وسائر المنازل التي تتكوّن من وحدات وحجرات غير متجانسة، وإن كانت «معبّرة» كوجه الشيخ الذي تتلخّص في تجاعيد وجهه حياة بأكملها!.. فهنا يتمثّل ماضي أسرة عريقة، وفية لأرض الآباء والأجداد. وقد كان آل روكفيار جميعاً، أبّاً عن جدّ، من رجال القانون: فكان منهم نقباء محامين، وقضاة، ورؤساء لمجلس الشيوخ الإقليمي القديم.. كما كان منهم مستشار في محكمة الاستئناف الجديدة بلغ به تعلّقه بموطنه، وحرصه على أن يموت في مسقط رأسه، حدّاً جعله يرفض كل ترقية!.. ومن هنا درج أهل البلدة على اعتبار أسلاف «روكفيار» جميعاً ـ دون استثناء ـ من المحامين، مستمدّين من تسميتهم هذه معنى الحماية! وقد زاد من جدارة مالك الضيعة الحالي ـ السيد «فرانسوا روكفيار» ـ بهذه التسمية، أنه مارس مهنة المحاماة حوالى أربعين عاماً، اكتسب في خلالها إلماماً دقيقاً بالقانون، ولساناً ذرِباً بليغاً في الدفاع!

كانت كروم الأعناب متراصّة في صفوف منتظمة تجعل مهمة الإشراف على الحصاد سهلة. وكان اللون الذي اصطبغت به أوراق العرائش ينبئ بحلول شهر تشرين الأول/ أكتوبر. وهناك فوق التلال بدت الأرض أشدّ ضياء في مواجهة السماء الشاحبة. ومن خلال الأغصان المتلألئة كانت عناقيد العنب القاتمة تسترعي الالتفات. وكانت حاصدات العنب وهنّ يسرعن الخطى، وقد شهرن في أيديهنّ السكاكين المخضَّبة بدماء العناقيد، يشبهن الكهّان الذين يعاجلون الذبائح بضربة قاضية فجائية!.. فإذا سقطت العناقيد تحت ضرباتهنّ ألقين بها في السلال. وكنّ جميعاً يرفعن ملابسهنّ

ويثبتنها إلى الخلف لتسهل عليهنّ الحركة فوق تلك الأرض الرّخوة، وقد عصبْنَ رؤوسهن بمناديل تقيهنّ حرارة الشمس. وبين وقت وآخر، كانت الواحدة منهنّ تنتصب بقامتها فتبرز فوق مستوى الكروم، كالسمكة التي تقفز فوق سطح الماء لتتنفَّس قليلاً ثم تغوص في لجّ الماء من جديد. وكانت بينهنّ عجائز محدودبات الظهور، مجعدات الوجوه، بطيئات الحركة، جافّات الأجسام، ومع ذلك فقد كنّ يتمتّعن بقدرة على التحمُّل، وبيقظة واعية لكل ما كان يدور حولهنّ، حرصاً منهنّ على الاحتفاظ بآخر فرصة لهنّ في العمل بعد أن لم يعد يستخدمهنّ أحد.

كما اشتملت صفوف الحاصدات على فتيات في نحو العشرين ربيعاً، كنّ أكثر انتصاباً في القامة وخفّة في الحركة من الأخريات، وقد عرضن ـ دون خوف ـ وجوههنّ وسواعدهن عارية لوهج الشمس الذي راح يلسع بشرتهنّ. وكانت هناك ـ إلى جوارهنّ ـ صبايا لم يكتمل نموهنّ بعد، فهن أقلّ جلداً على العمل، يقفزن من مكان إلى مكان، فيُحدثن اضطراباً في الصفوف، أو يجلسن في سكينة وهدوء وقد غمرتهنّ فرحة التلميذات الصغيرات في الأقسام الداخلية من المدارس، حين يسمح لهنّ بالخروج في يوم العطلة المدرسية، وقد انثنت أعطافهن انثناءة أغصان الكروم الرّخصة في أيديهن!

وأخيراً كان هناك صبية صغار سرّحتهم أمهاتهم من البيوت ليسترحن من جلبتهم وضوضائهم، فجاءوا وجاسوا في الحقل يعيثون فيه فساداً، ويحصدون العنب ولكن لحسابهم الخاص! فكانوا يزدردون ما يحصدون، ويلطخون به شفاههم وخدودهم، كسكارى ماجنين.. ولكن قبل الأوان!

*

وفي الدرب، الذي يتوسّط المزرعة، وقفت عربة شُدَّ إليها ثوران ضخمان أشقران، لكلّ منهما قرنان انتصبا على شكل مِزهر.. وكانت هذه العربة تنتظر - في صبر - لحظة إطلاقها إلى المعصرة، بعد أن حمّلها الزرّاع بما يفوق طاقتها من أكداس العنب.. ولم يكن هؤلاء الزرّاع يغرقون في الضحك كالفتيات، وإنّما كانوا يكتفون بتبادل بعض العبارات والإيضاحات المختصرة. وكان الصغار منهم يضعون على رؤوسهم قلانس بيضاء، ويرتدون ثياباً من ألياف القنب (التيل) لا تعوق حركاتهم، على نسق ثياب صيادي جبال الألپ التي انتشرت بين فتيان إقليم «السافوا» بدافع المحاكاة.. وبعد أن أنفذ القوم عصاً خشبية صلبة في أذني الوعاء الطافح بالعنب، حتى حافّته، تعاونوا جميعاً على رفعه إلى أكتافهم، وساروا به في خطى خفيفة متّزنة، حتى رفعوه فوق العربة، التي وقف على سطحها شيخ مسنّ ذو لحية بيضاء، أخذ يضغط بيديه القويّتين العنب الذي أُترع به الوعاء. وبين آونة وأخرى كان ينصب قامته، فتبدو يداه في شكل يبعث على التقزّز، وقد تخضّبتا بدماء العناقيد.

وفي مواجهة مزرعة «البرج» كانت أطياف المساء قد بدأت تغزو تلال «فيمين» و«سان سوپليس» القريبة من سلسلة جبال «ليبين» التي كانت تستقبل الشمس الغاربة.. بينما بدا - إلى أسفل - وادي «سان تيبو دوكو»، ووادي «إيشيل» المتعرّجان. وأغرق ضياء الغروب الكرم بأصباغ من الأرجوان والذهب، فأبرز حاصدات العنب في صفوفهنّ المتراصّة، وأحاط بهالاته رؤوسهن المتّشحة بالمناديل، وراح يتراقص على قرون الثورين، وأضرم النار في لحية حوذيّ الضيعة الغبراء ووجهه الأحمر، وهو واقف فوق العربة.. كما أضاء وجه روكڤيار الذي بدا مفعماً بالحيوية تحت حافة قبّعته. وإلى أعلى، انعكس الضياء على برج «مونتاينول»

الشامخ ليرتمي أخيراً في جرأة، متوّجاً صخرة «مونت غرانييه» ذات الشهرة الأسطورية القديمة.

وكانت الحاصدات قد تجمّعن حول بعض الكروم المتبقّية يقطفن عناقيدها الأخيرة. ولم يكد الوعاء الأخير يُرفع إلى سطح العربة، حتى صاح الشيخ المسنّ «جيريمي» من فوقها متهلّلاً: «ها نحن قد انتهينا أخيراً يا سيدي المحامي».. فسأله السيد: «كم بلغ عدد العربات؟».

ـ اثنتا عشرة.

فقال السيد: «إنها سنة طيبة».. وأضاف، وقد انطلقت الثيران في الطريق، تتبعها جموع العاملات: «فلأمض أنا بدوري!».

وبلغت العاملات قمة التل وهنّ يحملن سلالهنّ في أذرعهنّ وسكاكينهنّ أو مناجلهنّ في أيديهنّ.. وهناك، أحطن بالسيد روكڤيار، الذي غرز عصاه الحديدية في الأرض، وأخرج من جيبه كيساً صغيراً تناول منه قطعاً من النقود النحاسية والفضّية.. فصمتت من كانت تتكلّم منهنّ، ولذن جميعاً بالسكوت.. كانت لحظة ذات رهبة خاصة.. لحظة توزيع الأجور!

وخلف الجمع المحتشد، كانت ألواح الزجاج وأسطح الأردواز تعكس ـ كالمرايا ـ آخر ومضات الشمس الغاربة.. راح صاحب الضيعة ينادي كل عاملة باسمها المجرّد من دون كلفة.. فقد اعتاد رؤية المسنّات منهنّ طوال حياته، كما عرف الأخريات منذ حداثتهنّ. وأقبلن جميعاً يتسلّمن أجر يومهنّ، مشفوعاً بكلمة رقيقة منه كنّ يجبنه عليها بقولهنّ: «شكراً يا سيدي المحامي».. أمّا إذا سبق وصادف السيد عاملة منهنّ أظهرت كسلاً في أثناء العمل، فإنه كان يخصّها بكلمة تأنيب، تخفّف من وقعها لهجته الرقيقة، كي

يظهر لها أن عينه يقظة لا تغفل!.. ومع أن الأطفال كانوا يتقاضون أجرهم نقداً ـ من عناقيد العنب ـ فإنه لم يكن يبخل عليهم أيضاً ببضعة سنتيمات تدخل السرور إلى قلوبهم.

*

قال السيد روكفيار ممازحاً، في أثناء انهماكه بدفع الأجور: «فلتلزم اللواتي قبضن أجرهنَّ ناحية اليسار حتى لا يختلط عليَّ الأمر فأكرِّر الدفع إلى ما لا نهاية!».. فأجابته فتاة حسناء في نحو الثامنة عشرة أو العشرين: «لا ضير في ذلك على أية حال!».. ولم تكن تلك الفتاة تغطّي رأسها كزميلاتها، وكأنَّما كانت تتحدَّى حرارة الشمس بشبابها.. وقد تهدّلت على جبينها خصلات من شعرها الأشعث، ونمت سمات وجهها على أنها من طبقة العامّة.. غير أنَّها كانت موفورة الصحة، ذات فم مديد الاتساع، وعينين حادتين، وبشرة ذهبية بلون حبات العنب البيضاء الممتلئة، التي صيَّرتها الحرارة شقراء، والتي بدت كما لو كانت مفعمة بإكسير الشمس.

وحدّق إليها السيد روكفيار بنظرة فاحصة، ثم قال لها: «لكم ترعرعت بسرعة يا كاثرين!.. فمتى تتزوّجين؟».. فأرتج القول على الفتاة إزاء هذه المفاجأة العلنية. ثم لم تلبث أن أجابت وقد احمرَّ وجهها فرحاً: «هذه مسألة تحتاج إلى تفكير!».. فضحك السيّد وأردف يقول: «إنَّك تروقين للعين على كل حال يا كاثرين». ونفحها قطعة نقدية شفعها بهذه النصيحة في لهجة حازمة: «كوني عاقلة أيتها الصغيرة، فإنَّ الفضيلة أهم من الجمال!».. فأمّنت على قوله دون إبطاء: «هذا صحيح يا سيدي المحامي».

وبعد أن انتهى السيد روكفيار من عملية دفع الأجور، نظر إلى الجميع وسألهنَّ: «أمسرورات أنتنَّ جميعاً؟». وإذا بعشرين صوتاً

تجيبه معاً بكلمات الشكر. وهنا أشار طفل بأصبعه إلى امرأة عجوز انتحت مكاناً قصيّاً في خجل وذلّة، وقال: «ها هي ذي السيدة فوشوا!».. ولم يأبه أحد لإشارة الطفل، وكأنَّ العجوز لم تؤدِّ عملاً تستحق عليه أي أجر.. بينما استأنف السيد روكڤيار حديثه إلى العاملات قائلاً بصوته اللطيف: «والآن، أسعد الله مساءكنَّ. سوف تصلن إلى «سان كاسان» و«فيمين» قبل هبوط الظلام»، فرددن عليه بقولهنَّ: «أسعد الله مساءك أيها السيد المحامي».

ووقف السيد روكڤيار في مكانه يرقب حاصدات العنب وهنَّ يبتعدن،وقد راحت ظلالهنَّ تتضاءل ـ تجاه الشمس الغاربة ـ حتى تلاشت تماماً، بينما ظلّت أصواتهنَّ تصعّد إليه من أسفل التل.. ثم إنهنَّ انقسمن إلى فريقين: فريق اتجه إلى «فيمين» وفريق إلى «سان كاسان».. وراح هذا الفريق الثاني يردّد الأناشيد والأغاني الريفية المعهودة.. وكانت الشمس المحتضرة قد لامست الجبل في تلك الأثناء.

أمّا المرأة العجوز ـ «السيدة فوشوا» ـ فقد ظلت واقفة إلى جانب السيد، لا تتحرّك ولا تطالب بشيء، فناداها باسمها قائلاً: «پيپريت!».. وإذ ذاك مالت برأسها إلى الأمام، فبدا وجهها وقد ارتسمت عليه أمارات الألم والقلق أكثر مما ارتسمت عليه تجاعيد الشيخوخة، وتمتمت تقول: «مسيو فرانسوا».. فأجابها: «هاك مائة سنتيم، خذيها واذهبي لتناول الحساء في المنزل».. فنظرت العجوز إلى النقود البيضاء في يدها المخشوشنة، وقالت: «لكن هذا أجر ثلاثة أيام، وليس لي سوى أجر يوم واحد؟!».

ـ لا بأس. خذيها! ثمَّ كيف حال ابنتك؟!

ـ لقد رحلت إلى «ليون».

ـ وهل وجدت عملاً هناك؟

فتركت العجوز ذراعيها تسقطان إلى جانبيها، ولم تحر جواباً!.. فعاد السيد المحامي يسألها: «ولكن يجب أن تعمل».

ـ إنها لا تستطيع إيجاد عمل منذ حُكم عليها بأنها لصة!

فأجاب المحامي، محاولاً أن يلتمس لابنتها عذراً مخفّفاً:

ـ لقد ارتكبت فعلتها بدافع الرعونة والاستهتار والغرور.. إنَّها ليست شريرة بطبعها، وفي مثل سنّها يمكن تقويم سلوكها. ولكن من أي مورد تعيش الآن؟.

ـ ومن أي مورد تريدها أن تعيش؟.. من الرجال الضَّالين!

ـ وكيف عرفت هذا؟

ـ لقد أرسلت إليها في الأيام الأولى من محنتها حوالة بريدية، بمبلغ صغير، لمساعدتها، ولكنّها أعادتها إليّ مرفقة بحوالة أخرى بمبلغ كبير.. فما كان مني إلاّ أن أحرقتها!

ـ ما الذي أحرقت؟

ـ أحرقت المال الذي جاء ثمرة العار يا سيدي فرانسوا!

وهنا انتصبت قامة الفلاحة العجوز من الغضب، ورفعت يدها إلى السماء مهدِّدة، كما لو كانت تتّهم القدر، واستطردت تقول: «لست أدري كيف أنجبت هذه الابنة!.. لم يكن في أسرتنا إلاّ أناس شرفاء، أمّا الآن فإنّ العار يجلّلني!».

ـ لكنها ليست غلطتك يا پيبريت!

فهزت العجوز رأسها، وأجابت في لهجة التوكيد: «إنَّها غلطة الأسرة دائماً! وأنت أول من يعرف ذلك جيّداً، لأنك أنت الذي قلت هذا!».. فقاطعها متسائلاً في دهشة: «أنا؟». فقالت: «أجل، أنت. قلته لها بوجودي قبل صدور الحكم عليها. فقد كان القلق

يساورني من ناحيتها، فجئت بها إليك ذات يوم...».

ـ أذكر هذا.. وماذا قلت لها في ذلك اليوم؟

ـ لقد قلت لها إنه إذا أتيحت للإنسان فرصة الانتماء إلى أسرة شريفة فعليه أن يحفظ هذه النعمة باحترام كرامة الأسرة، إذ جرت العادة في الأسر على أن يتقاسم جميع أفرادها الخير والشر.. وثمار الخلق القويم، وتبعات الخلق المعوج!

ـ ولكن أحداً لا يستطيع أن يلقي تبعة تصرفات ابنتك على عاتقك!

ـ ولكنَّ الناس يحمّلونني التبعة رغم ذلك.. ولهم العذر، فقد شاء القدر أن يموت زوجي وهي لمّا تزل صغيرة.

ـ لو كان زوجك حيّاً لدافع عنها!

ـ بل قل لدقَّ عنقها!

ـ وأنت، هل لا تزالين تحبّينها؟

ـ إنها ابنتي!

ـ خفّفي عنك يا بييريت، ولا تستسلمي لليأس، فإنَّ الأمل لا يضيع طالما بقي الإنسان على قيد الحياة. هيا عودي إلى المنزل، فإني ذاهب إلى المعصرة لأرى إن كانت الدنان قد وصلت سليمة!

ـ شكراً يا سيدي فرانسوا.

*

كانت المرأة العجوز قد اعتادت القيام ببعض الأعمال في مزرعة «البرج» كغسل الثياب، وحصد الأعناب، والعمل في المطبخ في غياب الطاهي. ولم يبادر السيد روكفيار إلى الانصراف بعد ذهابها، بل راح ـ بنظرات المحبّ المولّه ـ يتأمل الأرض المنبسطة تحت قدميه.. ويرمق الكروم وقد جرّدت من عناقيدها التي كان يجد في

عصارتها فتنة الأرجوان والذهب.. ويرقب المروج والمراعي التي حُصدت جولتين.. وذلك المجرى الصغير، المجهول الاسم، الذي كان يفصل بين مقاطعتي «كونيان» و«سان كاسان».. وغابات أشجار البلوط والزان التي بدت تحت سماء الخريف أشبه بباقة باهتة..

لم يكن يقرأ على صفحة هذه الأرض ـ المختلفة الزرع ـ قصة تعاقب الفصول، وإنَّما راح يقرأ عليها تاريخ أسرته: فهذا الحقل اشتراه جده «فلان»، وذاك الكرم زرعه جد آخر.. وهو، ألم يتجاوز حدود المقاطعة كي يضيف إلى المزرعة هذه الأشجار الكثيفة المثمرة التي حان قطافها؟.. وإذ استدار إلى مباني المزرعة، تعرّف على الكوخ القديم المتواضع الذي بناه الفلاحون الأوائل من أسرة «روكفيار» ـ والذي أُعيد ترميمه بعد ذلك مراراً ـ فقارنه بمنزله الراسخ الدعائم، الفسيح، الذي يزينه كرم مزدهر بكر.. في هذه البقعة ولد أسلافه وعاشوا، وفيها يعيش الأحفاد اليوم، وقد زادهم قوة ـ من الناحيتين المادية والمعنوية على السواء ـ ماض عريق من الشرف، والعمل الدؤوب، والمال المدّخر. واشتدّ اعتزازه بنسبه وهو يكرر لنفسه العبارة التي قالتها له العجوز «فوشوا» منذ لحظات مضت: «إنها غلطة الأسرة دائماً!».. لقد أمدّت أسرته البلاد برجال أكفاء في أداء الواجب العام، وفي إدارة شؤونهم الخاصة. وهكذا تدعم الأجيال المتعاقبة بعضها بعضاً من أجل رفاهية الجميع!.. أولم يعبِّد له أجداده الأقدمون الطريق؟.. ولقد تمنّوا قبله أن يتملكوا هذه الأرض التي يدوسها الآن بقدميه، وخلب لبهم هذا الأفق الذي يحتويها بين أحضانه!

وأحسّ بشيء من الألم وهو يرد طرفه عن أملاكه، ليتأمَّل من جديد ما كانوا قد رأوه قبله من مجموعة الخطوط والألوان التي يتشكّل منها المنظر، والتي تركزت فيها مشاعرهم، كما تتركز فيها

مشاعره الآن!.. ذلك أن المزروعات تستطيع أن تغيِّر من شكل الأرض، بينما يعجز الإنسان عن أن يُحدث فيها أي تغيير بسيط.. لا في صبغتها، ولا في مدى اتساع رقعتها. لعلّه قد يضيف إليها بعض التعديلات المميزة فحسب، كبيت ينبعث من مدخنته دخان يومي بأنه مأهول، ويثير في النفس الحنين إلى الدفء، أو طريق، أو سياج، أو ناقوس يدعو بدقاته إلى الصلاة!

وإلى جانب إحساس السيد «روكفيار» - في وحدته الصامتة فوق التل - داخله ارتياح نتج عن اتصاله الروحي بأسلافه، فأحسَّ بما كان لهذه البقعة من قيمة في الماضي السحيق. وسرح بصره، فإذا سلسلة جبال «ليبين» في مواجهته، وقد لامستها حمرة الشمس الآفلة، وقطعت استرسالها الرتيب مرتفعات «سنيال». وانحدر بصره إلى السهل، فانطلق لحظة مع طول طريق «إيشيل» البديعة، التي كانت السفوح الواطئة للجبال تحف بها وكأنها تحرسها.. ثم صعد بصره إلى النتوءات البارزة في جبال «كوربيليه» و«جواني» و«غرانييه»، ليرتد من جديد إلى التلال القريبة، والوديان المتدرجة ذات التعرّجات المتناسقة. وتمثّل الرجل صفات من أسلافه في هذه الطبيعة المتباينة التي تصوّر العظمة آناً، وتصوّر الخمول آناً آخر.. فهي - من ناحية - تمثّل بسالة جده الذي وهب نفسه للجيش في عهد الثورة.. وهي، من ناحية أخرى، تصوّر له ترهل أبيه الذي أوشك أن يعرّض هذا التراث المقدّس للضياع، باستسلامه لحياة الدعة!

راح يحدِّث نفسه: «لن يستطيع أحد أن يستوعب مثلي روعة مغيب الشمس عن هذا المكان.. لسوف يفطن إلى هذه الروعة - بعد موتي - أحد أولادي.. أولادي الذين سيكملون أداء الرسالة، ويكونون ذرية صالحة!».

*

وعلى ضوء الماضي، راح يستعرض المستقبل في ثقة واطمئنان، فلم ينتبه في استعراضه إلى امرأة غادرت المنزل وأخذت تسعى نحوه.. وكانت امرأة متقدّمة في السن، تضع على كتفيها شالاً قاتم اللون، وتتكئ على عصاً، وقد بدا عليها التعب الشديد. وكان وجهها ـ الذي انعكست عليه ظلال المساء ـ يوحي بما كانت عليه في صباها من جمال أذبلته السنون دون أن تُفقده سمات الطهر والبراءة التي كانت تأخذك منه في البداية، ثم تجتذبك!.. كان ذلك الوجه صورة حيّة لنفس مستقيمة مبرأة من كل شر، ونزّاعة إلى التصوُّف!

وسألت السيدة «روكڤيار» ـ إذ كانت هي القادمة من المنزل ـ زوجها: «ألم يصل الأولاد بعد؟».. فأجابها: «ها هم أولاء قادمون يا ڤالنتين». وكان الزوجان يعنيان أولادهما. وأشار الزوج بيده إلى جمع حاشد يصعد الطريق من أسفل المنحدر، وفي مقدّمته طفلان تعرّفت عليهما جدتهما، فهتفت: «ها هما پيير وأدريان، يسلكان الطريق المختصرة. ولكني لا أرى الصغير جوليان؟».

ـ لا بد أنه ممسك بيد خالته «مرغريت»، فهو لا يتركها مطلقاً.

ـ هذا صحيح، فإني ألمحه بين مرغريت وخطيبها. إنَّ هذا الخبيث يفصل بينهما!.. وأمه، أين هي؟

ـ إنها تسير خلفهم، في رزانة كعادتها، وإلى جوارها أخوها «هوبير».

ـ وهل يمكنك أن تميّز الوسام الذي يُحلّي «هوبير» به صدره؟

فابتسم السيد «روكڤيار»، والتفت إلى زوجته قائلاً: «كيف تريدينني أن أميّزه من هذا البعد؟».. فضحكت زوجته بدورها في سماحة، وأردفت: «هناك شريط أحمر عريض يصعد الجبل».. فقال الزوج مازحاً:

ـ ولعلك ترين على صفحة السماء هذه العبارة: «هوبير روكفيار: ثمان وعشرون سنة، ضابط في مشاة البحرية، أُنعم عليه بوسام الشجاعة في الحرب، مرشّح للترقية، وقد اشترك في حملة الصين والدفاع عن بيتانج»!

فقالت الزوجة في توكيد: «إنني أقرأها بوضوح، دون شك!».. ثم نظرت من جديد إلى الطريق بعينين فاحصتين وتساءلت: «وموريس؟ لست أرى موريس».. فأجابها: «إنه يمشي في المؤخرة على ما أظن، مع شخص آخر». فوضعت السيدة روكفيار يدها على كتف زوجها في ارتياح وأردفت: «لعله شارل مارسيلاز، زوج ابنتنا. لقد اكتمل عددهم.. إنني أراهم الآن وأحصيهم كما كانوا صغاراً: جيرمين، وهوبير، وموريس، ومرغريت...»، فقاطعها زوجها: «لا ينقصهم غير فيليسي التي نفتقدها دائماً».. وغامت على وجهه سحابة من الحزن.. فهو لم يكن قد ألف بعد غياب ابنته الثانية، التي عبرت البحار لتترهبن وتقف حياتها على العناية بالمرضى الفقراء في مستشفى «هانوي» بالصين!

واتكأت العجوز بقوة على كتف زوجها وقالت: «كلاّ يا فرانسوا.. إنّها ليست بعيدة عنّا، فهي معنا بروحها. إنني موقنة بذلك، وأشعر به. لقد قابلها هوبير قبل عودته من الصين فوجدها سعيدة.. وسيأتي يوم نلتقي فيه جميعاً!».. فلم يُرِد الرجل أن يترك لعواطفه العنان أمام زوجته، بل قال مغيّراً مجرى الحديث: «إنه ليس شارل الذي يسير إلى جوار موريس.. إنها امرأة.. ولقد تركا الطريق المختصرة ليسلكا الطريق الطويلة».

ـ لعلّها تكون السيدة فرازن. هل تلمح زوجها؟

ـ نعم، إنها هي.. ولكني لا أرى زوجها موثّق العقود!

ـ إنّه سيأتي مع شارل بعد قليل، فإنَّ عملهما يؤخّرهما حتى الساعة السادسة.

ـ إنَّ فرازن وزوجته سيتناولان العشاء هنا الليلة، أليس كذلك؟

ـ نعم، فلقد سألني موريس أن أدعوهما إلى العشاء لأنه طالما دُعي إلى منزلهما.

ولاذ الاثنان بالصمت برهة، وقد غشيهما قلق واحد مشترك!.. ثم قطعت الزوجة حبل الصمت قائلة: «إنني لا أحب هذه المرأة!».. ودُهش الزوج، ليس من الملاحظة ذاتها، وإنما لصدورها عن زوجته التي كانت بطبعها أنموذجاً حيّاً للسماحة!.. فسألها ـ بدل أن يقر كلامها: «لماذا؟».. وحدجت السيدة روكڤيار ـ بعينيها الصافيتين ـ الشمس الغاربة وأجابت: «لست أدري السبب. فإنَّ أحداً لا يعرف من أين أتت، وإنني لأرتعد عندما أفكر في المدى الذي تنوي أن تمضي إليه!.. إنها ليست جميلة، ومع ذلك فإنَّ مجرد النظر إليها يكفي لإثارة قلق الأمهات على أولادهن، والزوجات على أزواجهن!».

ـ هذا يدعو إلى الرثاء!.. مَن الذي حدّثك عنها؟

ـ لم يحدثني عنها أحد، ولست أعرب إلاّ عمّا يخامرني. إنَّ الذين يسرفون في الصلاة ليسوا أقل الناس دراية بهذه الأمور! إنَّ لهذه المرأة عينين غريبتين، سوداوين، يشع منهما لهب! إنَّها تخيفني!

ـ أوه! صحيح! إنَّ أهل المدينة يتحدّثون عنها وعن ابننا!

ـ يجب أن ننبّه موريس.. وأن نحذره دون إبطاء!

ـ وكيف نفعل يا عزيزتي؟.. لسنا متأكدين من شيء على وجه التّحديد..إنها شائعات، فما قيمة هذه الشائعات؟

ـ إنَّها ليست شائعات، فإنني أكاد ألمسها، إنَّ ابننا في خطر!

فقال السيد روكڤيار: «إنَّ بعض العواطف قد تزداد شدّة إذا نحن كافحناها! ولعلك مقتنعة بذلك، وإلاّ لما وافقت موريس على دعوة الزوجين. ثم إنَّ الشبّان لا يتحمّلون مثل هذا التدخُّل في حياتهم الخاصة، ولا سيما أن موريس دكتور في القانون: فهو شديد الاعتداد بنفسه، والتعلُّق بنظريات سخيفة عن حق الإنسان في السعادة، وفي أن يكون حرّاً في تنمية شخصيته!.. إن «پاريس» تثقّفهم، ولكنها تبثّ الثورة في نفوسهم، فلا بد لهم من التجارب حتى يتعقّلوا ويتّزنوا».

ـ إذاً فقد كان هذا الأمر يقلق بالك، دون أن تحدّثني عنه!

ـ ولماذا أثير شجنك وحزنك، وقد وهنت صحتك!

ـ أجل، يجب أن أقوى، إذ لا بد للأم من أن تكون قوية. على أنَّ لديك أنت من القوة ما يكفي كلينا!

ـ لقد أخطأنا بوضعه في مكتب الأستاذ فرازن! غير أنني أردت أن أتيح له فرصة الإلمام العملي بالقضايا، ولا سيما ما يتعلّق منها بالمواريث وتصفية الممتلكات، قبل أن يتخذ لنفسه مكتباً مستقلاً.. ولمّا كان الأستاذ فرازن خليفة الأستاذ كليرڤال، الذي كان صديقي، كما كان موكلاً بعقود أسرتنا، فقد حرصت من جانبي على احترام أحد تقاليد الأسرة.. ولكنني أخطأت! على أنَّ كل شيء لن يلبث أن يتبدّل عمّا قريب..

وتساءلت زوجته في دهشة: «عمّا قريب؟»، فقال: «أجل!.. سآخذ موريس إلى مكتبي حيث يتم فترة التمرين، أو ليتدرب على الإجراءات القضائية في مكتب مارسيلاز. وسأخبره بهذا بمجرد استقرارنا في المدينة».. فشدّت على يده قائلة: «لا بأس، فبهذا تقل فرص مقابلته لها! ولكن هذا لا يكفي، فأنت تراه ميّالاً إلى العقل

والمنطق، أمّا أنا فأراه خياليّاً رومانسيّاً، وبودي أن أشغل خياله!».
فتساءل الأب: «وكيف ذلك؟».

ـ بأن أدبّر له خطبة مبكرة مثلاً. فإنّ الخطبات الطويلة الأمد تشغل الشبّان وتذكي نار وجدهم.. إننا في فرنسا نتعجل الزواج، في حين أنه أمر وثيق العلاقة بالحياة والأسرة والمستقبل!

ـ هذا صحيح.

ـ ولقد فكرت مرغريت في «جين ساسيناي» الصبيّة.

فقال السيد روكڤيار: «ولكنّها طفلة؟!»، فأجابت: «طفلة جميلة نشأت في أحضان أم مؤمنة!».

*

وقطعت عليهما الحديث صيحات الصغار: «مساء الخير يا جدتي.. مساء الخير يا جدي!».. كانت طليعة الأولاد قد وصلت، مؤلفة من «پيير» و«أدريان» اللذين راحا يلهثان إعياءً، بعد أن تسابقا في العدو، رغم صيحات السيدة روكڤيار: «لا تعدوا بهذه السرعة!». وتلقّاهما جدهما بين ذراعيه، فقالت «أدريان» في جرأة ودون كلفة، شأنها مع الجميع: «لقد آثر جوليان البقاء مع عمتي مرغريت، رغم أن أمي أوصته بأن يصحبنا!».. وما لبث الشبان الذين صعدوا السفح أن صاحوا بدورهم: «مساء الخير!».

ولم يشذّ عن المساهمة في هذا اللقاء العائلي غير «موريس» و«السيدة فرازن» اللذين كانا على بعد، وقد أخذا يتعمّدان الإبطاء ـ كلما اقتربا من القمة ـ ليظلا على مسافة بعيدة من بقية الجماعة، رغم أن مرغريت استدارت عدة مرات لتناديهما. وحجبت نهاية منعرج الطريق الجبل، بيد أنّ موريس والمرأة استطاعا أن يلمحا السيد روكڤيار وزوجته، فوق القمة، وقد انتصبا كطيفين في الفضاء، وإذ ذاك ألقت المرأة نظرة ذات معنى على رفيقها ـ الذي

أهاجت الخلوة لواعجه ـ وقالت: «لا بد أنَّ أباك كان أجمل منك!». ثم عقّبت بصوت خفيض وكأنها تحدّث نفسها: «إنه يعرف بغيته وكيف ينالها!». فتضايق موريس، ولكنه رمقها في صمت، فابتسمت لضيقه وتساءلت: «كم عمر أبيك؟».

ـ ستون عاماً على ما أعتقد!

ـ ستون عاماً!.. إنه يبغضني، ولا يحجم عن القضاء عليَّ إذا أراد!

ـ إنكِ تخطئين الظن، فهو يحسن استقبالك دائماً!

ـ هذه أمور يحسها المرء في قرارة نفسه.. إنه يمقتني، ومع ذلك فهو يعجبني! إنني أحب الرجل ذا الشخصية!

ودارت بهما الطريق قبل أن تبلغ نهايتها، فكشفت لهما عن منظر جديد كانت تحدّه من اليمين رمال، ومن اليسار أشجار حال لونها فأصبحت خليطاً من خضرة الربيع وصفرة الخريف الذهبية.. ولاح لهما فجأة جبل «نيفوليه» بقدّه البديع المتناسق، وقد انعكست عليه فلول أشعة الشمس الآفلة.. واصطبغت الأعشاب النحيلة ـ التي تسلّقت الصخور ـ بلون بنفسجي كلون الرواسب المتخلّفة في النبيذ، كما برزت في المؤخرة سلسلة جبال «مرجيريا» وقد اكتست بحمرة وردية فاتنة، فتمتم موريس مأخوذاً: «أرأيت كيف تغيَّر المنظر!».. ولم يفطن إلى أنَّ صاحبته كانت أكثر احتفالاً بوحدتهما منها بجمال المساء الأخّاذ!.. وما لبثت أن توقفت عن السير، فالتفت إليها قائلاً: «ماذا دهاك؟.. أمتعبة أنت؟».

ـ لا.. ولكنني أمنحك الوقت لتتأمَّل جمال الطبيعة!

ـ أتراك تغارين؟

ـ أجل، فأنت تحب موطنك. أمّا أنا..

فهتف في قلق: «أمّا أنت؟».. فقالت: «لن أقول لك!».. وإذ ذاك

قال موريس: «أمّا أنا، فسأقول لك إنني أحبك!».. وضمها بين ذراعيه.. وكانت امرأة نحيلة، سمراء، ذات عينين واسعتين، وجسد يثير اللواعج، ولكنه لا يلين للعناق! وإذ طوّحت برأسها إلى الخلف قليلاً، رأى خلال جفنيها نصف المغمضين نظرة اختلط فيها السواد بذهب الغروب، وتركّزت فيها كل الغواية الشهوانية التي يثيرها في النفس ذلك الفصل من فصول السنة، وتلك الساعة من اليوم. وغمغم موريس وهو يضمّها إليه: «ما أضألها من مخلوقة!.. ومع ذلك، فإنَّ هذه المخلوقة الضئيلة تعادل الكون كله في نظري!».. وأضاف: «أحبك يا إديث!».

فقالت والابتسامة الواهنة لا تفارقها: «أحقّاً تحبّني؟».. ولم يجب، بل هتف في هيام: «متى تكونين لي؟»، فأجابت: «عندما لا أكون لغيرك!».

ـ مستحيل!

ـ لماذا؟

ـ لأنك مرتبطة برجل.

ـ فلنرحل معاً!

ـ وكيف نعيش؟

ـ على مال صداقي المدّخر!

ـ لا أحبّذ هذا.. فضلاً عن أنك لا تملكين التصرُّف في هذا الصداق.

ـ سأسترده.

ـ لا، لا!

ـ بوسعك أن تعمل إذاً.

وصمت، فانهالت عليه بكلمات الاستهزاء وهي مغيظة: «آه!.. إنَّك تؤثر أن تطيع أباك! كن مثله رجلاً كبيراً في بلدة صغيرة، وأباً لأطفال عديدين!».. وإذ رأت مدى حزنه، ارتمت على صدره

قائلة: «إنني أحبك، وأعذّبك.. ولكنك ترى أنني أختنق في بلدتك هذه.. «شامبيري»!.. أريد أن أرحل عنها، وأن أكون حرة في أن أحبك، وفي أن أعيش.. فإنني أكره الكذب!.. ثم إنك لا تحبّني!».. فهتف قائلاً: «كيف استطعت أن تقولي مثل هذا يا إديث؟!».

ـ لا، إنك لا تحبّني.. ولو أنك أحببتني بصدق، لكنتُ لك منذ أمد بعيد!

وعادا يسيران على مهل، وقد أثقلت روحيهما هذه الاعترافات. وكان الأفق قد تخلّص من النطاق الجبلي، فاتسعت صفحته، وبدت في منتهاه ـ خلف آخر قمم «نيفوليه» ـ بحيرة «بورجيه» التي تباينت زرقتها، إذ كان البخار الرمادي المتصاعد من أطرافها يخفّفها في تدرج بديع.. ولكنهما لم يعودا يريان شيئاً من هذا الجمال البديع: لا الهدوء الثقيل الذي يجثم على الكون في هذه الفترة من السنة،ولا تلك الروعة المضطربة التي تتجلّى بها الطبيعة، ولا تلك الفتنة التي تشوب مساء الخريف فكأنها إغواء صارخ.. فما حاجتهما إلى كل هذا وفي قلبيهما مثله؟

وقبيل وصولهما إلى المنزل، التقيا بالسيدة روكڤيار التي أقبلت بنفسها لتستقبل السيدة فرازن، رغم نصح الأطباء لها بعدم مغادرة المنزل بعد الغروب!

وفيما كان السيد «روكڤيار» عائداً من المعصرة ـ في ساعة متأخرة من المساء لم يكن أحد يرتقب عودته فيها ـ أبصر ابنه مع المرأة الشابة في الظلام.. فإنَّ الحركة تنشط في الدار أيام الحصاد، بحيث يسهل التسلّل إلى الخارج، دون استثارة أي انتباه.

وهتف موريس: «لقد رآنا»، فقالت السيدة فرازن: «هذا أفضل!».. وحاول السيد روكڤيار عبثاً أن يطرد عنه القلق، وهو يمرّ

بالمخزن ـ ذاك المبنى القديم الذي بناه أسلافه ـ ليبلغ مدخل الدار التي أسّسها جده، وزادها هو اتساعاً.. وقال لنفسه متذكّراً حياته: «لقد كنت شابّاً مثله!». ولكنَّ الشباب ذاته لم يصرفه عن تدعيم مستقبل سلالته. فهل سيتاح لابنه الأصغر ـ في وقت من الأوقات ـ أن يصلح من نفسه، وأن يظهر من الهمة والاستعداد للتضحية ما يؤهله لشرف رئاسة الأسرة؟.. ولم يكن السيد روكڤيار بطبعه سهل الانفعال، ولكنه أحس إذ ذاك بيأس «السيدة فوشوا» وأساها، وبوطأة الخريف ووحشته، تحيط به وكأنها سرب من طيور شريرة!.. لقد كان، منذ فترة، يستعرض ـ أمام مزرعته ـ تاريخ آل روكڤيار باعتزاز وفخر، فإذا به، بعد حديثه مع «السيدة فوشوا» العجوز، وبعد قبلة فاجأ ابنه موريس وهو يطبعها، يشعر بهم يجثم على صدره، دون أن يجد له تعليلاً، ويشهد كيف تكتهل فصول السنة، وكيف تنهار الأسر!

2 - التمرّد

غـادرت أسـرة روكـڤـيـار الـريـف عـائدة إلى مقرهـا الشـتـوي في «شامبيري»، بعد رحيل الابن الأكبر «هوبير» ليلتحق بحاميته في «بريست». وكانت الأسرة تقيم في الطابق الأول من دار فخمة قـديـمـة، تـقـع فـي آخـر شـارع «بـواني»، إلى جـوار حصـن الـمـديـنـة الأثري. وكان شهر تشرين الأول/ أكتوبر قد أشرف على نهايته، فانهمك المحامي بالقضايا ومحكمة الاستئناف. وفي ذات يوم، انتهى السيد «روكڤيار» من تناول الغداء الذي حال المرض دون أن تشاطره إيّاه زوجته، ثم استدعى ابنته مرغريت ـ بينما كان ابنه موريس منشغلاً في قراءة الصحف ـ وقال لها: «تعالي معي، فإني أريد استشارتك»، فسألته: «في أي أمر يا أبي؟».. وحدج الأب ابنه موريس الذي لم يكن يصغي إليهما، ثم قال: «في تنظيم جديد لمكتبي».

كانت غرفة مكتبه على رأس الشارع، وهي غرفة واسعة، مرتفعة السقف، تنيرها أربع نوافذ، تشرف اثنتان منها على الطريق المؤدية إلى «ساڤوا»، وتطلان على الحصن الأثري الذي كان مقرّاً للدوقات الغابرين، والذي كان مؤلّفاً من مبان ضخمة قديمة، اسودّت بفعل مرور الزمن ـ إذ كان عهدها يرجع إلى القرن الرابع عشر ـ وتخلّلت جدرانها الملساء نتوءات لا تكاد تُرى. على أنّ هذه المباني العتيقة كان تجاور ـ في الجانب الأيمن ـ «كنيسة القديسة»، التي كانت على شكل زهرة رقيقة، تنهض على غصن تألّف منه أساس الحصن. وكانت غرفة مكتب روكڤيار تطل ـ من الجانب الأيسر ـ على دار الـمـحـفـوظـات (الأرشـيـف)، التي كست جدرانـهـا فـروع اللـبـلاب والكروم البريّة، وتوّج هامها برج طُلي باللون الأبيض منذ عهد

قريب، فبدا في انتصابه ومظهره كالريش الأبيض الذي يزين رأس الطاووس.

كانت هذه المباني تنتمي إلى عهود شتى، وطرز متباينة، وقد شُيّد بعضها على مهل، وبعضها على عجل، تبعاً لموارد الدوقات المالية وطموحاتهم، ومن ثم فإنها كانت أقل اتّساقاً ـ ولكنها أفخم مظهراً ـ من المباني التي ينشئها سيد واحد في جيل واحد.. وكانت تحوي تاريخاً طويلاً حافلاً بساعات الهناء، وساعات الشقاء. وكان برجا الكنيسة ودار المحفوظات يبرزان خلال أشجار كثيفة متشابكة، زرعت في شرفتين ـ إحداهما فوق الأخرى ـ فبدت وكأنها متداخلة بعضها في بعض، وعلى حافة الشرفة الخارجية انتصب تمثالان حديثان لـ«جوزيف وكزاڤييه دو ميستر»(*). وهكذا تجمّعت في تلك البقعة الصغيرة ذكريات قرون عديدة.. وفي هذا المكان المهجور، المقفر ـ كالقبر ـ كان الماضي يتكلّم!

ومهما يألف المرء منظراً من المناظر، فإنَّ أي تذبذب للضوء كفيل بأن يُدخل عليه تجديداً ما. ومع أن أشعة الشمس كانت تصلي واجهة الحصن الكئيبة ـ حين دخل السيد روكڤيار وابنته غرفة المكتب ـ إلاّ أنها خلعت لوناً ورديّاً على الزخارف القوطية التي كانت تزيّن الكنيسة، وعلى قمم الأغصان التي خفّ ثقلها إذ بدأت تتخلّص من أوراقها. كذلك أسبغت الشمس لوناً نبيذيّاً على دار المحفوظات، كما كانت تداعب قمة البرج.. فقالت مرغريت لأبيها: «إنَّ هذا المكان يهيئ لك جو العمل.. كم يسرّني أن أراك مقبلاً على العمل هنا!». فقال لها: «كنت أود لو أنَّ أمك اتخذت

(*) جوزيف ماري دو ميستر (١٧٥٣ ـ ١٨٢١) فيلسوف، كاتب، ومحام فرنسي. وأخوه كزاڤييه (١٧٦٣ ـ ١٨٥٢) كان في الجيش الفرنسي لكنه عُرف بأنه كاتب وأديب.

من مكتبي هذا غرفة للاستقبال، ولكنها تأبى دائماً.. ولكن، ألا تلاحظين شيئاً يا صغيرتي؟».

وسرّحت مرغريت بصرها حول الجدران، فرأت خزائن الكتب الحافلة بالمؤلفات القانونية والفقهية، وبضع صور للمشرّعين القدامى من أجدادها ـ وقد أضفى عليهم الرسّامون صرامة تفوق صرامة أحكامهم! ـ ولوحة للرسّام «بورجيه ديجار» تمثّل بحيرة من أجمل معالم إقليم «سافوا»، ثم رسماً لمزرعة «فيجي» ـ مزرعة الأسرة ـ في إطار يبرز على ما عداه. وما لبثت مرغريت أن قالت: «لا.. لست ألاحظ شيئاً!»، فقال الأب: «لأنك تتطلّعين إلى أعلى». فردّت الفتاة بصرها إلى الحجرة من جديد، وإذا بها تلاحظ شيئاً لم تفطن إليه في المرة الأولى.. فإن المنضدة الضخمة المصنوعة من خشب البلوط ـ والتي كانت من الكبر بحيث تتسع لأكداس الملفّات ـ كانت قد أُزيحت من مكانها لتحل محلّها منضدة أخرى أنيقة، أصغر حجماً، احتلت من الحجرة موقعاً كان الجالس فيه يستمتع بأكبر قسط من الضوء، فضلاً عن المناظر الخلاّبة.. وصاحت مرغريت: «أوه!.. لماذا أزحت منضدتك؟».. فأجاب: «لكي أخلي مكاناً لأخيك».

ـ وهل سيترك موريس مكتب فرازن؟

ـ أجل، سيجلس إلى جوار النافذة.. انظري من هنا، إنَّ الخريف يجرِّد الأشجار من أوراقها، أمّا أنا فأفضّل الربيع، وهناك ـ فوق البرج ـ فرع سرت فيه الحياة فأنبتت البراعم الحمراء.

لم تكن مرغريت تصغي إليه، بل ظهر عليها الوجوم، ثم قالت: «موريس.. أجل، وأنت؟». فقال: «يا صغيرتي، يجب أن يشعر الشاب بغبطة في داره. أليس بوسعك أن تكملي ترتيب هذه

المنضدة؟.. زينيها ببعض الزهور مثلاً!». ولكنها أجابت: «ليس هذا موسم الزهور يا أبت!.. ليس لدينا سوى زهر الأقحوان». فقال: «إذاً، هاتي الأقحوان.. زهرة أو اثنتين - لا أكثر - في وعاء طويل العنق، فإن دكاترة القانون يعودون إلينا من پاريس وقد أغرموا بالأشياء الجميلة.. وأنا لا أعرف الذوق، أما أنت فزهرة الأسرة، وفي وسعك أن تساعدينا على تعرّف الذوق!».

وابتسم في انفعال الذي يرجو إرضاء سامعه، ثم اقترب من ابنته الشابة، فألقى راحته على شعرها الكستنائي القاتم الجميل، غير محاذر من أن يخل بتناسقه، وقال: «إنك لن تلبثي أن تغادري هذا البيت عما قريب يا مرغريت. أفأنت سعيدة بزواجك؟».. وبدل أن تجيب، ألقت بنفسها على صدر أبيها وهي مثقلة الفؤاد، وطفقت تبكي.. وكانت قريبة الشبه من السيد روكڤيار، وإن لم تؤت قسمات وجهه ذاتها.. فقد كانت ذات قوام فارع متين، وأنف مدبّب قليلاً، وذقن مستقيمة، وكانت - كأبيها - توحي بالطمأنينة والولاء، كما كانت عيناها الواسعتان، السوداوان، الشديدتا الصفاء - كعيني أمها - تضيفان إلى تقاسيم وجهها رقة عميقة، بينما كانت عينا أبيها - الصغيرتان، الغائرتان - تشعان بنظرة لاهبة حادة لا يكاد المرء يحتملها!

قال الأب وقد أقلقته دموع ابنته: «لماذا تبكين؟ ألا يروق لك هذا الزواج؟ إن «ريمون بيرسي» شاب لطيف، من أسرة طيبة، وقد أتم دراسة الطب، وعول نهائيّاً على الإقامة في بلدتنا. أهناك ما تأخذينه عليه؟ ليس من المفروض أن تتزوجي من لا يميل إليه فؤادك».. وغالبت الفتاة عواطفها، وتمتمت: «أواه!.. ليس هناك ما آخذه عليه.. ولو أنه...»، فقاطعها متعجّلاً: «تكلمي يا صغيرتي.. هيّا، على رسلك!».. ورمقته بعينين مليئتين بالإعجاب

وقالت: «ولو أنه ليس مثلك!».. فهتف: «إنك لسخيفة!».

وإذ هدأ روعها قالت: «لست أدري سر بكائي.. كان يجب أن أكون سعيدة، ولكن.. ألم أكن سعيدة هنا؟.. إنَّ طفولتي تعاودني الآن بمباهجها وإشراقها، فأشعر بأسىً طاغٍ لمغادرة هذه الدار». فراح يسرّي عنها، قائلاً في وجوم: «لا تنظري إلى الوراء يا مرغريت، فإنَّ هذا جدير بأمك وبي. أمّا أنت، ففكري في مستقبلك كزوجة، وأقبلي على هذا المستقبل دون إبطاء!». فقالت وهي تحاول الابتسام: «إن مستقبلي في أحضان أسرتي»، فعقب قائلاً: «إنه في الأسرة التي ستنشئينها!».

ـ كثيراً ما نصحتني، يا أبت، في أثناء تلك النزهات، التي كنا نقوم بها معاً في الشتاء، بأن أحافظ على تقاليدنا وموروثنا!

ـ ولكن التقاليد لا تُحفظ ـ أيّتها المجادلة الصغيرة ـ داخل صوان الثياب، كما يفعل جارنا في الريف «الفيكونت ديلا مورتيلليري»، الذي يحتبس نفسه ليعيد تنسيق شعارات أسرته وشجرة نسبها، والذي يعجب لأنَّ فلاحيه يجرأون على ارتداء الأحذية الطويلة الرقاب!.. كذلك لا تحفظ التقاليد في دار عتيقة، أو ضيعة قديمة، بالرغم من أن الاحتفاظ بالموروث من الأمور الهامة.. وإنَّما تمتزج التقاليد بحياتنا ومشاعرنا، لتقوى وتزداد قيمة وبقاء!

وعادت تحدجه بعينيها الواسعتين المليئتين بالإعجاب، ثم همست: «لشد ما أنا متعلّقة بهذه الدار!»، فأجاب في حزم: «لا، لا.. إنَّ الزواج يبدو دائماً كمجهول محوط بالغموض، ومن ثم فإني أدرك أن هذا التغيير ـ الموشك أن يطرأ على حياتك ـ يشغل بالك، ولكن من الواجب أن تكوني مبتهجة ومرحة وأنت تغادرينا، ما لم يكن لدى قلبك أو عقلك اعتراضات جدّية على هذا الزواج.

لقد كنت سعيدة بيننا، وفي هذا ما يعزيني. هيّا اذهبي فأحضري زهوراً، واستدعي موريس!».. فقالت: «سمعاً وطاعة يا أبت!».

وما هي إلاّ لحظات حتى عادت مرغريت تحمل «زهرية» نسقت بها الزهور.. وبحركة رشيقة من يدها تغيّر مظهر المنضدة المعدّة لأخيها. وألقت نظرة نمّت عن ابتهاج، وقالت: «لقد كانت عندي بقية من ورود، هي الأخيرة في هذا الموسم.. ها هي ذي في الزهرية التي يتبدّل لونها تحت أشعة الشمس، كما تفعل زهور عبّاد الشمس. ما أجملها!».. فردد السيد روكفيار قولها: «ما أجملها!».. وكان يعني ابنته لا الزهرية، فضحكت وانسلّت من الحجرة قائلة: «سأهرع الآن لاستدعاء موريس».

*

لبى الشاب موريس نداء أخته دون إمهال. وقال وهو يدخل غرفة مكتب أبيه ـ ممسكاً بقبعته وعصاه وكأنه يتعجّل مغادرة البيت: «ألديك ما تريد أن تقوله لي؟». وكان في مثل طول أبيه وقوامه، ولكنه كان أنحف منه جسماً، وأنصع بشرة. ومع أنه كان أكثر منه أناقة ورشاقة ـ أيضاً ـ إلاّ أنه لم يؤتَ ما أوتيه الأب من سيماء العظمة، سواء في مظهره أو في مسلكه.. ولا ذلك الجلال الطبيعي، الذي بذل السيد روكفيار ـ في تلك اللحظة ـ جهداً للتخفيف منه، وإبداله بروح الزمالة والود، وهو يقول: «تأمَّل كيف أعدَّت مرغريت منضدتك!». فهتف الشاب في دهشة: «منضدتي؟!».

ـ أجل، هذه المنضدة، ذات الورود.. إنَّك ترى ـ إذ تجلس إليها ـ الحصن وقرص الشمس.. ألا تريد أن تتم مرحلة التدرّب معي؟

وأخذ شعاع من أشعة الشمس يداعب الورود، بينما كان برج دار المحفوظات والقصر يسبحان في النور. وكشف ضوء النهار

عن وجه السيد روكڤيار الذي كان يتلطّف إلى ابنه في عبارات رقيقة مؤثرة.. ولكن الأبناء لا يعرفون صبر الآباء إلاّ بعد فوات الأوان، وبعد أن يمارسوا مهام الأبوة. ومن ثم تساءل موريس: «أتقصد أنني يجب أن لا أعود إلى مكتب فرازن؟».. فأجاب الأب: «نعم، فلا نفع لك في العودة. لقد ألممت تماماً بقانون المواريث، ويحسن بك أن تتبع سير القضايا، وأن تحضر الجلسات. وإن شئت، ففي وسعك أن تقضي بضعة أشهر لدى شارل، زوج أختك، الذي يستطيع أن يبصرك بالإجراءات الجنائية ـ فهو من المحامين المعدودين، ومن أكثرنا حصولاً على القضايا ـ على أن تتقدّم بعد ذلك للمرافعات. وإن شئت فإن لديَّ قضية ممتعة أقدمها إليك، بشأن صحة عقد من عقود البيع».

لم يترافع السيد روكڤيار بمثل ذاك الحذر وتلك الرقة مطلقاً. ولكنَّ الشاب تركه يتكلّم وراح يفكر، ثم قال: «كنت أظن أنَّ من المتفق عليه أن أقضي ستة أشهر في مكتب الأستاذ فرازن».. فأجاب الأب: «حسن! ها قد أوشكت الأشهر الستة على الأفول. فلقد بدأت في حزيران/ يونيو، ونحن الآن في نهاية تشرين الأول/ أكتوبر».. فقال الابن مماطلاً: «ولكنني حصلت على عطلتي في شهر آب/ أغسطس، وقد انتهت منذ عهد قريب، وأنا أبحث الآن بعض قضايا التصفية الهامة». فردَّ الأب في حزم: «ستعالج في المحكمة قضايا من هذا النوع، فهي تنتهي في أغلب الأحيان إلى المحكمة. وقد قبلت في هذا الموسم عدداً من القضايا الفريدة، وسوف تساعدني. فاذهب وأحضر حافظة أوراقك من عند الأستاذ فرازن، وامكث هنا».

ـ إنَّ الأستاذ فرازن متغيّب، ومن الأليق أن أنتظر عودته.

كان الشاب موريس يلتمس لنفسه الأعذار، ولكن أباه لم يحفل

بمعاذيره، بل قال له: «لسوف يعود غداً، وقد أخطرته ـ على أية حال ـ قبل رحيله».. ووجد موريس في هذا النبإ فرصة للتنفيس عمّا اختلج في صدره، فصاح: «هل أخطرته قبل أن تسألني رأيي؟.. إذاً، فسأكون دائماً طفلاً، هنا، تتصرّف فيَّ كأنني سلعة! ولكنني لن أرضى بأن يُنتزع مني استقلالي. إنني حر، وأطالب بأن استشار ـ على الأقل ـ ولا سيما فيما يتعلق بي!».

إزاء هذه الثورة، التي كان السيد روكفيار يتوقّعها ويدرك سببها الخفيّ، راح يرمق ابنه في هدوء رغم ما شاب الحديث من بعد عن الاحترام.. كان يعرف أنَّ الجياد الجموحة صعبة المراس، وكذلك حال الشخصيات ذات الإرادة الصلبة المعتدّة. ومن ثم أجاب في بساطة: «إنك ابني سواء أكنت صغيراً أم كبيراً، ولذلك فإني أساعدك على إعداد مستقبلك!». ولكن الشاب لامس العقبة التي كان كلاهما يتفاديانها حتى تلك اللحظة، إذ قال: «فيم التستُّر؟! إنني أعرف تمام المعرفة السر في أنك تريد إقصائي عن مكتب فرازن». ولكن حضور بديهة الأب مكّنه من تفادي الصدام، فقال: «أتراك ستكون في مكتبي أسوأ حالاً؟ وهل تظنك تستطيع أن تستغني ـ في استخفاف ـ عن توجيهاتي؟.. هل سيكون استقلالك مهدَّداً لأنك ستفيد من خبرتي المهنيَّة، ومن الأربعين عاماً التي قضيتها في المحاماة؟.. إنني لا أفهمك!».

وشعر بأنه أفحمه، فسعى إلى استكمال نصره بشيء من الحنان، فقال: «إنَّ أمك مريضة، وأختك لن تلبث أن تتركنا، وستخف وحشتي بوجودك!». وتريّث لحظة، وهو يأمل في أن يكون قد بدّد العاصفة، ولكن موريس ظنّ بعد تردّد ـ إذ كان في قرارة نفسه معجباً بأبيه ـ أنَّ بوسعه أن ينتصر على هذا التلطّف، فعاد يحمل على العنصر المفقود في المعركة: «أجل، لقد وشى الناس بي لديك من

أجل السيدة فرازن، فماذا قالوا لك؟.. إنني أريد أن أعرف، فإن من حقي أن أعرف. آه!.. إن الحياة لا تطاق في الأقاليم! فالمرء فيها يكون مراقباً، مرصوداً، يتجسس الناس عليه ويحصون حركاته، ويقيّدون من حريته. إنَّ أنبل العواطف تصبح في الأقاليم نهباً لألسنة كل من تقيم البلدة له وزناً من المنافقين الحاسدين والانتهازيين! ولكنني لا أصدق أنك، يا أبت، قد أصغيت إلى هذه الشائعات الوضيعة التي لا تتورّع عن النيل من أشرف النساء!».

وكفّ السيد روكفيار عن التستّر، فقال: «لقد تركتك تتكلّم يا موريس، فاسمعني الآن. إنني لا أحفل قط بما يقال، ولا أسألك عمّا إذا كان من الصحيح أنك تقضي في غرفة الاستقبال في دار أستاذك ـ وهو الكثير التغيّب في أعماله ـ وقتاً أكثر مما تقضي في مكتبه. إنَّ جميع الأسباب التي أبديتها لك صحيحة. أمّا وقد أثرت هذا الموضوع، فإنني لن أتهرَّب من المناقشة. أجل، إنني أرجوك أن تستكمل فترة تمرينك عندي، بسبب هذه المرأة. وهو طلب طبيعي مني!.. وأنا لست في حاجة إلى أن أصغي إلى أية شائعة، إذ يكفيني ما رأيت بعينيّ!».. فسأله الشاب: «وما الذي رأيت؟».

ـ لا جدوى من ذلك، فلا تلحف.

ـ ولكنّك تتهمني، فمن حقي أن أعرف!

ـ كما تريد! عندما تستقبل أمك بعض الضيفات القادمات بدعوة منك، فمن واجبك أن تحترم البيت الذي تعيش تحت سقفه، على الأقل! وما أراك إلاّ قد أدركت ما أرمي إليه.

وأفقد الغضب موريس رشده، فعاد مرة أخرى إلى الاندفاع في تلمّس الأعذار لتسويغ عاطفته، قال: «إنَّ حياتي الخاصة جديرة بالاحترام أيضاً، ولست أريد تدخُّلاً فيها! لقد أرضيتك في جميع الأمور التي يجب أن أقدم لك عنها حساباً».. وهتف الأب:

«موريس!»»، ولكن الشاب مضى قائلاً: «لقد اجتزت امتحاناتي بتفوّق، وعدت من باريس بعد ست سنوات، دون أن أكون مديناً بفرنك لأحد. فأي لوم تراني أستحق؟.. إنك كذلك لا تستطيع أن تأخذ عليَّ أنني كنت على أي علاقة وضيعة بالحي اللاتيني، على غرار بقية الطلبة!»».

ـ إنني لا أوجّه إليك أي لوم، أيُّها الطفل التعس..

ـ إنني لست طفلاً!

ـ إنَّ المرء يظل دائماً طفلاً أمام أبيه! ألا تفهم أنك لم تحافظ على شبابك إلاّ بفضل العمل والعزة وتقاليد الأسرة التي أرست فيك النظام والاستقامة.. وإنَّ هذه المرأة التي تكبرك سنّاً بكثير، والتي لم أكن البادئ بذكر اسمها هنا، شديدة الخطر عليك؟.. أفتعرف ـ على الأقل ـ حقيقتها؟

فصاح موريس: «لا تتحدَّث عنها». ولكن السيد روكفيار أجاب في لهجة صارمة مهيبة: «بل سأتحدّث عنها. ألست أنا رب الأسرة؟ فبأي حقّ تفرض عليَّ السكوت؟ أفتخشى أن أنزلق إلى حديث لا يليق بكرامتي؟.. إنك إذاً لا تعرفني».. فعاد الشاب يقول: «إن السيدة فرازن امرأة شريفة».. وإذ ذاك قال الأب: «أجل، إنَّها من النسوة الشريفات اللائي يعمدن إلى اللعب بالنار من قبيل التسلية، واللائي لا يتورّعن عن هذا العبث ولو في قاعة الجلوس، ولا يتعفّفن عن اللهو مع كل الرجال، حتى المكتهلين منهم!.. إنها من أولئك الشريفات ـ من نساء هذه الأيام ـ اللائي قرأن كل شيء عدا الإنجيل، ووعين كل شيء إلاّ الواجب، ولم يحجمن عن أي شيء سوى الفضيلة، وأكبرن كل الحريات، ولكنهنَّ ازدرين عمل الخير الذي لم يبخل عليهنَّ به أحد!.. ولماذا يكنَّ شريفات؟.. لا أحد يعلم

لذلك سبباً.. فلا الإيمان يردعهنَّ، ولا الحياء يوقفهنَّ عند حدهنَّ! أمَّا الشرف فعقيدة لا يعتنقها سوى الرجال فقط! إنهنَّ متمرّدات، لا يشبع المرء من كلماتهنَّ في الشباب، فإذا أوشك الشباب أن يزول، تجلّت الحقائق الواقعة. إنَّ هذه المرأة زوجة رجل ناضج، فكان جديراً بها أن تذكر أنه يؤويها ويطعمها، وأنها كانت ـ حين التقطها ـ لا تملك فرنكاً!».

ـ هذا غير صحيح.. فقد كانت تملك صداقاً قدره مائة ألف فرنك.

ـ ومَن قال لك هذا؟

ـ هي نفسها.

ـ وددت لو كان هذا صحيحاً، لولا أنَّ صديقي الحميم كليرڤال، الذي عرّفهما بنا عندما خلفه فرازن في مكتبه، قد أنبأني بكل شيء.. وهو رجل لا يلقي الكلام جزافاً. فلقد أنبأني أن هذه المرأة موزّعة النفس بين خوف الفقر ـ أو خوف الضيق المالي على الأقل ـ وبين الخوف من زوجها الذي لا تشي أساريره بما يطمئنها.. وأنها قد وازنت بين الحالين، فآثرت البقاء مع زوجها.. وهذا مدى ما لديها من حكمة!

وتقدم موريس خطوة، وهو يرتعد ممّا لحق بمعشوقته من إساءة، وصاح: «كفى يا أبتِ.. أرجوك! لا تتّهمها بالنذالة، ولا تتحدّ جرأتها! أؤكد لك أنك تخطئ بذلك، ولست أريد أن أنصت إلى التشهير بها، ومن ثم فسأنصرف!».. وإذ ذاك قال الأب في حزم صارم: «إنني أمنعك من أن تطأ بقدميك مكتب فرازن». فقال الابن: «حذار من أنِ أرفض أن أضع قدمي هنا».. وكان قد بلغ الباب حين ألقى بهذا التحدي، فصاح الأب في صوت تغيّرت نبراته فغدا أقرب إلى الرجاء منه إلى الأمر: «موريس!».. وأسرع خلفه،

فإذا الغرفة الخارجية خالية، والشاب يهبط السلم. وإذ غدا الأب وحيداً داخل غرفة المكتب الواسعة، المفعمة بالنور، راح يتأمل المنضدة الصغيرة التي كانت أشعة الشمس تداعب ما عليها من زهور، وكل ما اتّخذ من استعدادات ـ لاستقبال ابنه ـ ترضي أسلافه الذين كانوا يشرفون عليه من الصور القديمة، والنافذة، والرسم القديم المبيّن للإقليم كما كان في الماضي.. وشعر بأنه قد نُبذ، كقائد رحل عنه جيشه في ليلة مُني فيها بالهزيمة!

وقال لنفسه: «أيتمرّد الابن على أبيه إلى هذا الحد؟.. لقد كلّمته برفق، في البداية، ولكنه سرعان ما احتدّ.. ما أعظم سلطان هذه المرأة! لكم أود أن أحطمها!.. ولكنه سيعود، فمن المستحيل أن لا يعود، وسأذهب لإحضاره إذا لزم الأمر. لعلني تجاوزت حدّي فجرحت شعوره دون مسوّغ! إنّ الطفل المسكين يحبها، ويصدّق ما تقوله له. لقد سحرته بصوتها الفاتن، وعينيها اللتين تشعان لهيباً، وابتساماتها، فراحت تلعب به. أجل، لقد أخطأت إذ تحدّيتهما.. إن أمثال هذه المرأة أخطر من اللواتي سلفن في الماضي، بما أوتين من حقد، ونفاق، وتمرّد على المجتمع!.. لا بد أنه هرع إليها الآن، ولسوف تثيره ضدي.. ضد أبيه!.. ضد أبيك الذي أراد حبّه لك أن يقودك إلى الطريق القويم يا موريس...».

*

لم يكن السيد روكفيار من الرجال الذين يسترسلون في التشكي، فدخل غرفة زوجته ينشد قراراً يتخذه، بعد أن دأب على أن يلجأ إليها كلما أعوزه الرأي في الظروف العصيبة. ولكن الستائر كانت مسدلة، والسيدة روكفيار نائمة.. فقد هدّ كيانها المرض البطيء ـ الذي ضاعفت الشيخوخة من وطأته ـ إذ كانت تعاني تيبُّساً في أعصابها كان يشل حراكها من آن إلى آخر. وكم كان اعتاد ـ منذ

سنوات ـ أن يفتح باب مخدع زوجته، مطمئناً إلى سداد رأيها، ونفاذ بصيرتها. أمّا في هذه المرة، فقد تقهقر في هدوء، وعوّل على أن يعتمد على ما لديه من موارد الرأي.. ولو أنه كان يشعر ـ منذ مرضت زوجته ـ بضعف حيلته!.. وأخذ يفكّر في ابنهما: إنَّ الأم أكثر ألفة ولباقة وتأثيراً في الابن، وقد تدرأ عنه الخطر المحدق!.. وقال لنفسه في أسى وهو يرمق المريضة: «إنني وحيد!».. ثم خرج في خطى مسترقة، ناعمة، فوجد مرغريت في قاعدة الاستقبال منكبة على الكتابة. وسرّى عنه مرآها الحبيب، فقال لنفسه: «ها هي ذي التي ستساعدني، فما من أخت تفوقها إخلاصاً!».

واقترب منها، فما إن رفعت إليه وجهها مبتسمة حتى غالب قلقه، وقال: «ماذا تفعلين يا صغيرتي؟.. أراهن أنك تكلّفين متجراً كبيراً بأن يتولّى إعداد جهاز عرسك».. فابتسمت قائلة: «لم تصب الحدس يا أبتاه!».. فقال: «إذاً، فأنت تعلنين لزميلات الدراسة نبأ خطبتك».. فقالت: «ولا هذا أيضاً!».. وواصل تخمينه قائلاً: «فأنت تدعين خطيبك ليتناول عشاءه هنا الليلة».

ـ ليس ثمة ما يدعو إلى دعوته!

وبسطت إليه الكراسة التي كانت تكتب فيها، فأدرك أنها «كتاب الأسرة».. فقد كان لآل روكفيار ـ بحكم العادات الموروثة ـ كتاب سجّل فيه الأسلاف، إلى جانب ثرواتهم وممتلكاتهم، أهم الأحداث العائلية، كالزيجات والوفيات والمواليد والنِّعم والديون والعقود، وكل ما يصوّر الماضي، في وثيقة قيّمة، ما يبث الثقة، في المستقبل، في نفوس أولئك الذين يستوحون آباءهم ويعتزون بنسبهم!

قالت الشابة: «إنني أكمل نقصه بالنسبة إلى أيامنا. فإن عودة

«موريس» والإنعام على «هوبير» لم يكونا مدوّنين فيه».. وتصفّح السيد روكڤيار ـ بكثير من الزهو ـ ذلك السجل الذي ضمّ تاريخ الجدّ والدأب اللذين بذلتهما أسرته، ثم قال: «تُرى، مَن سيعنى به من بعدك يا مرغريت؟». فأجابت: «ولكنني سأستمر في العناية به!».. فصاح: «لا.. يجب أن تكون المرأة لبيتها الجديد». وهنا تضرّج وجهها كتلميذة أخطأت، وقالت: «أخشى أن أكون زوجة سيئة، لأنني سأظل متعلّقة بالقديم على الدوام. إنَّ كل ما يجري هنا يتغلغل فيَّ حتى سويداء قلبي!».. فلم يتمالك الأب أن غمغم: «يا طفلتي العزيزة!».. ولكنها استطردت في حديثها: «وموريس؟.. أتراه مسروراً بمكتبه الجديد، وبورودي، وبالنافذة؟ لو أنني كنت مكانه لتمنّيت أن أعمل بالقرب منك».

وهكذا تطرّقت ابنته إلى ما كان يشغل باله، فيسّرت عليه مكتوم الكلام، إذ قال: «من أجله جئت أتحدث إليك. لقد دار بيننا جدال منذ برهة، ولعلني كنت محتدّاً!».. فهتفت: «أيعقل أن تحتد يا أبي؟».. فأجاب: «لقد أسأت إليه في النهاية، فخرج مغضباً.. والغضب شر رفيق! فاذهبي وراءه، فأنت جديرة بأن تعيديه!».

ونهضت مرغريت متأهبة في حماسة، وسألته: «وأين هو؟».. فأجاب: «لست أدري.. لعله في مكتب فرازن. على أن البلدة ليست كبيرة ـ على كل حال ـ ولن تجدي عناء في مهمتك. وليهدك الله إلى مكانه!».. فقالت مرغريت: «ها أنا ذي ذاهبة!». فعقّب برفق: «أحسبك تدركين أنني لا أستطيع الذهاب بنفسي!».. فهتفت: «لا.. لست أنت الذي تفعل ذلك، فهو لا يستحقّه! لقد بدا غريب الأطوار منذ فترة من الزمن، حتى ليظن المرء أنه لم يعد يحبّنا!».

وتبادل الأب والابنة نظرة، فأدرك كل منهما ما كان في نفس

الآخر، ولكنهما لم يشاءا أن يخوضا في الموضوع. وأسرعت مرغريت إلى اعتمار قبعتها وارتداء سترتها، وانطلقت تبحث عن موريس. فما إن بلغت الطريق حتى ولّت الحصن ظهرها، وسارت في شارع «بواني»، وسلكت أحد الدروب العديدة التي تؤلف شبكة الطرق الداخلية في «شامبيري»، إلى أن بلغت ميدان المحطة.. وكان هذا الميدان ـ فيما مضى ـ مركز الحركة التجارية في البلدة، ولا تزال به بعض الحانات العتيقة، ودار من تلك الدور الإيطالية المزدانة بشرفة وأعمدة تجعلها أهلاً لأن ترسم على لوحات للزينة أو على بطاقات البريد.. ولكن البيت كان في الواقع متّسخاً،متداعياً، كئيباً، لا يثير انتباهاً..

وعلى واجهة مبنى أُعيد ترميمه، كانت ثمة لوحة من الرخام الأسود، نقش عليها: «في هذا البيت ولد: جوزيف دو ميستر، في أول أبريل سنة ١٧٥٣.. وكزاڤييه دو ميستر، في ٨ نوڤمبر سنة ١٧٦٣».. وتحت تلك اللوحة، ثبتت لافتة مذهبة تشير إلى مكتب موثِّق العقود، فسارت مرغريت في اتجاه السهم المنقوش على اللافتة، وصعدت السلم ودقات قلبها تتوالى في عنف، إذ كبّدها قدومها جهداً ممضّاً. وطرقت باب مكتب فرازن، ثم دخلت، فسألت أول كاتب وقع عليه بصرها: «إنني أخت الأستاذ موريس روكڤيار. هل أستطيع مقابلته؟». فقال الشاب وهو ينهض في احترام جم: «إنَّه غير موجود يا آنسة، إذ إنه لم يأت بعد الظهر!».. ولكنَّ كاتباً آخر لم تلمحه مرغريت ـ إذ كان خلف أحد المكاتب ـ قال في صوت أجشّ مفعم بحقد عارم: «ابحثي عنه لدى السيدة فرازن».

وضرّجت الحمرة وجه الفتاة حتى أذنيها، ولكنها شكرته، واتجهت دون إبطاء إلى مسكن السيدة فرازن، وضغطت الجرس،

ولم تتلق جواباً، فأدركت أن السيدة في الخارج. وخامرها ارتياح في البداية، ولكنّها لم تلبث، بعد أن سارت بضع خطوات، أن أحسّت بالأسف، إذ كانت تلك فرصتها الوحيدة للحاق بأخيها. فأين تعثر عليه بعد ذلك؟.. واتّجهت إلى شارع فاقر، حيث كانت دار السيدة مارسيلاز ـ أختها الكبرى ـ فوجدتها عائدة مع أطفالها الثلاثة. وما إن رآها «جوليان» الصغير حتى ارتمى عليها، وأبى أن يتركها تمضي، بينما قالت أختها في غير اهتمام: «لا، إنّ موريس ليس هنا، فهو لا يزورني إطلاقاً».. لقد كانت أية شكوى من ابنتها «أدريان» تحظى منها باهتمام يفوق اهتمامها بأخيها!

*

وراحت مرغريت تذرع شوارع البلدة ـ بعد هذا الفشل المتكرّر ـ دون أمل كبير، وهي تحثّ الخطى وكأنها تهرب من شبح يطاردها. وتحت القناطر، التقت بخطيبها، الذي بادر إلى إيقافها، فعادت إليه بعد أن تجاوزته، وقالت دون تمهّل: «نهارك سعيد يا ريمون.. ألم تلتق موريس؟»، فأجاب الشاب: «لا يا مرغريت.. هل تبحثين عنه؟». وإذ أجابت: «نعم»، قال لها: «هل أساعدك؟». ولكنها قالت: «لا، شكراً.. إلى اللقاء في المساء».

وراقبها ريمون ـ خطيبها ـ وهي تبتعد بخطواتها السريعة، وقال في نفسه: «إنها ليست لطيفة.. فهي متحفّظة معي على الدوام!».. ولكنه ظل يتبعها بعينيه حتى اختفت. وواصلت مرغريت سعيها دون جدوى. فلمّا بلغت الكاتدرائية التقت بصديقة لها صغيرة السنّ، هي «جين ساسيناي»، التي كانت تسير برفقة خادمتها. وكانت «جين» في السادسة عشرة أو السابعة عشرة من عمرها، تبدو طفلة أصغر من سنها الحقيقي، وقد تهدّلت على ظهرها غدائر من شعرها الأشقر، وبدا وجهها وادعاً. وأسرعت الفتاة إلى الآنسة

روكفيار، التي كانت شديدة الإعجاب بها، وهتفت: «آنسة مرغريت، هل أنت في عجلة؟». فحيّتها الشابة قائلة: «نهارك سعيد يا جين!».. وقالت جين مسترسلة: «إنك تحذين حذو أخيك الذي يقابلني في الشارع فلا يحيّيني، مع أنني بلغت السن التي أستحق فيها التحية!».

وأطرقت الفتاة برأسها قليلاً، وهي تتمنى لو أن نظرتها أضافت إلى ثوبها طولاً، فقالت مرغريت مؤكدة على حديثها: «هذا صحيح. ولكن، أين تراك قابلت موريس؟».

ـ على جسر ريكلي.

ـ الآن؟

ـ لا، بل قبل أن أتلقّى درس الموسيقى.. منذ ساعة أو ساعتين.

ـ وإلى أين كان ذاهباً؟

ـ لست أدري. قولي له إنه غير لطيف!

ـ سأقول له هذا دون شك، فهذا عيب لا يغتفر، ولا سيما إزاء صديقاتي.

فقالت «جين» وهي تضحك كاشفة عن أسنان بيضاء حادة: «ومع ذلك فإنني أغفر له!». وانصرفت، فبقيت الآنسة روكفيار وحيدة، وإذ ذاك لمحت باب الكنيسة موارباً، فمرقت خلاله إلى المكان المقدس. ولم يكن تحت القباب ـ في تلك الساعة ـ سوى شخصين أو ثلاثة ركعوا في العتمة متباعدين. على أنَّ مرغريت وجدت عناء في أن تندمج في الصلاة.. فقد راحت تتصوّر ـ أحياناً ـ أية امرأة فاتنة ستصير إليها تلك الصبية الصغيرة الخفيفة الظلّ المرحة، بعد ثلاثة أعوام أو أربعة.. وكانت تتجهّم أحياناً أخرى، حين تتذكّر أخاها موريس.. وتتمثّل ـ في أحيان ثالثة ـ وجه أبيها المفعم بالقلق.. أمّا نفسها، فلم تفكر فيها مطلقاً!.. وتملّكتها

الدهشة، وهي تقف على عتبة الكنيسة، من أنَّ أفكارها لم تشمل قط خطيبها، ولا نفسها!

وانبعثت فيها شجاعة جديدة، فاستدارت عائدة إلى مكتب فرازن. وفي هذه المرة، أيضاً، أبت أن تطرق باب السيدة فرازن. حتى إذا أعيتها الحيل، سلَّمت بالهزيمة. وفيما كانت تسير في شارع «بواني» راجعة إلى دارها، برز أمامها برجا دار المحفوظات والحصن، في ظل رقعة من السماء التي أسبغت عليها الشمس المائلة إلى الغروب حمرة.. وفي وهج الشمس الخابي تبدّى هذان الأثران ـ من آثار الماضي ـ في أبهى جلالهما، وكأنَّهما يعرضان روعتهما قبل أن يغوصا في الظلام!.. وكانت الأمسية من تلك الأمسيات البديعة التي اختصّت الطبيعة الخريف بها، وقد اتّسمت ببهاء أخّاذ يجعل الإنسان يشعر إزاءه بضعفه.. كما كانت اللحظة من لحظات الأبهة والعظمة التي تسبق الفناء.. فناء النهار!

وأُخذت الفتاة بهذه الصورة البديعة التي ارتسمت على صفحة السماء، ولكنَّها غذت السير إلى دار الأسرة العتيقة بدلاً من أن تتريّث لتستزيد من مشاهدة المنظر. وسألت بمجرد أن بلغت الباب: «هل عاد موريس؟».. فأجابتها الخادم: «لا يا آنسة، لم يعد بعد. ولكن السيد ينتظرك».. وبادر السيد «روكڤيار» ـ الذي سمع الحديث ـ إلى فتح باب غرفته لاستقبالها، هاتفاً: «ما وراءك يا مرغريت؟». فأجابت: «لم أجده يا أبت».. وكان في العبارتين اللتين تبادلهما الأب وابنته كل الحزن الدفين، مع شعور بالخوف من كارثة توشك أن تقع.. كارثة أشد وطأة من ذلك النوع الذي تثيره نزوات الشباب، من جراء السلطان الخارق الذي رأيا السيدة فرازن تفرضه على موريس!

3 - رحيل العاشقيْن

لم يكد موريس روكڤيار يغادر دار أبيه حتى اجتاز البلدة، ويمَّم وجهه للتوّ شطر هضبة «كالفير دو ليمنك»، حيث كان على موعد مع السيدة فرازن. وكان اختيار هذا المكان تحدّياً منهما للناس.. فقد كانت الهضبة تشرف على «شامبيري» وتُشاهد من أي موقع في البلدة. وقد كانت الهضبة في الماضي صخرة عارية، ذات قيمة عسكرية مميّزة، حتى لقد أقيم فوقها ـ في عهد الدوقات السابقين ـ مركز لتبادل الإشارات باللهب مع المركزين القائمين على جبل «ليبين» وجبل «روش دو جيت» السامقين، حيث كان يرابط حراس الحدود الفرنسية ذوو البأس. أمّا اليوم، فمن السهل بلوغ الهضبة عبر طريق صاعدة، تبدأ عند ضاحية «ريكلي» وتمتد فوق الخطوط الحديدية، تحف بها من أحد الجانبين جدران شاهقة لدير عتيق، ومن الجانب الآخر منازل شعبية ذات طابق واحد. فإذا جاوز المرء نطاق هذين السياجين، المحيطين بالطريق، وجد نفسه في وسط ريفي، وتبيَّن أمامه الهضبة الصغيرة، لا تتوّجها استحكامات عسكرية ـ كما كانت عليه في الماضي ـ وإنما تقوم عليها كنيسة تبدو من بعيد مكشوفة لسلسلة جبال «ريفار» و«نيفوليه»، فلا يحميها سوى سياج رفيع من نباتات الطلح، والأعشاب النحيلة. وهناك طريق صاعدة أخرى غير مكتملة التعبيد، تتخلّلها أكواخ شاغرة.. وفيما عدا ذلك كان المكان مهجوراً، لا يصادف مرتاده أحداً، وإن رؤي هو على البعد.

أمّا كنيسة كالفير الصغيرة، ذات النمط البيزنطي، فكانت تتألّف من قبّة، ورواق قائم على أعمدة أربعة، ترتفع فوق مستوى الأرض ببضع درجات، وقد دفن تحتها ـ في سنة ١٨٣٩ ـ أحد أساقفة

«شامبيري»، ونُحت قبره في الصخر.. وفيما عدا ذلك، كانت الكنيسة خاوية.

ما إن بلغ موريس بداية سياج نباتات الطلح، حتى تبيَّن إنساناً جالساً على السلم، بين أعمدة الكنيسة.. كانت السيدة فرازن في انتظاره، فلم يحفل بأغصان الطلح المحيطة به، ولا في لونها الذهبي الباهت، ولا هو اكترث للجبال البنفسجية التي امتدت أمامه تحت أضواء الخريف، إذ لم يعد يرى سوى تلك الجالسة وقد حفّت بها أعمدة الكنيسة كالإطار!.. وكانت المرأة تعتمد بمرفقيها على ركبتيها، وتحتوي وجهها بين راحتيها اللتين لاحتا تحت الشمس ورديتين، شفافتين.. جلست ساكنة ترقبه في اقترابه بعينين متّقدتين. فلمّا دنا منها، نهضت بحركة مفاجئة، كحيوان يبدو وادعاً ثم إذا به فجأة يغدو كتلة من الأعصاب المتحفِّزة!

بادرته قائلة: «خفت أن لا تأتي، فكأنَّما توقّفت حياتي عن استرسالها!». فقال: «لقد أخّرني عائق يا إديث». وكان بادي الاضطراب، حتى أنها أشفقت عليه فلم تعاتبه، وإنما أمسكت بيده، وقادته إلى ما وراء الكنيسة، فأشارت إلى عشب متكاثف، وظلّ وارف، وقالت: «هل لك في أن نجلس هنا؟ إنَّ الجو ليس بارداً، والمكان مريح».. وجلسا متجاوريْن، وقد أسندا ظهريهما إلى جدار الكنيسة التي كانت تفصلهما عن «شامبيري» والعالم. ولم يكونا يشاهدان في مواجهتهما سوى جبال «نيفوليه» السابحة في بحر الأضواء. والتصقت المرأة به لتتبيَّن معالم وجهه، وهتفت وكأنها تشكو إليه هوانها: «لكم أحبك!».. ألم يكن حبهما مبعث عذاب ومتعة في آن واحد؟.. وكانا قد رفعا كل كلفة بينهما، رغم أنهما لم يكونا قد أصبحا بعد خليلين.. وتراجعت المرأة قليلاً لتتأمله، ثم سألته: «هل تعاني ألماً؟.. أو هذا بسببي!».. فحكى لها

بإيجاز ما جرى بينه وبين أبيه، وما ذكره هذا الأخير من اكتشافه سر غرامهما، والمتاعب العسيرة التي ترتقبهما. ثم استطرد متسائلاً: «فماذا ترينا فاعلين؟».. وردَّدت بدورها: «أجل، ماذا ترانا فاعلين؟ إنَّ سرنا لم يعد قاصراً علينا، ولم أعد من ناحيتي قادرة على إخفائه». فردّد هو الآخر بمرارة: «لم يعد سرُّنا خافياً.. ومع ذلك فإنك لم تسلّميني نفسك قط!».

وإذ ذاك أسندت رأسها إلى صدر الشاب، وقالت في صوت رقيق، تمسّ نبراته القلب كما تمس الأصبع وتر الآلة الموسيقية - وكأنها تهدهد بهذا الصوت الليّن قلبه: «لا تزعم أنني لم أسلّمك نفسي.. أطلبتها وأبيتها عليك أيها الخبيث؟ أتريد أن نبدأ؟.. إنني لك.. إنّك لا تزال شابّاً، في حين أنني سأبلغ الثلاثين عاماً عمّا قريب.. ثلاثون عاماً، ومع ذلك فإن غرامي الذي يعادل حياتي كلها لم يولد إلاّ منذ بضعة أشهر!.. لقد كنت أنظر إليك فأرى الشمس تغمرك، ومن ثم خرجت من الظلال لأنضم إليك. ولسوف أروي لك يوماً قصة طفولتي وزواجي، حتى أرى دموعك حين يعصرك الألم!».. وهتف الشاب: «إديث!»، فقالت: «آه! إن النساء اللاتي لم يكن الزواج بالنسبة إليهنَّ سوى باب ينفذن منه إلى النور - وليس إلى السجن! - يتسلّين بازدراء ضعفنا!.. أليس من الطبيعي أن يكنَّ أكثر منّا رضى بالقدر لأنه آثرهنَّ؟.. ولكنهنَّ لا يفكّرن قط في ذلك، فكأنَّ الهناء حقّ لهن لا نزاع فيه. ومن ثم فهنَّ لا يبذلن جهداً لصونه، فإذا فقدنه انقلبن يتّهمن القدر ويسخطن عليه دون أن يلمن أنفسهن!».

فقال موريس: «إديث!.. إنني أحبك، ومع ذلك فإنك لست سعيدة!».. وإذ ذاك نهضت نصف واقفة، واحتوت وجهه بين راحتيها في ولهٍ، وقالت: «امنحني سنة من حياتك في مقابل حياتي

كلها!.. أتقبل؟ هيّا، لنرحل وننس كل شيء، فلست أريد أن أمضي في الكذب.. لا أريد أن أكون لغيرك.. لا أطيق ذلك ما دمت لك».
وانتصبت واقفة. وكانت الهضبة تنحدر انحداراً حادّاً، على طريق «إكس»، في بقعة قريبة منهما - خلف الكنيسة - فاقتربت منها لتطل على الفراغ الجاثم تحتها. وصاح موريس: «إديث!».. فعادت إليه هادئة، مبتسمة، وقالت وهي تجلس إلى جانبه: «إنني أحب الدوار، ولكنني لا أحس به إلاّ هنا!».

*

ورجعت إلى الحديث عن المستقبل فقالت: «إن سرَّنا بات معروفاً، ولسوف يعلم به زوجي عمّا قريب، بل لعله يرتاب في أمرنا بالفعل. وهو يحبّني بطريقته التي تثير اشمئزازي! بل إنني واثقة من أنه يراقبنا، ومن أنه سينتقم منّا، وسيخطّط لانتقامه على مهل، كما يفعل في كل أعماله!».. فهتف الشاب: «اسمعي يا إديث، يجب أن تحصلي على الطلاق منه!».. فصاحت: «الطلاق؟!.. لقد فكرت في ذلك، ولكن ماذا تراني فاعلة إذا عارض زوجي في الطلاق؟.. ولسوف يعارض! فضلاً عن أنَّ طلب الطلاق يستغرق دائماً عاماً أو عامين، أو ربما أكثر! ولسوف أضطر خلال هذه المدة إلى الإقامة مع أهلي، بعيداً عن هنا، وإلى أن أظل دائماً في انتظار. تصوّر.. عامين آخرين في السجن!.. لسوف أغدو بعد هذين العامين عجوزاً. وسأفترق عنك طيلة هذه المدة.. أفترق عنك، فهل تعي ذلك؟.. لقد درست الموضوع كما ترى، فإذا به مستحيل!»..

وصمت الاثنان، وقد مال كل منهما على صاحبه، لا يعكّر الصمت الذي يلفّهما سوى ذلك النداء الصامت الذي كان ينبعث من أعماقهما!.. وفجأة، أحسّا بحركة عند نهاية الجدار القريب، فانتفضا؛ وتمتم موريس: «هناك شخص قادم!»، فأجابت في جرأة:

«لنبق حيث نحن!».. وبقيا. كان مصيرهما في أيديهما فقط، وليس بوسعهما في تلك اللحظة أن يأتمنا عليه سواهما. ولكن القادم الذي خشيا أن يكشف سرَّهما لم يكن سوى عنزة!.. عنزة كانت تلتهم الحشائش القليلة، وخلفها صبية أمسكت بعصاً. ورمقتهما الصبية في حمق ثم تابعت سيرها، فشعرا بالأسف لأن المفاجأة لم تكن ذات نتائج تحلُّ قضيتهما حلاً لا رجعة فيه!

وأخذ الوقت يمر دون أن يستقرَّ موريس على رأي: هل يستمرّان في تحمُّل الأغلال الثقيلة وهما ينحدران في علاقتهما، أو يحطمان القيد ويمضيان في غير ما حذر ولا حيطة؟!.. ومالت المرأة على موريس تقرأ في عينيه ما كان يدور في خلده، وتمتمت: «لماذا تروغ عيناك ـ عيناك الحبيبتان ـ من نظراتي؟». فتنهَّد وهو يرخي جفنيه، وقد أحس دواراً كذلك الذي غشيه حين رأى المرأة تطل على الهاوية، ثم قال: «لست أدري!».. وتحوّلت تقبِّل أهدابه، قائلة في عذوبة انطوت على قرار جريء: «إنني أحس بقلبي يتحطّم في هذه الأيام الذهبية، أيام الخريف.. وكل مساء يهبط يحمل إليَّ ألماً وعذاباً، وكأن شطراً من سعادتي يسلب مني سلباً.. سأرحل الليلة، فهل تفقه ما أقول؟».

وانتفض موريس عند سماعه القرار الفجائي غير المرتقب، فتملّص منها، وهتف: «اسكتي يا إديث!».. ولكنها أجابت: «لعلك كنت تظنني أتظاهر بتهديدك، حين كنت أقول ذلك في الأيام الأخيرة.. ولكن أنت تخدع نفسك يا موريس، وسأرحل الليلة!».

لقد كانت تغريه بالرحيل من قبل، فكان يستبعد هذه الفكرة العسيرة التحقيق، ويمنّيها بأن يرحل هو أولاً ثم يستدعيها بعد أن يتمكّن من العثور على عمل في پاريس. فلمّا رأى نفسه أمام هذه القفزة المفاجئة، التي تفوق سابقاتها عنفاً وإصراراً، تولاّه الغضب

والانفعال، وتحوّل إليها يضرع بكل قوة ورجاء: «صه!.. سأمكث هنا معك.. إنني أحبك!».. ولكنها عادت تقول للمرة الثالثة، وقد ازدادت حماسة وعناداً: «سأرحل الليلة.. إنَّ القطار المتّجه إلى إيطاليا يرحل في منتصف الليل.. وفي منتصف الليل سأتحرّر من كل قيد!».

وفرك موريس يديه في يأس، وهو يردّد: «اسكتي!».. ولكنها مضت مكملة حديثها: «سأغدو حرة في إعلان حبي.. حرة في أن أتذوَّق هذه المتعة الجديدة.. متعة البكاء دون خوف إذا لم تكن إلى جواري.. حرة في أن أعشقك إذا جئت معي!».. فهتف: «ناشدتك الرحمة!.. هلاّ سكت؟»، ولكنها مضت تقول: «إنني أختنق في بلدتك!.. إنَّ منازلكم العتيقة مفعمة بالروائح العطنة.. إنني أختنق لفرط عاطفتي كما ترى. لسوف نظل منفصلين لو أننا بقينا هنا، ولكنني أريد أن أستمتع بعذابي إذا أنت لم تصحبني!.. أما إذا أتيت، فسأتنسَّم أنفاس الحياة.. فهلاّ أتيت؟ هل تأتي معي الليلة؟».. وسعت بقبلاتها الحارّة إلى إقناعه، فوعدها.

ولبثت لحظة تستمرئ لذة انتصارها، ثم غمغمت: «لقد نسيت كل حياتي الماضية!».

وقادته بعيداً عن الجدار الذي استترا خلفه إلى وضح الشمس، أمام كنيسة الهضبة. فما جدوى الاستتار؟.. وفي نشوة عارمة، رأيا الأرض تنبسط أمامهما، تحت السماء الصافية، في صورة خلاّبة.. وأمامهما ـ عند أقصى الأفق البعيد ـ بدت قمم جبال الألپ الصغرى: «ليه سيتلو»، و«بيرلاني»، و«غران شارينيه»، كوشي رقيق باهت تخلّل الفضاء بين جبال «غرانييه» وهضبة «لاروش دو جيت»، وقد توجتها طلائع الثلوج، وأضفى عليها النهار غلالة وردية. وعلى مسافة أبعد ـ إلى اليمين ـ بدت سفوح «كوربيليه»

و«ليبين» المكسوّة بالغابات، يشقها طريق «إيشيل»، وقد بدت كذب روسي، فراؤه منسوج من الغابات التي أحرقتها شمس الخريف!.. وانتصبت أمام هذه السلاسل الجبلية تلال رشيقة جلّلتها الأزهار.. تلال «شارميت» و«مونتانيول» و«سان كاسان» و«فيمين»، التي كان البصر يتهالك مستريحاً على منحنياتها البسيطة، وتموّجاتها الناعمة!.. وكانت أفواج من النور تتسلّل خلال منعطفاتها، وتلمع وسط الغبار في ظلالها. أمّا أبراج الكنائس الممشوقة كالحراب، وأشجار الحور ذات الخضرة المشوبة بلون الذهب، فكانت تبدو كخطوط تزيّن المنظر. وبدت «شامبيري» راقدة في السهل، كما لاحت الكروم ـ التي امتزجت فيها الألوان الذهبية القاتمة والساطعة ـ كأنها زغاريد تجلجل في الفضاء.

وهتفت إديث في ضراعة: «أرني أين تقع إيطاليا!». فأشار في غير مبالاة إلى اليسار، ولكنها التفتت إليه ـ بدلاً ن أن تتبع إشارته ـ فرأت وجهاً مثقلاً بالأسى، وظلت صامتة، إذ أدركت ما كان يخالجه..كان بوسعها أن تعجب بهذا البهاء الطبيعي إعجاب أي سائح عابر، ولكن هذا لم يكن شعور رفيقها. ألم يكن ذلك هو الجهد الخارق الذي تبذله طبيعة بلاده لاستبقائه؟.. فقد تراءت له مزرعة البرج ـ «لافيجي» ـ وذكريات طفولته جليّة مشرقة، تحلق محوِّمة فوق الأرض، كالعصافير، ميمِّمة شطره!.. وعلى مسافة أقل، بدا له «بيت الأسرة» أمام الحصن.. ذاك الذي كان الجميع يدعونه: «البيت»، وكأن العالم لا يحتوي بيتاً سواه! وقرأت المرأة في عينيّ موريس هذا الصراع الأخير، فداخلها شيء من الغيرة، إذ لم يكن لديها ما تضحي به مثله. وتنهّدت، ثم لمست ذراعه قائلة: «اسمع.. دعني أرحل وحدي!».

وساءه أن يكشف لها عمّا كان يدور في قرارة نفسه من

اعتراضات غريزية مبهمة، فقال: «لا، لا.. أتراك لم تعودي تحبينني؟».. فهتفت: «بل إنني أحبك!».. وابتسمت له في عذوبة ضافية، لم ير لها مثيلاً، وتأجّج لهيب عينيها.. كانت من نساء اليوم: مشبوبة الإخلاص، جامحة النزوات، وقد ضاقت فجأة بالصبر الذي التزمته صامتة تسع سنوات، فعقدت عزمها على أن تنتهز غيبة زوجها الطارئة لتفر من سجن الزوجية، أياً يكن الثمن!.. ولقد تأهبت لمغامرة الفرار في هذه الظروف المواتية، وأحسنت اختيار الساعة. وها هوذا انفعال موريس وحيرته يكادان يلقيان به تحت رحمتها، وفي قبضتها. ولكن، أي العاطفتين أقوى في نفس فتاها: أن يشاركها مصيرها المحتوم المحفوف بالمخاطر، أو أن يبقى في بيئته الطبيعية؟.. لقد كانت تحتمل حياتها قبل أن تحبه، ولكنه بث في نفسها روح التمرُّد دون أن يدري، فكيف تفارقه؟.. كان الاقتراح الذي تعرضه عليه يحطم فؤاده، ولكنها مع ذلك تمضي في إصرارها.. إنها لم تعان قط هذه الحيرة التي تنفذ إلى أعماق النفس، فتفعل بها ما تفعله الشمس اللاهبة بصحراء رطبة باردة!

وعادت تقول: «لن تلبث أن تنساني شيئاً فشيئاً، وعلى مر السنين، فلا تعارض، وأصغ إلى نصحي. إنك لا تزال فتياً، تنبسط أمامك الحياة على رحبها، فدعني أرحل!».. ولكن هذا العطف المشوب برثاء جارح أثار حنقه.. ما الذي يمنعه من الرحيل معها؟ أهو عقله؟.. العقل الذي لم يتجاوز عمره أربعاً وعشرين سنة!.. ألم يهده هذا العقل إلى أنَّ لكل امرئ حقّاً في السعادة؟.. وغمغم موريس أخيراً: «لست راغباً في الحياة دونك!»، فعادت تقول: «سأبقى إذا كنت تؤثر بقائي، وسأريك كيف أتعلم أن أجيد الكذب، فإنَّ الإنسان لا يتورّع عن كل الدناءات في سبيل حبه!».. ولكن هذا الاقتراح جاء بعد أوانه.. وكانت تدرك ذلك، وتتوقّع أن

يرفضه. فما إن رفضه، حتى ألقت بنفسها على صدر حبيبها الذي راح يتمتم: «إنني أحبك حتى الموت».. وهتفت: «فقط؟.. إنَّ حبي يفوق حبك!».

ـ مستحيل!

ـ بل حبي هو الحق: أحبك حتى حدود الإجرام!!

وأضافت في غير اكتراث: «سأحمل معي صداقي، الليلة». وهنا تذكّر هواجس أبيه، فهتف: «صداقك!؟».. قالت: «أجل، إنه مثبت في عقدي. ألم أرك إياه؟».. فقال: «ليس من حقك أن تأخذيه إلاّ بحكم قضائي». وهنا صاحت: «أوتريد أن أترك لزوجي ما هو حق لي؟.. وكيف نعيش؟».. فأجاب: «سأحصل الليلة على بعض المال يا إديث. ولن ألبث أن أحصل على عمل في باريس، فقد وعدني صديق لي، يدير أبوه مصنعاً كبيراً، بأن يعينني في قسم القضايا بالمصنع، وقد ذكرته بوعده منذ عهد قريب، بمجرد المصادفة!».

ولم تشأ المرأة أن تنقص من تفاؤله، فقالت: «أجل، لسوف تعمل، ولكننا سنصل إلى باريس فيما بعد. أمّا الليلة فسنرحل إلى إيطاليا!». فسألها: «لماذا؟». وإذ ذاك أجابته: «أليست هي قبلة المتزوّجين في شهر العسل؟».. ونكست رأسها في خجل، فبدت فجأة كخطيبة عذراء في الثلاثين من عمرها، تتبدّل أساريرها بسرعة من الحيرة إلى براءة الطفولة!.. كانت تعض الحياة بنواجذها في شراهة، كما يعض المرء الفاكهة الفجة، فيضرس!.. وأخذ الظلام يزحف على السهل، فازدادت فتنة الطبيعة أمام عيونهما، إذ خلعت عليها شمس المغيب غلالة ذهبية.. وكانت ليالي الخريف البديعة تثير في المرأة لوعة كلوعة الشهوة، فهتفت ممنِّية نفسها: «غداً.. غداً!». وخطا موريس إلى الأمام، مولياً المنظر ظهره، حتى لا يرى سواها.. سوى فاتنته التي استندت إلى أحد أعمدة الكنيسة. لقد

أصبحت بعد قرارهما وطنه الوحيد!

وهبطا الهضبة معاً، فسارا جنباً إلى جنب حتى جسر «ريكلي» غير عابئين لما يتعرّضان له إذا رآهما أحد من معارفهما.. وقالت المرأة عندما همّا بالافتراق: «لقد أوشكت الساعة على الخامسة، ولا تزال أمامنا سبع ساعات».. وأجّج الأمل لهيب عينيها، بينما استعرض موريس ـ في تقزّز ـ تلك الساعات القاسية التي يتحتّم عليه أن يخون أسرته فيها. وأدركت المرأة ما كان حبيبها يكابده، فرثت له، وقالت ـ تبدِّد مسبقاً ما قد يعترضه من مؤثّرات: «هل تقوى على الكذب ليلة بأسرها يا طفلي المسكين؟».. فانتفض إذ فطن إلى أنها كشفت ما بنفسه. وكرّر ـ في شيء من الخشونة ـ ما قالته من قبل: «إن الإنسان لا يتورّع عن كل الدناءات في سبيل حبه!».. فقالت: «سترى أن الكذب قبيح، فتلمس ذلتي وعذابي.. فإنني أكذب منذ أحببتك!.. تشجع، وإلى اللقاء الليلة!».

*

وأهرع موريس ـ قبل أن يعود إلى البيت ـ سعياً إلى الحصول على المال اللازم.. ومن عم أبيه «إتيين روكڤيار» ـ الطاعن في السن، والمعروف ببخله ـ ومن عمته «تيريز»، التقية، المحسنة، حصل على ما يقرب من ألف فرنك.. وأخذ من أخته ـ السيدة مارسيلاز ـ خمسمائة فرنك، ومثل هذا المبلغ من ريمون بيرسي، خطيب أخته مرغريت.. وتعلّل في سبيل ذلك باضطراره إلى سداد ديون كان قد اقترضها في أثناء الدراسة. ولقد كبّدته هذه الخدعة ذلاً وهواناً قدمهما قرباناً في محراب حبه، وإن لم يجد من ضميره ارتياحاً!.. ولم يفطن في هذه الأثناء إلى أن أحداً من معارفه ـ غير الأقارب ـ لم يبسط له يد المساعدة، وهو يدور عليهم مستجدياً، في حين أن أسرته ساعدته ـ في محنته المفتعلة ـ عن طيب خاطر.. وإن كانت

أيّ خشونة بدت منهم مبرأة من كل حقد!

وقفل راجعاً إلى مكتب فرازن في الساعة السادسة، فإذا الموظفون على وشك أن يغلقوا الأبواب منصرفين، فقال لهم: «انصرفوا أنتم، فإنني سأكتب بعض الخطابات، ثم أحكم إغلاق الأبواب!».. وكتب بعض الخطابات فعلاً، لمعارفه الذين كانوا يشغلون مراكز هامة، يسألهم العون في الحصول على عمل ذي مرتب جيّد، في باريس. ولمّا كان قد تفوّق في جميع الامتحانات، فقد اعتمد على توصية أساتذته السابقين. ولم يكن قد تعرّض من قبل لمصاعب الحياة، ولذلك وضع ثقته في كفاءته العلمية، ولم يخامره شك في التغلب على كل العقبات. ولكن، إلى أين يرسل أولئك الناس ردودهم؟.. وتردَّد قليلاً، ثم حدَّد العنوان: «يُحفظ في شباك البريد، ميلان»!

واستطاع موريس بهذه الاستعدادات، التي شغل بها، أن يخادع نفسه وأن يروغ من الندم الذي كان يساوره بسبب الرحيل. على أنَّ هذا الندم عاوده، حادّاً نفّاذاً، عندما اضطر إلى اجتياز مدخل دار أبويه للمرة الأخيرة. ومع أنه تسلّل إلى غرفته وأغلقها دونه، إلاّ أن الجميع أحسّوا بقدومه. فلمّا حانت ساعة العشاء، أقبلت مرغريت تدعوه، فإذا به معتمد برأسه على يده، تحت نور المصباح، وقد استغرق في التفكير إلى درجة جعلته لا يسمع طرقاتها. وأمسكت الفتاة بيديه في حنان، فتململ لهذا التلطُّف منها. وسألته: «ما الذي يحزنك يا موريس؟»، فأجاب في إيجاز: «لا شيء!».. ولكنها عادت تقول: «إنني أختك الصغرى، فهلاّ بثثتني أحزانك؟.. من يدري؟ لعلني لا أخلو من نفع لك!».. ولكي ينتحل لهمومه عذراً مقبولاً، تعلّل بشدة حاجته إلى المال ليفي بعض المطالب، فاستمهلته الفتاة لفورها قائلة: «انتظر دقيقة!». وغادرت الغرفة ثم

عادت بعد قليل متهلِّلة، ووضعت أمامه على المنضدة ورقة مالية من فئة الألف فرنك، وهتفت: «أيكفيك هذا؟ لقد أعطاني أبي ثلاث أوراق لجهاز عرسي، فبقيت منها هذه، لحسن الحظ».. وهتف موريس: «إنك غبية يا مرغريت.. لا أريد شيئاً».

ـ لا، لا.. خذها، فإني سأسر إذا أخذتها. ولن يضيرني أن ينقص جهازي بضعة قمصان!

وضحكت، فشعر بأعصابه تتوتّر، وبالدموع تبلغ حواف عينيه. وبذل جهداً حتى كبحها، ثم ضم أخته إلى صدره.. إلى القلب الذي لم يكن قد آل بأكمله بعد إلى السيدة فرازن. وتمتم: «أوليني حبك دائماً، مهما يحدث!».. فتطلّعت إليه متسائلة، ولكنها خشيت أن يظنها راغبة في معرفة سره، في مقابل كرمها، ومن ثم اقتادته إلى قاعة المائدة، وهي تُسر إليه في رفق وكأنها تبتهل: «كن لطيفاً مع أبينا، أزدد حبّاً لك!».

وفرغت الأسرة من تناول العشاء دون أن يقع ما يعكر صفوها. وكان الفضل في ذلك لريمون بيرسي، إذ إنَّ وجوده سهّل لقاء السيد روكڤيار وابنه دون عتاب. وحين تقدم المساء، عاد موريس إلى غرفته متعلِّلاً بأنه يشكو صداعاً. وعرّج في طريقه على مخدع أمه ـ التي بقيت ملازمة فراشها ـ فقبَّلها في الظلام، ولكنَّها عرفته من ملمس شفتيه، فهتفت باسمه، وراحت تتحسَّس وجهه. وأفلتت من عينه دمعة، فبادر إلى الخروج.. ما أقسى ما كان الحب يكبِّده!

وأعدَّ حقيبة ثيابه، متعمّداً أن لا يحشوها حتى يسهل عليه حملها بنفسه، ثم أودع حافظته ما كان لديه من نقود، والمبالغ التي اقترضها، وورقة مرغريت، فزاد مجموعها قليلاً على خمسة آلاف فرنك. وخيل إليه ـ بخبرته الضئيلة بالحياة ـ أنها ثروة طائلة!.. كذلك أخذ ما كان يمتلك من مجوهرات قليلة، عسى أن يفيد من

بيعها لاحقاً. وحين انتهى من استعداده، راح ينتظر كسجين حُكِم عليه بالإعدام..فهو يرتقب ساعة التنفيذ، وأخذ عقله ـ الذي كان يؤمن بعصمته من الخطإ ! ـ يؤازره في قراره، ويزيِّن له الحياة المتحرِّرة من كل الالتزامات، بعيداً عن البقاء في حلقة آل روكڤيار، كأصغر أبنائها!

*

أخلد السيد روكڤيار إلى مخدعه وقد اطمأن بالاً إلى مسلك موريس، وما أبدته ابنته من ثقة، فلم تساوره الهواجس، ولا سيما أنه كان قد قرّر أن يُقصي ابنه عن «شامبيري» نهائياً. فقد كتب إلى صديق حميم، كان روكڤيار يدينه بعدة أفضال، وكان قد استقر ـ بعد أن جاب الدنيا واستنفد كل ثروته ـ في تونس، حيث عمل في المحاماة، فنجح نجاحاً كبيراً، وكتب مراراً إلى روكڤيار يعرب له عن حاجته إلى مساعد يكل إليه أعماله، رغبة منه في أن يستريح. أفلم يكن من السهل على ابنه ـ وهو بعد في الرابعة والعشرين ـ أن يجد في مثل هذا الاغتراب، وفي مثل تلك الحياة بما فيها من جدة وطرافة، ما يمكّنه من النسيان والسلوان والنجاة من الأخطار؟!

وخيِّل إلى السيد روكڤيار ـ في هدأة الليل ـ أنه سمع باباً يُفتح ثم يغلق. ظنَّ في البداية أنه أخطأ السمع، إذ كان الصمت يرين على الدار، فحاول العودة إلى النوم. وبعد مقاومة لنفسه، أشعل عود ثقاب ليتعرَّف على الوقت، فإذا به قد تجاوز منتصف الليل بنصف ساعة. وما لبث أن نهض فغادر مخدعه، ولمح في نهاية الردهة بصيصاً من النور يتسرّب من تحت باب موريس، فدنا من الغرفة، وأصاخ السمع، فلمّا لم يسمع أي حركة، طرق الباب، ولكنه لم يتلق جواباً. وتردَّد قليلاً، ثم دخل الغرفة، وهو يقول لنفسه ـ ليخفِّف من حدة القلق الذي اعتراه: «لعله نسي أن يطفئ المصباح!».

وتبيَّن لأول وهلة أنَّ السرير كان شاغراً لم يمس، وصوان الثياب كان خاوياً. فعاد إلى غرفته، وارتدى ثيابه على عجل، ثم ركض كشاب - رغم أعوامه الستين - نحو المحطة. وكان موعد القطار السريع الذاهب إلى إيطاليا قد فات، ولكن كان ثمة قطار آخر يتّجه صوب جنيف. وأنبأه موظف بالمحطة، كان يعرفه، أن موريس قد رحل «معها»، وأنهما ابتاعا تذكرتين إلى «تورين». وأطلق الأب إذ ذاك صيحة تشبه الصوت الذي ينبعث من الحديد حين تمسّه المطرقة لأول مرة. ولكنَّه كان كالحديد صلابة ومقاومة، فلم يلن تحت مطرقة القدر، وإنَّما احتفظ باعتدال قامته، دون أن ينهار!.. فإن من ينحدر من أصل كأصله، ومن أسرة كأسرته، لا يمكن أن يهوي أمام زلة من زلات الشباب. لسوف يستردّ ابنه، إن عاجلاً وإن آجلاً، فيعيده إلى نطاق الأسرة.. أو لعل القدر هو الذي يتكفّل بإعادة الابن الضال.. وقد يكون هو- الأب - من الضعف بحيث يقنع بأن يذبح عجلاً سميناً احتفاء بعودة الابن، بدلاً من أن يوجه إليه اللوم والتقريع. وإنّ بيت الأسرة لهو المكان الذي يبلسم فيه المرء جراحه، والذي يلجأ إليه موقناً من أنه لن يردَّ عن بابه!.. ولقد يهجر الزوج زوجته، والزوجة زوجها، ويعق الأبناء آباءهم وأمهاتهم فيهجرونهم، ولكن الأب والأم لا يقويان على التخلّي عن طفلهما، ولو تخلى عنه العالم كله!

وبدت البلدة - في ضوء القمر - كجثة هامدة.. وتردَّد لوقع قدمي السيد روكفيار - في أثناء عودته - صدى تجاوب في ذلك القفر الموحش. وفيما كان يسير في شارع «بواني»، رأى الحصن وقد رفع أمامه برجيْه السامقين اللذين زادهما الظلام تطاولاً وارتفاعاً. وأبصر في مواجهة القصر شجرة رسمت الظلال صورة لها على الأرض. لسوف تستيقظ البلدة، بعد ساعات قليلة، لتطلق

الضحكات الساخرة الشامتة، حين تعلم بالمأساة التي حلت بآل روكفيار!

وصل السيد روكفيار داره، فما إن فتح الباب حتى لمح طيفاً أبيض مقبلاً عليه.. تلك كانت مرغريت، التي بادرته سائلة في انزعاج: «ما الذي جرى يا أبتاه؟».. ولما لم تكن زوجته قادرة على أن تكون إلى جواره، فقد رأى أن يشرك ابنته في حمل أعباء المأساة الفادحة. وكان يقدّرها إلى درجة تحمله على أن لا يخفي عنها الأمر، فتمتم قائلاً: «لقد سافرا!».. وتذكرت إذ ذاك أمنية أخيها التي همس بها إليها وهو مهموم، ففهمت ما جرى. وهتفت متنهّدة: «أوّاه!».

ومرة أخرى، تعانق الأب والابنة، وضمَّ كل منهما الآخر إلى صدره، وقد ربط بينهما الأسى المشترك. وما لبث الأب أن قاد ابنته في رفق إلى مخدعها، ثم قال ـ موصياً إياها قبل أن يتركها: «لندع الأم نائمة يا صغيرتي. فلسوف تعرف آلامنا مهما يطول الأمد!».

4 - الانتقام الأسود

هبط الأستاذ فرازن من قطار الساعة السابعة صباحاً، في «شامبيري»، وقد حمل حقيبة صغيرة، وتدثّر بمعطفه اتقاء برودة الصباح. وغذَّ السير إلى مسكنه الذي غاب عنه يومين، وأدرك للتو ـ من الارتباك الذي اعترى الخادم التي فتحت له الباب ـ أنَّ شيئاً ما قد جرى، أو كان يجري في منزله. كان رجلاً قد ناهز الخمسين، لا يزال محتفظاً بصحته.. كما كان مستقيماً، هادئ الطباع، ممتازاً في صفاته. بيد أن شفتيه الغليظتين، بل وعينيه البراقتين المحتجبتين خلف نظارته، كانت تثير شعوراً من عدم الارتياح في النفس.. ومع انزعاجه الطارئ، فإنه سأل الخادم: «هل كل شيء على ما يرام؟.. والسيدة؟».. فأجابت الخادم في لهجة انطوت على سخرية مكبوتة: «لقد سافرت السيدة مساء أمس إلى إيطاليا ومعها حقائبها!».

ـ إلى إيطاليا؟

ـ أجل يا سيدي.

ـ في أي ساعة؟

ـ في منتصف الليل.

وسأل في دهشة: «دون أي توضيح؟». فأجابت الخادم: «لقد قالت السيدة، وهي منصرفة، إنَّ السيد قد أُحيط علماً». فقال السيد فرازن في برود: «هذا صحيح، فأعدي لي الفطور في غرفة المكتب!». ودخل غرفة مكتبه ـ المتّصلة بمكتب التوثيق ـ دون أن يبدي أي دهشة، إذ ما جدوى سؤال هذه الفتاة الماكرة الجاهلة؟.. على أن النبأ، غير المتوقع، الذي دوى في أذنيه كطلق ناري، لم يكن قد أثار غضبه بعد، ومن ثم لم يداخله سوى عجب مذهل. والجرح

مهما يكن قاتلاً، فإنه لا يبعث في البداية أكثر ممّا تبعث الصدمة البسيطة، ولا بد من مرور وقت قبل أن يثير الألم. وبأعصاب متوترة، وعينين حادتين، لمح السيد فرازن على المنضدة خطاباً وضع بشكل متعمَّد، بل ومثير للتحدّي. وأمسك به دون أن يفضه، محاولاً التكهّن بما فيه.. كان الخطاب يتضمّن تفسيراً وتوضيحاً لهذا الرحيل دون شك.. هذا الهجر الذي تمّ في غير اكتراث ولا مبالاة بالنتائج!.. فقد كان ـ رغم انقضاء تسع سنوات على زواجه ـ قليل الثقة في زوجته، بحيث بدت له كل التكهُّنات جائزة ومحتملة: أتراها فرّت بصحبة أحد، أم هي نزوة متهوِّسة استبدّت بها ولن تلبث أن تزول فتعود الهاربة إلى حظيرتها؟.. ولم يخطر بباله اسم موريس روكڤيار. ولقد كانت السيدة فرازن تسعى إلى الاستحواذ على إعجاب الرجال، وتجد في ذلك ملهاة لها.. وكان كل امرئ يتملّقها ويتقرّب إليها، ومن ثم فإنَّ فرازن لم يحفل جديّاً بذلك الود الذي تمادت فيه زوجته مع أحد موظفي مكتبه، رغم أنه عرف ـ من الخطابات التي تلقّاها من مجهولين ـ أن البلدة كانت تتحدّث عن هذه العلاقة. فقد تملّكه ما يتملّك الرجال الراشدين من ازدراء للشبّان الذين يلاحقون النساء، ومن تشبُّث بأهداب الأمل، وثقة في أن الزمن في صفهم.. فهم ـ وقد جاوزوا الشباب ـ يميلون إلى الاعتقاد بأن المرأة لا تميل إلاّ لمن في أعمارهم، أو ما يقرب منها، لأن العواطف في رأيهم غير ذات قيمة ما لم تستند إلى إمكانيات! وكان فرازن يعرف كم حال التعصُّب للأخلاق في الريف دون تحقق كثير من شهوات الغاوين والغاويات. وفوق ذلك كله، كيف يخطر بباله خاطر غير معقول، كذلك الذي يوحي إليه بأن شابّاً مثل موريس يطرح طواعية مركزاً مريحاً، ملائماً؟

لم يستسغ عقل فرازن افتراضاً كهذا، ولكنه وجد نفسه أمام أمر

واقع، وهو الرجل الذي لم يكن يُعنى بغير الوقائع. وإذ أعياه هذا اللغز الذي لم تنفذ بصيرته إلى أغواره، فضَّ غلاف الخطاب وقرأ:

«سيدي: إنني لم أحبك قط، وإنك لتعرف ذلك. إذ أية قيمة لقلب المرأة لدى ذلك الذي يمتلكها بعقد رسمي؟! لقد احتملت هذه العبودية تسع سنوات، لأنني لم أكن أحب.. ولكن هذا الواقع قد تغيَّر اليوم: هأنذا أتحرَّر مخلصة، بدلاً من أن أقسم نفسي بين رجلين. فمَن الذي يعوقني؟.. لقد كنت تبغض الأطفال منذ بداية زواجنا، مع أن يد الطفل الصغيرة كانت كافية كي تغلني بالقيود.. أمّا الآن، فإن بيتنا خال، وليس فيه من يحتاج إليَّ. ثم إنك قدّرت قيمتي في عقد زواجنا بمائة ألف من الفرنكات، فلعلك ترى أن من الطبيعي أن أحمل معي ثمني. ولقد دفعت مقابله شبابي. وإني إذ أهجرك، لأغفر لك. فوداعاً ـ إديث دانيماري».

كان كل شيء في الحياة ـ حتى العواطف ـ لا يتمثَّل للأستاذ فرازن إلاّ في شكل عقود والتزامات، سواء أكان ذلك بحكم عاداته المهنية أم بحكم تركيب عقله المادي الواقعي! ولما كانت أخلاقنا تتحكم فينا، حتى في ساعات الألم والعذاب، أو ساعات تردّينا في المهالك، أو ساعات النزع الأخير، كذلك كان فرازن، فإنه لم يشعر بالأسى إلاّ لفقدان زوجته، وليس لضياع نقوده، رغم أنه كان حريصاً على المال. ولكنه حين أراد استعراض ماضيه، وتفريج كربه، لجأ بغريزته إلى البحث في أحد الملفات عن عقد زواجه الذي أشارت إليه زوجته في رسالتها. وما إن لمح الوثيقة، التي تحمل الخاتم الرسمي، حتى تمثَّل في جلاء ذلك الغرام المشبوب الذي استبد به في أواخر شبابه. ورأى بعين الخيال ـ عند مدخل إحدى الكنائس ـ فتاة ممشوقة القوام، ملفوفة القدّ، تنم حركاتها وعيناها عن النار المتأججة في أعماقها.. وكان ذلك في «ترونش»،

موطن طفولته ـ بالقرب من «غرينوبل» ـ حيث اعتاد أن يذهب في عطلاته الصيفية من كل عام، حين كان يتاح له أن يغادر پاريس، حيث كان يعمل رئيساً للكتبة لدى أحد الموثقين. ولم يكن قد استقر بعد ـ رغم اقترابه من سن الأربعين ـ على ترك پاريس، واتخاذ مكتب خاص في «دوفينيه».. المقاطعة التي تقع فيها «غرينوبل».

ولم يستطع أن يقاوم إعجابه، فسرعان ما تحرّى عن الفتاة، وعرف أن «إديث دانيماري» تقيم مع أمها على مقربة من «ترونش»، في منزل صغير، لاذت به المرأتان وهما شبه معدمتين، بعد أن مات رب الأسرة الذي بدد ثروته في الميسر، وقدّر فرازن في نفسه أن فتاة ريفية لها مثل عيني إديث، لا بد أن تكون فريسة سهلة! ولكنه ظل عامين يلاحقها دون أن ينال منها مأرباً.. فقد كانت ترتقب أمير أحلامها، إذ كانت جامحة الطموح. وعندما سئمت الانتظار، ألهبت الوحدة خيالها.. ومن ثم صدّت فرازن، ولكنها حرصت على أن لا يكون ذهابه دون عودة! وكانت قد اكتشفت ـ دون دراسة تؤهلها لهذا الكشف ـ فنّ الصد المنطوي على وعد، ومارسته على حساب ذلك الرجل الذي كانت مغامراته في الأوساط المتبذّلة والمغرقة في الشهوات تجعله يرتبك ويضطرب أمام دلال كدلال إديث!.. ومن ثم اعترف بالهزيمة، إذ تغلّبت شهوته على مصلحته.. وكان قد فقد أبويه اللذين خلّفا له ميراثاً كبيراً، فقرّر في النهاية أن يطلب رسميّاً اليد التي صدّته، وهي تريه ـ في الوقت ذاته ـ المكان الذي يجب أن يتخذه خاتم الخطبة!

ولكن، كيف يعبِّر خلال بنود العقد القانونية عن حبه؟.. لقد نصَّ في أحد البنود على منحة قدرها مائة ألف فرنك للزوجة المقبلة ـ التي يربطه بها العقد ـ لا تستولي عليها بعد وفاة المانح، كما جرت العادة، وإنما تنتقل ملكيتها إليها فور إتمام الزواج. وكان هذا

السخاء غير المألوف دليلاً على ضعفه، وشهادة ـ تدعو إلى الحسرة ـ على هزيمته!.. فقد أخضع هذا السخاء البراعة القانونية للعاطفة المشبوبة!

وانتزعه من تفحّص العقد دخول الخادم تحمل إليه «الكاكاو». وكانت ترمق سيدها ـ من طرف عينها ـ وهي تقوم بإحضار الفطور، فأدهشها أن تراه ممسكاً بأوراق قضائية. وكان يفحص أحد الملفات، وهي ترقب خلسة أساه أو غضبه، حتى تجد ما ترويه للبلدة. ولكنه أشار إليها بالانصراف. وتناول الفطور بغير شهية، وبدافع من إرادته: أولم يكن في حاجة إلى قواه بعد قليل، حين يتحتم عليه أن يتخذ قراراً؟

وبينما راح يحتسي الشراب الساخن، انتهى من استعراض شريط سني حياته الماضية.. استعرضها من وجهة نظره! فقد كان ـ مثل كثيرين من الرجال، وككل النساء تقريباً ـ عاجزاً عن أن يتمثّل وجهة نظر شريكه.. وكانت الصور التي تمثّلها هي صور زواجه في «ترونش» ـ الذي تم بعد كثير من التردّد والإرجاء لم يصدرا عنه هو! ـ والرحيل إلى باريس.. باريس التي كشفت له عمّا كان يجهله في زوجته.. فمن العزلة والحياة الرتيبة، انتقلت دون ما ارتباك أو تردّد إلى الطيش النزق.. فإنها لم تجاره في نضوجه، ولا هو اكترث لشبابها. ومن هنا حصل على مكتب الأستاذ كليرڤال في «شامبيري»، بعد أن أعياه العثور على مكتب في «غرينوبل»، على أمل أن يجدا في الريف دعةً وهدوءاً. أمّا السيدة فرازن فقد أدى هذا الانقلاب في حياتها إلى أن تولاها ذلك الشعور بعدم الاكتراث الذي يساور أولئك الذين لم يجدوا من الحياة ما يرضيهم. وسُرّ فرازن حين بدا عليها أنها تقبّلت العزلة بغير تحبيذ، ولكن.. بغير معارضة كذلك!

وانسلخ عامان على هذا النمط، امتازا بالنعم التي يمكن أن يلقاها المرء في وجوده بالقرب من امرأة لم تكف - رغم هدوئها - عن أن تثير في النفس شيئاً من القلق! وفجأة، وفيما كان يخالها قد استكانت إلى الدعة، والعلاقات الطيِّبة، والشواغل اليومية، إذا بها تهجر مسكن الزوجية لتهرب مع حبيب!

*

راح موثق العقود يصعد دون وعي - وقد رزح تحت الكارثة التي لم يكن مستعدّاً لها - سلّم الذكريات التي تمثَّلها في العقد المدني. ومن جديد، بلغ أسفل الهاوية، ولكنَّه في هذه المرة سبر غورها، وقاس عمقها. لقد أصبح ذلك الـ«موريس» روكڤيار - الذي كان يحتقره عند وصوله - عرضة لنيران غيرته.. فإنَّ إديث لم تسافر وحدها.. من المحتمل - بل من المؤكد - أنها سافرت معه.. مع موريس. ولا بد أنه كان يضمها إلى صدره في تلك اللحظة ذاتها، هناك.. في إيطاليا، البعيدة!.. وتناول السيد فرازن منديله فرفعه إلى عينيه، ثم مزقه مِزَقاً بأسنانه.. ولم يعد يتمالك نفسه، فبكى!

لكم أجادت إديث وصفه حين قالت لحبيبها موريس: «إنه يحبني بطريقته الخاصة».. وهذه الطريقة لم تكن أنبل الطرق، ولكنها كانت أحفلها بالعذاب: فهي تضني النفس بصور محددة قاسية، وهي تشق القلب كما يشق المحراث الأرض، وتولد الشحناء والبغضاء!

وعاد فرازن فتناول الخطاب والعقد، لا ليزيد في شقائه، وإنَّما ليلتمس طريقاً للانتقام. وكان موظفو مكتبه على وشك الحضور، ومن واجبه أن يتحرّى الأمر، وأن يعد أسلحته، قبل وصولهم. لا بد أنها أخذت النقود التي حملتها معها - أو بالأحرى التي سرقتها، لأنَّ الهبة بين الزوجين تعتبر في جميع الحالات باطلة بمجرد صدور

الحكم بالطلاق! ـ من الخزانة. فقد أودع، منذ عهد قريب، مائة وعشرين ألفاً من الفرنكات ثمناً لأحد العقارات، ولا بد له من أن يدفعها بعد أيام من توقيع العقد الذي أجرى توثيقه. وها قد أخذت إديث المبلغ بفضل إهماله الذي لا مراء فيه. وقد يكون من الممكن صنع ـ أو سرقة ـ مفتاح للخزانة، ولكن.. كيف تراها اكتشفت تركيب الأرقام السرّية التي لا يكون للمفتاح جدوى من دونها؟

ونهض فاقترب من الخزانة التي لم تكن تحمل أي أثر للخلع. وبحث في جيبه، وأخرج حلقة مفاتيحه، فتبيَّن أن المفتاح لم يكن بينها.. لا بدَّ أنه نسيه سهواً يوم سفره. على أنه كان يمتلك مفتاحاً آخر للخزانة، وإن كان يعهد به إلى رئيس الكَتَبة، ليستعمله في أثناء غيابه. لذلك اضطر إلى أن ينتظر حضور الكاتب ليفتح الخزانة ويتأكد من محتوياتها، ولكي يشهده في الوقت عينه على الواقعة. ومن ثم سعى إلى مكتبه، فتناول كتاب قانون العقوبات، وشرع يلتهم المواد الخاصة بالجرائم والجنح التي تُرتكب ضد المالك. وقرأ في المادة ٣٨٠ أن الاختلاسات التي يرتكبها الأزواج للإضرار بزوجاتهم، أو الزوجات للإضرار بأزواجهن، لا تقع إلاّ تحت طائلة القانون المدني فقط. ولكن نهاية هذه المادة ـ التي جرّدته من كل سلاح ضد الخائنة! ـ أمدّته بسلاح ضد شريكها: «فيما يتعلق بجميع الأشخاص الآخرين، الذين يخفون أو ينتفعون بكل أو بجزء من الأشياء المسروقة، فإنهم يعاقبون كمتهمين بالسرقة».. وراجع المواد التي عالجت الموضوع، فعثر على مادة أفضل من سابقتها.. تلك هي المادة ٤٠٨ التي تناولت «سوء استغلال الثقة». فقد رأى فيها ظرفاً يدعو إلى تشديد العقوبة، وذلك إذا كان من أساء استغلال الثقة موظفاً عامّاً أو حكوميّاً، أو خادماً أو مستخدماً، أو من المشتغلين بالرهونات، أو طالباً، أو كاتباً، أو

عاملاً، أو موظفاً، تحت التمرين أراد الإضرار بصاحب العمل. وفي هذه الحال، تكون العقوبة هي السجن!

فما الذي يمنعه هنا من أن يتهم موريس روكفيار.. ومن أن يتهمه وحده؟.. ألم يكن هذا الاتّهام جديراً بأن يلقى تصديقاً؟.. لقد كان الشاب يعرف معالم المكتب، والعمليات التي تجري فيه، وتاريخ العقود، وغياب الموثق. وكان بوسعه أن يلتقط سرّ قفل الخزانة، وأن يسرق المفتاح من رئيس الكتبة لفترة وجيزة. ولما كان لا يمتلك ثروة شخصية، فقد كان مضطرّاً إلى الحصول على المال ليهرب مع عشيقته.. ثم، ألا يدينه هربه إلى خارج البلاد؟.. لا جدال في أنَّ ما أعلنته السيدة فرازن في رسالتها كان يكذِّب هذا الادّعاء، ولكن رسالة السيدة فرازن لم تكن صالحة لأن تتخذ دليلاً ينهض ضدها، كما أنها كانت في صالح عشيقها، فيكفي إتلافها!.. إنَّ أي شيء لن يقوى على تبرئة الشاب إذا أُتلفت الرسالة!.. ثم إنَّ الشاب فقد كل وسيلة للدفاع. أفلا يجب عليه - إذا أراد الدفاع عن نفسه - أن ينقلب على شريكته، وأن يعترف - على الأقل - بمعاشرتها والعيش معها على نفقتها؟.. وهذا ما لا يمكن لرجل شريف أن يفعله. ومن ثم فقد كانت إدانته مؤكدة!.. وسوف ينتهي فراره الغرامي بتسليمه إلى حكومته، ليقف أمام محكمة الجنايات وقد ذوى عوده، وتحطَّم كيانه، وهانت كرامته، فيكفر عن ذنب الاثنين. وأخيراً، ستدفع أسرته المبلغ المسروق، لتخفِّف من جرمه، وبهذا يتفادى السيد فرازن المأساة.. أو كل خسارة مادية على الأقل، فإن الخسارة المادية لم تكن بالأمر الذي يستهين به!

وعندما انتهى من تقليب الأمر على كل الوجوه والوصول به إلى النهاية المقصودة، أحسَّ بهمومه تخف، ونسي ألمه وهو يتبيَّن إدانة غريمه وعقابه. وراح يستعرض النتائج، البعيدة المدى، التي

ستترتّب على انتقامه ـ دون أن يداخله إشفاق ـ حتى انتهى بها إلى الحط من قدر آل روكڤيار المتغطرسين، الذين أكرموا وفادته حين خلف الأستاذ كليرڤال، واتخذوه صديقاً. كان في تعاسته يلقي بآلامه على العالم كله وكأنها لعنة!.. وعاد يقرأ للمرة الأخيرة ذلك الخطاب الذي كان يقيم العقبة الوحيدة في طريق خطته، ثم استجمع عزمه وألقاه في النار.. وراقبه وهو يحترق، ويصبح رماداً.

*

دقّت الساعة معلنة التاسعة. فأخذ الكَتَبة ـ المواظبون ـ يتوافدون على المكتب واحداً تلو واحد، فيجلسون إلى مكاتبهم. وإذ ذاك فتح السيد فرازن الباب الذي يصل بين حجرته والمكتب، واستدعى رئيس الكتبة وهو مشغول البال، دون أن يحييهم، وقال: «فيليپو.. إنني لا أجد مفتاح الخزانة». فأجابه الكاتب: «ها هو ذا يا سيدي، فقد عهدت أنت به إليَّ في أثناء غيابك، ولكنني لم أستخدمه». فقال: «صدقت.. تعال معي!».

ودخل الرجلان إلى غرفة المكتب، ثم فتح السيد فرازن الخزانة، فلاحظ في الحال شيئاً من عدم النظام في داخلها. وإذ ذاك سأل فيليپو: «هل كنت تبحث عن شيء.. عن وصية مثلاً؟». فقال فيليپو في دهشة: «لا يا سيدي.. أقسم لك».. وهنا قال فرازن: «إذاً، فلست أفهم شيئاً.. فهذا المظروف الممزَّق كان يحتوي على ثمن بيع ضيعة «بيلفاد»: مائة وعشرون ألفاً من الفرنكات، عددناها سويّاً». فقال الكاتب مرتجفاً: «حقّاً يا سيدي!».

وكان الموثِّق في غاية الهدوء. ولم يمض في أسئلته، بل أغلق الخزانة بعناية، وقال: «لقد دخل إلى هنا شخص ما». فتمتم الكاتب: «هذا مستحيل يا سيدي!». ولكن فرازن قال في إصرار: «أؤكد لك أنَّ شخصاً دخل إلى هذا المكان. وسنثبت محتوياته أمام

رئيس الشرطة. مَن الذي أغلق باب المكتب مساء أمس؟».

ـ موريس روكفيار.

ـ وهل كان وحيداً؟

ـ أجل، فقد تريَّث ليكتب بعض الخطابات.

فسأله: «إلى متى؟»، فأجاب: «لست أدري. ولكنني قابلته تحت القناطر بعد نصف ساعة فأسلمني المفاتيح».. وهنا صاح فرازن: «المفاتيح؟.. وهل كان مفتاح الخزانة بينها؟»، فأجاب فيليپو: «أجل». فقال السيد فرازن: «لم يكن في هذا شيء من الحكمة».. وساد الصمت برهة، ثم عاد يسأله: «ولماذا لم يحضر بعد؟».. فقال الكاتب: «مَن؟».. وأجاب الموثق: «موريس روكفيار».

وهنا قال الكاتب بلهجة مفعمة بالحقد: «إنه لن يحضر». فحدجه السيد فرازن بنظرة فاحصة، أرشدته إلى أمرين: أولهما، أنَّ نبأ نكبته قد ذاع في المدينة، وثانيهما، أن فيليپو ـ الذي كان فرازن يشك في أنه يغار من موريس وينافسه في حب زوجته ـ سيكون حليفاً يثق فيه ويركن إليه! على أنه تظاهر بالجهل، وقال: «هذا صحيح، فقد تقرّر أن ينضم إلى مكتب أبيه». ولكن الكاتب قال: «لا يا سيدي، فقد سافر في منتصف ليلة أمس».

ـ وإلى أين سافر؟

ـ إلى إيطاليا.

وعندئذ نطق الموثِّق بحكمه في تؤدة: «آه!.. أخيراً فهمت!.. إذاً، فلعله هو الذي سرق خزانتي. كيف تراه عرف الأرقام السرّية؟».. فنكس فيليپو رأسه، وقد أحاله الخوف والغيرة إلى نمّام متواطئ، وقال: «إنَّ الأرقام مسجّلة في مفكرتي، ولكن من دون

بيان يوضح ماهيتها.. وقد سجّلتها لأن ذاكرتي ضعيفة. ولقد قرأ روكفيار الأرقام، فلعله حدس ما تنم عليه». فقال الموثِّق: «إن إهمالك مضاعف. اطلب إلى أحد زملائك، يا فيليپو، أن يستدعي رئيس الشرطة ليتولى التحقيق بنفسه».

وحضر رئيس الشرطة، وتمَّ فحص الخزانة رسميّاً في حضور عدد من الشهود، وقدّم السيد فرازن بياناً بمحتوياتها، وأسفر البحث عن أن شيئاً منها لم ينقص. وإذ ذاك قال الموثِّق في هدوء، وهو يوجِّه التحقيق ببراعة ودقة: «بقي أن نفحص هذا المظروف الكبير، الذي وجد ممزَّقاً، فقد كان يحتوي على ثمن بيع ضيعة «بيلفاد»، التي تقدّر مساحتها بعشرين فدّاناً، وكان الثمن مائة وعشرين ألفاً من الفرنكات، كلها بالعملة الورقية. وقد عددت المبلغ، قبل سفري، أمام رئيس الكتبة، الموجود الآن، والذي يشهد على ذلك». وهنا قال فيليپو: «تماماً يا سيدي».

وأضاف فرازن: «والمبلغ مسجّل على المظروف». وبفحص المظروف، وُجد أنه لا يحتوي إلاّ على عشرين ورقة من فئة الألف فرنك، فقال فرازن: «إذاً، فقد سرق مني مائة ألف فرنك».

وسأله رئيس الشرطة: «وكيف تفسّر عدم استيلاء السارق على كل المبلغ الذي كان في المظروف!؟ إنَّ اللصوص لا يقنعون، وليس من عادتهم أن يتطوّعوا بتحديد ما يسرقون!». فقال الموثِّق: «لسوف أوضح هذا الأمر للنيابة التي سأقدم إليها شكواي في الحال».

ـ هذا شأنك. أتراك تشك في أحد؟

ـ نعم.

فسأله رئيس الشرطة: «أتشك في خدمك». وأجاب فرازن: «لا، فلو أنهم ارتكبوا هذا العمل لهربوا. كما أنهم لا يستطيعون

معرفة أرقام قفل الخزانة السريّة». وإذ ذاك قال رئيس الشرطة: «حسن.. سأحرّر المحضر الآن!». ولكن فرازن قال: «أرجو أن تصحبني إلى المحكمة، فهي على بعد خطوتين من هنا». فقبل الضابط قائلاً «لك ما شئت».

وقصد الاثنان إلى المحكمة للتوّ، حيث دار بين الموثِّق ورئيس النيابة العامة حديث طويل، استأنفاه بعد انصراف رئيس الشرطة.. وبينما كان فرازن يهبط درجات السلم، التقى في نهايته بالسيد روكڤيار صاعداً إلى المحكمة.. وكانت الساعة قد بلغت الثانية عشرة وخمس عشرة دقيقة، وهو موعد بدء الجلسة.

وتبادل الرجلان النظرات، وحيّا كل منهما الآخر!

5 - وصمة العار

كان من عادة المحامين وموكِّليهم أن يتبادلوا الأحاديث في ردهة المحكمة، بضع دقائق، قبل أن يدخل المستشارون قاعة الجلسات. ففي تلك الردهة يتبادل الجميع أخبار المدينة. غير أن السيد روكڤيار ـ الذي كان محبوباً لحسن دعابته، ومرهوباً للذعات لسانه الحادة ـ بادر إلى إيداع معطفه في خزانة الثياب، ثم اتخذ له مكاناً في مقاعد المحامين. كان زملاؤه يرمقونه عن بعد في فضول خبيث، وهم يتهامسون عن مغامرة ابنه موريس، ويتداولونها في رفق وتساهل، فقد رأوا فيها رد فعل على التقاليد الصارمة السائدة في الأقاليم. وفيما كان السيد روكڤيار منهمكاً في إعداد مرافعته، اقترب حاجب من مقعده، ومسَّ كتفه قائلاً: «إنهم يريدونك في النيابة يا أستاذ!». فنهض لتوّه في اهتمام، وقال: «هأنذا ذاهب إليهم».

وكان من المعهود، في كل يوم، أن ينتهزالمدعي العام فرصة وجود أحد المحامين، في المحكمة، فيستدعيه لمسائل تتعلق ببعض القضايا الجنائية. ومع ذلك فإنَّ السيد روكڤيار لم يسلم من بعض القلق الذي أوحت به إليه مقابلته للسيد فرازن على سلم المحكمة.. فهمس لنفسه: «تُرى، هل تبلغ به الحماقة إلى الدرجة التي يرفع فيها دعوى الزّنى؟».. إنَّ الزنى جريمة في نظر القانون، الذي يترك للزوج وحده حق طلب القصاص في حالة حدوثه، وهو امتياز لا يلجأ إليه الزوج إلاّ فيما ندر. ولكن وجه فرازن كان ينم عن شر.

كان السيد «ڤاليروا» ـ المدعي العام ـ يرأس نيابة «شامبيري» منذ سنوات عديدة، تمكّن خلالها من أن يقدّر نزاهة السيد روكڤيار في مهنته، وخلقه، ومواهبه.. ومن الصحيح أنَّ هناك أقاويل عن احتمال ترشيح روكڤيار في الانتخابات التشريعية المقبلة، وعمّا قد تعانيه

السلطات من معارضة قوية نشطة إذا نجح في تلك الانتخابات.. ولكن اتهام السيد فرازن لابنه كان كفيلاً بأن يقضي قضاء مبرماً على هذا الخطر السياسي. ولمّا كان السيد «ڤاليروا» موظّفاً طموحاً، فإنه استقبل السيد روكڤيار في ترحاب حين أقبل على مكتبه، إذ لم يجل بخاطره ـ منذ وجد نفسه مضطرّاً إلى الحديث معه ـ سوى أن أمامه رجلاً شريفاً في محنة. فمد إليه يده، وبادره بالقول: «إنَّ واجبي يفرض عليَّ أن أواجهك في مهمة أليمة».. وتوقَّف عن الكلام متردِّداً، ولكن قوة المحامي المعنوية كانت تتبدّى في أجلى صورها في الظروف العصيبة، ولذلك فإنه شكر للمدعي العام لطفه، واتجه إلى الهدف مباشرة، إذ قال: «لعله أمر يتعلق بابني». فأجاب المدعي العام: «أجل».

ـ أتراها دعوى طلاق ذكر فيها اسمه أم هي دعوى زنى؟

ـ لا، مع الأسف!

ـ مع الأسف؟!

لم يكن لهذه العبارة سوى معنى واحد. لذلك سأل السيد روكڤيار في صوت حازم، ولكنه متحشرج: «هذا يوحي بأن ثمة حادثاً؟.. أهو انتحار؟».. فصاح السيد «ڤاليروا»، وقد فطن إلى الهواجس التي أثارها: «لا، لا.. اطمئن. فقد سافر ابنك مع السيدة فرازن، كما تعرف البلدة كلها. ولكن هناك ما هو أخطر من ذلك. فإنَّ السيد فرازن ـ الذي انصرف من مكتبي منذ قليل ـ قدّم إليَّ شكوى يتهمه فيها بسوء استغلال الثقة». واحتقن وجه المحامي الشيخ، رغم تمالكه نفسه، وهتف في إباء: «سوء استغلال الثقة؟ إنني أعرف ابني.. هذا مستحيل!».. فشرع المدعي العام في تلاوة الشكوى، التي وقعها الموثق ورفعها إليه مرفقة بمحضر المعاينة التي أجراها رئيس الشرطة. وأصغى إليه السيد روكڤيار بانتباه، دون

أن يقاطعه. كان الأمر كفيلاً بأن يقوِّض دعائم أسرته، وأن يلطخ اسمه. قال أخيراً، وهو رابط الجأش، وإن كان مطعون الفؤاد: «إنَّ السيد فرازن يثأر لنفسه بخسة!». فأجاب السيد «ڤاليروا»، الذي ترك عواطفه تظهر دون تحرُّج: «إنني أشاركك الرأي، ولكن النقود اختفت، فكيف توقف الدعوى العامة؟».

ـ إنَّ ابني ليس وحده في هذا الاتهام. وإذا هرب طفل في العشرين من عمره مع امرأة في الثلاثين، فأي الاثنين الذي يرسم الخطّة وينفذها؟!

ـ هذا ما صرّحت أنا به منذ لحظات، وفي هذا المكان بالذات، وبإصرار. لقدنصحتُ بالتعقّل، وطالبت بأربع وعشرين ساعة للتفكير في الأمر، ولكنني قوبلت بقرار رسمي، فلا بد للعدالة من أن تتخذ مجراها. إنني مضطر إلى إحالة الشكوى إلى قاضي التحقيق!

واستجمع المحامي السيد روكڤيار شجاعته إزاء ضربة القدر، ولاذ بالصمت، بينما راح المدعي العام يقلِّب المسألة على كل وجه دون أن يهتدي إلى مخرج. قال: «إنَّ هناك قرائن خطيرة، ودقيقة، ومطابقة للظروف: هناك أولاً التسهيلات التي يتيحها له مركزه في المكتب، ثم وجوده هناك ليلة أمس ـ ومعه المفاتيح ـ بعد انصراف الكتّاب الآخرين، وحاجته إلى المال لتنفيذ مغامرة الفرار الجريئة، ثم اهتمامه بأن يحدّد المبلغ المسروق بنفسه، وكأنه أراد أن يوحي بأنه سيسدِّده!». فأجاب الأب في اعتزاز: «وهناك في صفّه أدلة أخرى: هناك أسرته أولاً، فلا إنكار في أنها من سلالة عريقة شريفة!.. ثم من الذي قال لك إنه سافر دون مال؟.. لسوف يعود عندما تنفد نقوده، وأنا الكفيل بذلك!».

وقطع عليهما الحوار حاجب أقبل يدعو المحامي الذي كانت

هيئة المحكمة تنتظر مرافعته. فصرفه السيد روكڤيار بإيماءة وهو يقول: «لسوف ألحق بك». بينما استأنف السيد «ڤاليروا» حديثه قائلاً: «ولكن، كيف يتمكّن من الدفاع عن نفسه إذا قُبض عليه؟.. يجب أن تدرك جيّداً أنّ موقفه سيّئ، وأن الأدلة تتجمّع ضده.. ولكي يبرئ نفسه، لا بد له ـ على أحسن الفروض ـ من أن يتّهم سواه.. فهل يقبل هذا؟ ومع ذلك، فسوف يكون شريكاً.. وعلى أية حال، أنا أنصحه ـ إذا كنت تعرف مكانه ـ بأن يتريّث قبل أن يعود إلى فرنسا، وسأطالب بالتمهل في القبض عليه».. فهزَّ السيد روكڤيار رأسه بشدّة، وقال: «لا، لا.. إنّ الهرب بمثابة اعتراف. يجب أن يعود. وسأفتش عن أدلة تبرئه!».

وبعد أن استغرق في التفكير لحظات، قال: «أما وقد هزّ مصابنا مشاعرك، يا سيدي المدعي العام، فهل تأذن لي أن أسألك خدمة.. خدمة جليلة قد تنقذنا؟».. فسأله المدعي العام: «وما هي؟».. وهنا أجاب المحامي الشيخ: «اعرض على الأستاذ فرازن أن يسترد شكواه مقابل دفع المائة ألف فرنك».

ـ وهل ستدفعها أنت؟

ـ سأدفعها.

ـ حتى لو لم يكن ابنك مذنباً؟

ـ إنه في مأزق، كما قلت بنفسك، وشرفنا يساوي أكثر من هذا المبلغ.. كما أن المقاضاة تلطخ سمعته!

وإذ ذاك قال المدعي العام: «إن الأستاذ فرازن معروف بالتكالب على المادّة، ولعل شكواه لا تشكل ـ بالنسبة إليه ـ سوى وسيلة لزيادة موارده. فاعرض عليه نصف المبلغ». ولكن السيد روكڤيار قال: «لا.. لا مساومة: الدفع مقابل سحب الشكوى!». ورغبة في إراحة باله، والتملّص من الموقف، تراجع المدعي العام متستِّراً وراء

واجباته المهنية، فقال: «إنك على حق، وبودي أن أخدمك يا أستاذ، وقد ازددت رغبة في ذلك أمام تضحيتك. ولكن، هل ممّا يناسب مركزي أن أقدم على مسعى غير قانوني كهذا؟». فظهر التأثُّر على السيد روكڤيار وقال: «إنه غير قانوني حقّاً. ولكن الوقت ضيّق، ولسوف أذهب لأترافع أمام هيئة المحكمة، ولن تلبث الشكوى أن تذاع، وأنت وحدك الذي تعرفها حتى الان، وفي وسعك أن ترجئها.. إنني أتوسل إليك». على أن المدعي العام قال: «هذا مستحيل، فليس بوسعي أن أذهب إلى مقر أحد أصحاب الشكاوى». فقال المحامي الشيخ: «في وسعك أن تستدعيه إلى النيابة». وأجاب السيد ڤاليروا: «فليكن!.. إنَّ الوسيلة مكلفة، ولكنها أكيدة النتائج. سأقدم الاقتراح باسمي، حتى إذا قُدِّر أن يفشل، كنت أنت غير مقيَّد بعرض ينطوي على تسليم بالسرقة» فقال المحامي الشيخ: «شكراً».

*

وافترق الرجلان فاتّجه المحامي إلى قاعة الجلسة، وإذا المستشارون قد ملّوا الانتظار. وشرع في إبداء مرافعته، ببراعته المعتادة، فلم يحدس أحد ـ أمام حججه المنطقية المنسّقة ـ شيئاً عن الألم الذي كان يضنيه. ولكن «المجاهد» المسنّ ـ الذي لم يشعر يوماً بالتعب ـ أحس حين جلس بإرهاق شديد ثقيل ثقل الشيخوخة. وبعد مرافعة الخصم، وردّ موجز منه، أصبح حرّاً في أن ينصرف، فنظر إلى ساعته، وإذا بها تشير إلى الثالثة والنصف.. كان مصير ابنه معلّقاً على ساعات رفع الجلسة الثلاث. لذلك صعد إلى النيابة حيث كان السيد «ڤاليروا» في انتظاره. وأدرك لأول وهلة أن المدعي العام قد أخفق.. وما لبث هذا الأخير أن قال: «لقد جاء السيد فرازن.. وأرى أنك كنت على صواب، فهو ينتقم لنفسه»..

وسأله المحامي: «هل رفض؟». فأجاب المدعي العام: «رفضاً باتّاً!.. إنَّه يفضل حقده على ماله. حاولت عبثاً أن أضغط عليه بكل قوتي، فصوّرت له الفضيحة التي سيثيرها حول زوجته، بل وتحدثت عن نقص الأدلة، فكان جوابه أنه سيدّعي بالحق المدني أمام قاضي التحقيق إذا أنا لم أدع الشكوى تتخذ مجراها.. وهذا حقه، كما أن قراره حاسم!».

وسأل المحامي: «وماذا لو حاولت من جانبي أن أثنيه عن قراره؟.. لقد كنّا دائماً على علاقات طيبة». فأجاب السيد ڤاليروا: لن تكون زيارتك مجدية، بل ستكون مؤلمة، ومُدينة لابنك، ومن ثم فلست أنصحك بها. لقد حدّثته عن أسرتك، وعنك، فأجابني: «إنَّ ابنه انتزع قلبي. وماذا إذا دفع الأبرياء ثمن أخطاء المذنبين؟!». فأخلد السيد روكڤيار إلى التفكير برهة، ثم انصاع للنصح إذ تبيَّن صوابه، فاستأذن من المدعي العام، مادّاً إليه يده وهو يقول: «بقي عليَّ أن أشكرك، فقد عاملتني كصديق، ولن أنسى لك هذا». فأجاب السيد ڤاليروا متأثِّراً: «إنني أرثي لك يا صديقي!».

وعاد المحامي إلى داره وحافظته تحت إبطه. وكان من عادته دائماً أن يسير مسرعاً بخطًى وئيدة، رافعاً رأسه.. ولكن وجهه كان شديد الشحوب. وتحت القناطر ـ حيث اعتاد المتسكِّعون أن يأووا ـ مرَّ بأصدقاء أدبروا عنه، بينما كان المارة يرمقونه في استخفاف واستهزاء. وأدرك أن موظفي مكتب فرازن قد أشاعوا في البلدة نبأ عار آل روكڤيار.. آل روكڤيار؟!.. كانت هذه أول وصمة عار للسلالة منذ قرون. أفكانت سلالة مبغوضة إلى هذا الحد الذي يجعل الناس يتلقّون النبأ بمثل هذه الشماتة؟!.. إذاً، فما أحط الحسد الذي تثيره أمجاد اسم عريق!.. لقد حطّمت زلة أحد الأحفاد ماضياً حافلاً بالدأب والشرف، أنجب أعلاماً تُحتذى في

الرجولة سنوات طويلة!.. أفلا يفهم هؤلاء الشامتون أن هذا الانهيار يمسُّهم هم الآخرين؟!

وشدّ قامته، ثم خفّف من سرعته، ولم يقو أحد على أن يتصدّى لنظراته، وغالب الشعور بالذلة ـ إذ راح يواجه العاصفة ـ وهو يقول في نفسه: «انبحي من بعيد أيتها الكلاب ولكن حذار من الاقتراب، فلسوف أحمي أسرتي ما دمت حيّاً، وسأذود عنها بكل قواي، ولن تريني أتلوى من الألم قط!».

وصل ووجد عند بابه السيد «ديلا مورتيلليري»، جاره في الريف. أفتراه يتحمّل عبارات المواساة والعطف؟.. على أن هذا المعتوه أظهر له شعوراً إنسانيّاً يوافق حاله، إذ قال في لهجة ملتبسة، وهو يشير إلى الحصن الذي يسبح في الشفق: «عندما جاء الأمبراطور سيجيسمون ـ في سنة ١٤١٦ ـ أقام دوق «أميديه» الثامن مأدبة في القاعة الكبرى، نظمها «جان دو بيلفيل»، مبتكر حلوى «سافوا»، وكانت اللحوم ذهبية اللون، محلاّة بألوية ورايات تمثِّل أسلحة قوات الضيوف. وتلقّى كل ضيف النصيب المخصَّص له، مقسَّماً إلى أجزاء صغيرة متفاوتة الأحجام، تبعاً لمراكز المدعوين. إنني أحب هذه القسمة فلا ينبغي للمرء أن يأكل حسب شهيّته، وإنما حسب قيمته!». فرد السيد روكفيار وهو يغادر هذا المزعج: «إنَّ قطعة واحدة كانت كافية لي!».

لم يكن في وسع المحامي أن يخدع نفسه، فيستبدل بالحاضر ذكريات الماضي! واختفى في مدخل الدار، ثم ارتقى السلم، وبلغ غرفة المكتب، متحاشياً مخدع زوجته التي كانت تلازم الفراش دائماً. ولكنها أحسَّت به، فنادته على أمل أن يوافيها بأنباء ابنهما. ووجدها وحيدة، وقد جلست على سريرها، يخيم عليها ظلام المساء الزاحف. وتمتمت: «لقد خرجت مرغريت». ثم استجمعت

شجاعتها وسألته: «أما عرفت شيئاً عن موريس؟». فأجاب: «لا، لا شيء.. وسنبقى فترة طويلة دون أن نتلقى شيئاً، دون شك!».. فقالت المرأة المريضة: «ما أقسى لهجتك يا فرانسوا!.. لقد سحرته تلك المرأة، كما تعرف. يا له من طفل بائس!».. فقال: «إن الضعف نوع من الذنب!». وجزعت للصرامة التي تجلّت في نبراته، فأدارت زر الضوء الكهربائي، وإذا بها ترى زوجها وكأنما شاخ فجأة! فقد كان شاحباً، غائر العينين، إلى درجة أشعرتها بالخطر.

هتفت ضارعة: «هناك أشياء تخفيها عنّي يا فرانسوا. ألستُ كما عهدتني شريكة حياتك التي لا تكتم عنها سرّاً؟». فدنا من السرير وقال: «ولكن لا جديد هناك أيّتها العزيزة! أليس في فرار ابننا ما يكفي؟».. فشدّت قامتها، وبسطت ذراعيها، واستأنفت تضرُّعها: «أقرأ في نظرتك نذير خطر رهيب يتهدَّدنا. لا تخدعني كما فعلت في الليلة الماضية. تكلّم، فسوف أصبر وأتجلّد!».. فقال مشفقاً: «إنك تنفعلين دون ما سبب.. فلا أنباء هناك!».. فهتفت: «أقسم لك أنني سأتجلّد، فلا تخف!». ولكنه عاد يضرع إليها: «ڤالنتين.. هدئي من روعك!». فقالت: «انتظر.. لسوف تصدقني!». وضمَّت المرأة العجوز - التي أضناها المرض - راحتيها، وابتهلت إلى الله بصوت عال أن يمنحها القوة. وتألقت عيناها بلهب انعكس على الوجه الشاحب الهزيل الخالي من أي أمارة للحياة، فهتف زوجها: «رفقاً يا ڤالنتين!». فالتفتت إليه وكأنما تبدّل شكلها، وقالت: «الآن.. الآن، قل لي. إنَّ بوسعي أن أستمع. هل مات؟». فصاح: «أوّاه! كلاّ!».

لقد داخلها الشك ذاته الذي داخله!.. ولمّا كان مثلها شديد الإيمان، فقد أفضى إليها بالاتهام المروّع الذي أصابهم جميعاً. فصرخت في إباء: «هذا غير حقيقي. إنّ ابننا ليس لصّاً!».. وقال:

«لا، ولكن الناس جميعاً يرونه كذلك».. فأجابت: «وما قيمة ظنهم طالما أنه ليس لصّاً في الواقع!.. إنني أعرفه، وإني لواثقة منه». ولكن السيد روكڤيار لخص لها النكبة في عبارة قطعت كل شك: «إنَّه يصمنا بالعار!».. تلك كانت الجريمة التي حكم على ابنه بها، بوصفه رئيساً للأسرة، لا بوصفه متديِّناً يخشى عذاب ضميره فحسب.. جريمة ضد «السلالة» كلها!

وصاحت في خشوع وخوف: «يا رب.. لا تتخلّ عنا!». وما إن نطقت باسم الله - مناط الأمل الوحيد - حتى أقبلت مرغريت مغتمّة، تغالب همومها، ونظرت إلى أبيها وأمها، وقد جمع بينهما الألم، ثم انفجرت باكية كسيل تفجّر من وراء قنطرة! وأطلقت لدموعها العنان.. فضمّتها السيدة روكڤيار إلى صدرها قائلة: «تعالي!».. وسألها أبوها: «مَن الذي أساء إليك؟». فغالبت حزنها بجهد خارق، وقالت: «إنهم يشتموننا».. وعاد يسألها: «مَن؟». فأجابت: «إنني قادمة من منزل السيدة «بيرسي»، إذ كان ريمون هناك.. ولقد قالت لي: «إنَّ لك أخاً وسيماً». وساءني هذا، فنكست رأسي، ولكنها عادت تقول: «أتعرفين ما الذي يرويه موظفو مكتب فرازن؟».. وبقيت صامتة، بينما استطردت هي: «يقولون إنَّ أخاك لم يقنع بالمرأة وحدها».. وصاح ريمون بصوت خفيض: «أماه!».. أمّا أنا، فقد ظللت واقفة، وقلت: «أكملي كلامك يا سيدتي، فهذا واجب».. ووجدت من نفسها الجرأة على أن تقول: «لقد سطا على الخزانة».. وإذ ذاك قلت: «إنني أمنعك من أن تسيئي إلى أخي».. وتحوَّلت إلى خطيبي فقلت: «أما أنت يا سيدي.. أما أنت، يا مَن لا تعرف كيف تحميني في منزلك، فإني أحلك من وعدك!».. وحاول أن يستبقيني، ولكنني لم أنصت لرجائه.. وها أنذي قد عدت!».

وغمغمت أمها وهي تقبّلها: «يا صغيرتي العزيزة!».. وصرخ السيد روكڤيار فوق رأسي زوجته وابنته المتلاصقين: «آه!.. إنَّ الناس يحكمون مسبقاً دائماً دون أن ينتظروا دفاعاً!».. على أن مرغريت ما لبثت أن نسيت شقاءها الشخصي إزاء الشقاء المشترك، فنهضت ومشت نحو أبيها، وثبتت بصرها في بصره وقالت: «أنت يا من أثق فيه، أجبني: إنَّ هذا ليس صحيحاً.. أليس كذلك؟». فقالت أمها المريضة مؤكدة: «إنه كذب». وقال رب الأسرة: «آمل ذلك.. ولكن كل الأدلّة ضده، وهو معرض للإدانة».. فهتفت الابنة والأم معاً: «الإدانة؟».. فقال المحامي: «أجل، الإدانة!.. ونحن جميعاً معرَّضون لها معه.. فنحن نحمل الاسم ذاته، وننحدر من الماضي عينه، ونسير إلى المستقبل نفسه!».

وأشار بيده كأنه يحمي المرأتين المغرقتين في الدموع، ويهدِّد الهارب: «إنَّ لحظة ضعف كافية لأن تدمّر جهود أجيال متكاتفة.. أوّاه!.. ليته يقدِّر في فراره المشين - حيث هو الآن - مدى سوء خيانته: لقد فُصمت خطبة أخته، وتعرّض مستقبل أخيه للخطر، وصحة أمه للانهيار، وثروتنا للضياع، واسمنا للتلطخ، وشرفنا للتلوّث!.. هذا ما صنعه بنا، وهذا ما يُسمى الحب! ما قيمة أن يكون قد سرق مبلغاً من المال، وهو قد سلبنا كل شيء؟.. ما الذي تبقّى لنا اليوم؟».. فصاحت مرغريت: «أنت.. أنت الذي ستنقذه!».. وقالت السيدة روكڤيار التي رانت عليها - في ضيقها - مهابة غريبة: «الله!.. فكونا به مؤمنين!.. إنَّ أقدار الأُسر وفضائلها لا تضيع أبداً، بل هي تكفِّر عن زلاّت الآثمين!».

القسم الثاني

1 - الحنين إلى الوطن

لعلّ بحيرة «أورتا» أقلّ بحيرات منطقة «لومبرديا» الإيطالية اجتذاباً للزائرين، فهي تتضاءل بجانب شهرة بحيرة «ماجيوره» كما يتضاءل القارب في مرسى السفينة الكبيرة، ومن ثم يقنع المسافر بنظرة يلقيها عليها من القطار في غير اهتمام، ودون أن يُعنى بأن يعرِّج عليها!.. وهو يتأمّل المعالم الدقيقة للجبال المكسوّة بالغابات، التي تحيط بها، والوديان العميقة، التي تتناثر فيها القرى البيضاء متوارية في وسطها كما تتوارى قطعان الماشية بين الأعشاب. ثم يلمح الناظر في نظرة خاطفة تلاً تكتنفه الأشجار - التي تمتد على لسان من الأرض موغل في الماء - ومدينة مستلقية على الشاطئ، وجزيرة مكتظَّة بالأبنية. وفي انطلاق القطار السريع، يخال المسافر أنه يلمح ابتسامة تفترّ من هذه المناظر التي تكتنز وتصون سحر الطبيعة في «لومبرديا».. الطبيعة التي تجمع بين الجفاء والبهاء وتلفّ شواطئ البحيرة في رفق ولين، بينما تتجلى صفحة الأفق صافية، مشرقة، لا أثر فيها لذلك البخار الذي يشاهد في سماء سويسرا وسافوا الباهتة. فإذا هبط المساء بدت المناظر قاتمة على صفحة مشرقة. وتتكرّر تعرُّجات التلال المتناسقة، في أحجام أضخم، كلّما نظر المرء نحو الشمال بشكل يجعله يخال أن سهل «نوڤار» يمتد حتى يلتحم بجبال الألپ الشامخة الراسخة!

ولم تكن «أورتا نوڤاريز» قد استعدّت بعد لاستقبال الزوار، ومن ثم كان المرح غائباً عنها. وكان ثمة فندق واحد، على سفح الجبل المقدّس - «مون ساكريه» - يدعى فندق «بيلفيدير»، ويستقبل

الزائرين المعدودين من الربيع حتى بوادر الشتاء.. فقد كانت «أورتا» متوّجة بتل قام عليه عشرون هيكلاً صغيراً، انتشرت بين الأشجار، تصوّر حياة ومعجزات القديس «فرانسوا الأسيسي». على أن المرء لا يكف عن اكتشاف منازل ريفية بين الخضرة الممتدة على طول الشاطئ، يأوي إليها أغنياء الإقليم طلباً للراحة والاستجمام، فلا تكاد نوافذها تُرى مغلقة قط.. ويفوح دائماً من حدائقها ـ التي تبدو عليها مظاهر العناية ـ أريج الزهور التي يستنشقها المرء في غبطة، على النقيض من روائح موائد الفنادق التي تسمِّم جو «بالانزا» أو «پاڤينو»، فتفسد على الزائر استجمامه!

في فندق «بيلفيدير»، وفي شهر أيار/ مايو، نزلت السيدة فرازن وموريس روكڤيار، هاربين من المدن الكبرى التي قضيا فيها وقتاً سيِّئاً، فحملهما الهدوء ـ بعد الصخب ـ واعتدال الأسعار، على البقاء حتى نهاية تشرين الأول/ أكتوبر.. وما عتّم أن أقبل خريف رائع، في أعقاب صيف ولّى على عجل. ولولا قصر النهار، ودبيب البرودة في الجو، والاصفرار الذهبي الذي صبغ أوراق الشجر، لمّا ظن الإنسان، وهو ينظر إلى الشمس المشرقة، أن الشتاء وشيك الحلول!

وفي صباح يوم، جلس موريس في غرفة الاستقبال ـ المتّصلة بمخدعهما ـ منصرفاً إلى ترجمة كتيّب إيطالي يحمل عنوان «حياة القديسيْن جيوليو وجيليانو».. وهما قديسان أقبلا من بحر «إيجه» في القرن الرابع، فنشرا المسيحية في «أورتا». على أن فقرة مقتبسة من أحد مؤلفات «لامارتين»(*)، نشرت بنصها الفرنسي، شغلت الشاب أطول مما شغلته أكثر العبارات الإيطالية استعصاء. وأرسل

(*) ألفونس دو لامارتين (١٧٩٠ ـ ١٨٦٩) من مشاهير الشعراء الفرنسيين وزعيم الحركة الرومنطيقية.

بصره خلال النافذة، وقد شرد باله، وغفلت عيناه عن مجموعة الأشجار التي كانت تنتصب كالباقة عند طرف شبه الجزيرة، في بقعة تقع أسفل النافذة مباشرة.. وقد بدا الماء ساكناً، شفافاً، تتوسّطه جزيرة كانت ملتقى العشاق والمفاتن، وصفها الشاعر خلال سيرة القديسين بأنها كزهرة من زهور الكاميليا، فوق صفحة فضيَّة!

وما لبثت نظرات موريس التائهة أن بلغت قمم الجبال ـ التي حجبت الأفق ـ وكأنها تريد أن تتجاوزها لتلمَّ بما خلفها!.. وفيما كان مستغرقاً، ولج طيف أبيض إلى الغرفة، فانحنى فوق كتفه، وأطل على الكتيّب المفتوح. واستلفتت بصره العبارات الفرنسية، التي برزت بحروف واضحة بين السطور الإيطالية: «قال لامارتين: إنَّ مآل الطفل إلى البيت الذي ولد فيه.. فإنَّ نفسه تتألف في الغالب من المشاعر التي خبرها فيه. إنَّ النظرة التي تنبعث من عيني أمنا جزء من نفسنا، يتغلغل في أعماقنا خلال أعيننا!».

وأغلقت السيدة فرازن الكتاب بلطف، فإذا حبيبها ـ الذي لم يكن قد فطن إليها ـ يجفل من هذه الحركة. وتبادلا نظرة حافلة بتلك المشاعر التي لا يجسر العشاق على الإفضاء بها، ولا يتمالكون أن يفكِّروا فيها.. قالت تسأله في غير مبالاة: «في أي يوم من الشهر نحن؟». فأجاب وقد عاودته سكينته: «في الخامس والعشرين من أكتوبر». وفجأة عاودته الهواجس من ناحيتها، إذ إنها قالت: «لقد انقضى عام، فهل تذكر متى كنا على موعد فوق هضبة «كالفير دو ليمنك»؟.. هناك قررنا أن نهرب معاً.. ومع أنه لم يمض سوى عام واحد إلاّ أنَّ حبي لم يعد يكفيك».. فهتف معاتباً: «إديث!»، ولكنها عادت تكرّر: «لا، لم يعد يكفيك». وأضافت ببساطة، وعلى أساريرها ابتسامة حزينة: «انظر إلى نفسك.. إنَّك تنصرف

إلى العمل». فقال: «أليس من الواجب أن نفكر في المستقبل يا إديث؟». قالت: «لا، ليس من الواجب التفكير فيه الآن.. ما الذي ينقصنا؟».

وانتهز موريس فرصة السؤال ليقول: «لقد نفدت نقودي، ولا أستطيع أن أنسى أن نفقاتنا باتت تستمد من نقودك». وقطّب جبينه وقال في حرارة: «إنني أود أن يبقى صداقك دون أن يمسّ. ولقد سألت صديقاً لي، من رجال الصحافة في پاريس، أن يبحث لي عن مركز في الصحافة. أليس بوسعي أن أحرّر باباً مقتبساً من الصحف الأجنبية؟ لقد تعلمت الإنكليزية في المدرسة الثانوية، كما تعلمت الألمانية فيما بعد لأعد رسالتي للدكتوراه. ثم إنني أتكلم الإيطالية. وبالجمع بين هذه وبين عمل قضائي، نستعين معاً على الحياة».

وأصغت إليه وعلى وجهها ابتسامة خفيفة، ثم راحت تتحسَّس وجهه بالحب الذي كان يألفه منها، وقالت: «لنتكلم غداً عن المستقبل.. غداً وليس اليوم!». فسألها: «ولماذا نضيع يوماً؟ إن من واجبنا أن نحدّد فوراً موعداً لرحيلنا».. فهتفت: «رحيلنا؟».. وأجاب: «نعم.. إلى پاريس!». فلم تستطع إخفاء انزعاجها، وصاحت: «پاريس دائماً! إنك لا تكف عن الحديث عنها.. كأنها هاجس يطاردك!».. فأجاب في وجوم: «هناك أستطيع أن أكسب عيشي». فانسابت بين ذراعيه في لين وغنج، وسعت بشفتيها إلى شفتيه الحمراوين تحت شاربيه، وهي تغمغم: «لقد سألتك عاماً واحداً من حياتك.. عاماً أحياه بلا ماض ولا مستقبل، ننهل في كل يوم من أيامه من حبنا، وتنسى خلاله من أجلي بقية العالم. ترى، هل تذكر؟».. فأجاب: «أولم أمنحك أكثر مما طلبت؟».. فقالت في دلال: «لا يزال لي يوم.. فإن السنة تكتمل غداً».. وغمغم في ودّ: «غداً يا إديث!»، فقالت وهي ترتعش في مهب الذكريات: «لا

تفسد اليوم الذي بقي لنا. وبما أنه اليوم الأخير، فما أجدره بأن يكون أجمل أيام عامنا الذي انساب قطرة إثر قطرة. فلنؤجّل الحديث عن المستقبل حتى غد! أتعدني؟».. فابتسم في نشوة وقال: «أعدك!». وإذ ذاك قالت: «إذاً، فسأذهب لأرتدي ثيابي على عجل، ثم لنخرج فنتناول غداءنا في الجزيرة!».

*

خرجت من الغرفة، فحاول في غيابها أن يستأنف الترجمة، ولكن بصره وقع مرة أخرى على الفقرة الفرنسية المقتبسة من شعر لامارتين: «إن مآل الطفل إلى البيت الذي ولد فيه...». فتوقّف عن القراءة من جديد: لقد كانت إديث على حق، فإنَّ الحاضر لم يكن كافياً له، ولن يغنيه قط عن الماضي. لقد اتّفق الشريكان على إقصاء المستقبل عن ذهنيهما، ولكن الماضي.. الماضي الذي لم يجدا جرأة على الكلام عنه.. لقد كانت نظراتهما تغوص فيه، في الوقت الذي يظل لساناهما فيه أخرسيْن، حتى لقد غدا الصمت ـ بالنسبة إلى موريس ـ نوعاً من العذاب.. ترى ماذا «هم» يفعلون، في هذه الساعة، وراء الجبال المتقاربة.. «هم»، أولئك الذين لا يعرف أخبارهم؟!

وما لبثت إديث أن ظهرت عند مدخل الغرفة، فقالت تستعطي إعجابه: «أتراني جميلة في هذا الصباح؟». وكانت ترتدي ثوباً صيفيّاً من الحرير الأبيض ـ يشي بمفاتن قدّها، وإن لم يهصر عودها بضيقه! ـ وتعتمر قبعة يعلوها ريش أبيض أضفى عليها بهاء ورواء. لقد جدّد العام ـ الذي قضياه معاً ـ شبابها، وإن لم تعد عيناها المتأججتان ترسلان ضِراماً كعهدهما فيما مضى.. كما ازدادت استدارة خديها وقل شحوبهما. أمّا جسمها النحيل، فقد بدا أنه ازداد وزناً. وبوجه عام، شمل شخصها كله تبدّل نم عن ارتواء

بالحب!.. وتأمّلها موريس بإعجاب، دون أن يوجه إليها الإطراء الذي كانت تنتظره!

وقصدا ميناء «أورتا» عبر طريق شديدة الانحدار، رُصفت بقطع من البلاط المستدير، نمّت الأعشاب خلالها عن قلة من كانوا يسلكونها. واعترضت سبيلهما ـ في الميدان الممتد أمام الساحل الرملي الذي تجمّعت عنده القوارب ـ فتاة صغيرة يعلو شعرها القصير قلنسوة حمراء، كثيراً ما صادفها العاشقان في أثناء نزهاتهما، ما أوحى إليهما بأنها تقيم في مكان قريب. وحدّقت الفتاة إلى وجهيهما ـ ولا سيما وجه موريس ـ طويلاً، دون ما استحياء. حتى إذا تجاوزتهما، قال موريس: «إنها لطيفة!»، فندّت عن رفيقته زفرة أسى نمت في لحظة خاطفة عن حقيقة سنها، وقالت: «لا تنظر إليها، فإنني أغار!».. فراق له أن يداعبها لهذه الفورة العاطفية، قال: «تغارين؟!.. أوليس هذا من حقي أنا الآخر؟».. فسألته: «يا لله!.. وممّن؟». فأجاب: «من ذلك الإيطالي الأسمر ذي الشاربين، الذي يقيم في الفندق، والذي ينسى عشيقته ـ في أثناء الوجبات ـ ليحملق فيك بنظرات مأخوذة!».

وأغرقت المرأة في الضحك هاتفة: «لورنزو؟».. فصاح: «أراك تعرفين اسمه!». وإذ ذاك قالت: «لقد ذكره لي. لقد أفصح لي، بعينيه المحملقتين، عن عاطفة أثارت ضحكي!».. واصطنع موريس الضحك اصطناعاً. على أنهما لم يكادا يستقران في أحد القوارب، ويجذفان مبتعدين عن الشاطئ، حتى غشيهما من جديد ذلك الشعور بالقلق وعدم الاطمئنان.. كان الحاضر، الذي يرعيانه ويصونانه بكل حيلة وبراعة، والذي أقصيا كل الذكريات والاحتمالات حتى لا تشوبه شائبة.. كان هذا الحاضر يهتزّ من أساسه لأتفه حادث عارض! ترى أية أسوار يجب أن يُحاط بها هذا

الهوى لوقايته من الناس، ولمّا ينقض بعد عام واحد على مولده؟!.. كان هذا الحب ـ الذي ضحيا من أجله بكل شيء ـ محاصراً بضغط الحياة من كل جانب.. بل إنه كان محاصراً بقلبيهما الخافقين أيضاً، كتلك الجزيرة التي تبدَّت أمامهما محاصرة بالماء!

كانت المرأة أول مَن أحس بالأسى الذي هيمن عليهما، فنهضت عن مجلسها ودنت منه. وبدلاً من أن يسرّي عنها أساها، راح يروي لها أسطورةِ القديس «جول»، التي لم يكن فيها ما يهم أيّاً منهما!.. وراح يقول: «لقد كانت هذه الجزيرة فيما مضى بؤرة للأفاعي، فلمّا أراد القديس «جول» أن يذهب إلى «أورتا» رفض أصحاب قوارب الصيد أن يعيروه قارباً، فما كان منه إلاّ أن بسط معطفه على الماء، وجذف بعصاه..»، فقاطعته إديث بحنق: «يا لك من عالم!». ولكنه استطرد قائلاً: «إنني أواظب على قراءة هذه الأسطورة»، فصاحت: «لكم أكره كتابك!».. وأدرك السبب في كراهيتها الكتاب: ففي ذلك اليوم الأخير من العام الأول لهواهما.. في ذلك اليوم، كانت مشاعرهما من الإرهاف بحيث كان يجرحها كل شيء وتؤلمها كل كلمة.. حتى أكثر الكلمات براءة وسذاجة!

ورسيا بقاربهما عند سلّم يفضي إلى الشاطئ الآخر، فربطا القارب إلى حلقة حديدية مثبتة إلى البر لهذا الغرض، وولجا الكنيسة الرومانية العتيقة التي حَوَت تحفاً أثرية بيزنطية اكتشفت حديثاً تحت طبقة سميكة من الطلاء. كما كان هناك منبر من الرخام الأسود، وتابوت، ولوحات من نقش «فيراري»(*) و«لويني»(**). ولم يشعرا بمتعة وهما يستعرضان مناظر الماضي في الكنيسة، فما أجدر العشاق بمناظر دائمة الجدة والطرافة، لأنَّهم يخشون

(*) إتوري فيراري (١٨٤٨ ـ ١٩٢٩) نحات ونقاش إيطالي.

(**) برناردينو لويني (١٤٨٥ ـ ١٥٣٢) فنان إيطالي اشتهر بلوحاته التزيينية.

الأحاسيس الفاترة ويصدّونها بدافع من خوف غريزي. فضلاً عن أن هذين الحبيبين كانا يسلكان في الهوى درباً ضيِّقاً لا عهد لهما به، فلا غرابة في أن يخشيا أن ينتاب عواطفهما سأم أو فتور!

*

كانت قمة المرتفع الذي تتشكّل منه الجزيرة مشغولة بأكملها بمباني مدرسة للاهوت، تشبه الحصن في طرازها. ودار العاشقان مع انحناءة في الطريق الضيِّقة، فإذا هما قد انتقلا إلى بقعة معزولة تماماً، بين جدارين شاهقين، في جزيرة.. وبدا لهما أن ليس في العالم إذ ذاك سواهما!.. أوليست هذه أمنية العشّاق جميعاً؟.. لقد كانا يتوقان - في العام الماضي - إلى أن يقضيا بقية عمريهما في مثل هذه العزلة، فلما وجداها إذا بهما يفرّان منها معاً، متجهين إلى الشاطئ!.. وهناك، كان ثمة عجوز يصطاد السمك في غمرة من أشعة الشمس. وتحت ظلة - على مقربة منه - جلس طفلان حافيان يلهوان بقذف الأحجار إلى الماء، بينما بدت المنازل الريفية بين الأشجار الممتدة على طول الشاطئ، والتي أخذ الخريف يجرِّدها رويداً رويداً من أوراقها. وانعكست صورة «أورتا» على مياه البحيرة الهادئة، فإذا منظر الحياة الوادعة، في هدأة الظهيرة، يبعث ارتياحاً في نفسي العاشقيْن القلقيْن!

وتناولا طعام الغداء على درج السلم المؤدي إلى الهيكل. ثم قضيا فترة من الأصيل يطوفان بزورقهما في البحيرة، بحثاً عن مكان مجهول يبعث النشاط في أحاسيسهما، وما لبثا أن يمّما شطر الميناء، حتى إذا بارحا الزورق، راحا يفكران في طريقة يقضيان بها بعض الوقت. فقال موريس لإديث، حين بلغا الميدان الصغير: «ألا عدنا إلى الفندق».. فهتفت محتجة على هذا السجن الاختياري: «أوه، لا! لا تزال الشمس مرتفعة فوق الجبل، فلنسر متمهلين في

الطريق العامة».. وكانت الطريق ـ بعد المدينة الخالية من الأرصفة ـ تمتد بمحاذاة البحيرة، متدرّجة في الارتفاع، إلى أن تطوق «مون ساكريه» ـ الجبل الذي يشرف بأشجاره وكنائسه الصغيرة على شبه الجزيرة ـ وتمتد على طول أسوار «الڤيلات» التي ازدانت مداخلها بالنخيل وأشجار البرتقال. وحين بلغ العاشقان «ڤيلا» متواضعة تكاد تتداعى ـ كانا قد لمحاها من الطريق خلال بابها الذي ترك مفتوحاً ـ تنسَّمت إديث أريج ورود وأزهار، فأهابت بحبيبها: «انتظر.. إنَّ لهذه الأزهار شذى عطراً، وإنها لآخر أزهار الموسم». فقال: «لندخل، وسأطلب لك بعضاً منها!».

ودخلا، فإذا بهما في حديقة ضمّت مجموعة بديعة من الأعمدة المهشَّمة، والأبراج الصغيرة نصف المحطَّمة، وأروقة ناقصة، فكأنَّها صورة مصغرة لمدينة من مدن الفن غدت أنقاضاً.. ولكنها كانت حطاماً منتظماً، منسَّقاً، في شكل زخرفي. وفي وسط الأحجار المتناسقة المتراصَّة بنظام خفف من آثار الزمن الهدّامة، انتصب تمثال صغير من الرخام تحيط به شجيرات الورد.. تمثال «الحب» الذي استوى مبتسماً على قاعدة مرتفعة وقد شُدَّ قوسه أمامه. ولم تر «الشابة» سوى هذا «الحب» المحوط بالورود، فقالت: «إنه لفاتن، وكأني بنور النهار يعانقه!».. فقال موريس: «كأننا في سوق للتحف القديمة.. ولعلّنا في دار فنان يهوى العاديات الجنائزية.. فإنَّ الإيطاليين لا يحجمون عن الجمع بين الجمال والموت!».

واقترب منهما رجل في بداية الشيخوخة، يرتدي قميصاً أبيض، ويمسك في يده إزميل النحّاتين، فحيّاهما بإشارة تنم عن وقار يمتزج بالإكرام والنبل، وراح يتحدث بالإيطالية مع موريس، بينما انهمكت إديث في اقتطاف الأزهار بإذن منه، وما لبثت أن انضمت

إليهما وفي يدها باقة، وقالت: «ها هي ذي باقتي. سأمنح كلاً منكما وردة». فطفق رب البيت يشكرها ويعبِّر عن عرفانه بصنيعها، دون أن تفقه حرفاً. وإذ ذاك قام موريس بتعريفه إليها قائلاً: «السيد أنطونيو سيكاردي.. إنَّ السيد يقلِّد التحف الأثرية.. وإنها لمهنة جميلة!».. فتطلعت إديث إلى عشيقها متسائلة، وإذ ذاك قال: «سأوضح لك ذلك فيما بعد».

وفيما كانا منصرفين ـ بعد أن استأذنا مضيفهما ـ أخذت المرأة الشابة تتندّر هازئة بهذه المهنة غير المألوفة: «صانع تحف مقلَّدة؟!».. فقال موريس: «ولم لا؟.. إن هذه التحف تُستخدم في تزيين الحدائق. ولو أننا أقمنا بجوار المقاعد ـ في الحدائق الغنّاء ـ عموداً مهشَّماً، أو تمثالاً لإحدى الحوريات الخرافيات، أو حجراً ذا طابع خاص، لكان ذلك بديعاً جدّاً. إنني أعرف رجلاً فاضلاً ـ في الحي اللاتيني ـ كان يصنع خيوطاً كخيوط نسيج العنكبوت، توضع على زجاجات الخمر التي تقدم في السهرات أو المآدب الفخمة، لتوحي بأن الخمر معتّقة!

ـ وهل يربح من مهنته هذه كثيراً من المال؟

ـ أجل، كثيراً.

ـ هذا مستحيل!

ـ لقد روى لي أن جميع الأغنياء حديثي النعمة ـ وكم من أغنياء أثروا من التجارة وما إليها! ـ قد شغفوا بفنِّه، وأصبحوا يزيّنون المنازل الجديدة التي يشيدونها بتحف مقلَّدة!

ـ حسن، ولكن.. تمثال الحب. لماذا يقوم تمثال الحب وسط هذه الأطلال الزريَّة؟.. كان من الممكن الاكتفاء بالزهور!

قال موريس: «لقد سألت الرجل عن ذلك»، فسألته: «وبماذا أجابك؟». قال: «أجابني وقد ارتسمت على شفتيه ابتسامة غامضة،

كابتسامة الجوكندا(*)، أن من المؤكد أن «الحب يستمرئ العيش بين الخرائب والأنقاض!».

صاحت إديث: «عجيب هذا!.. فبينما نرى الإيطاليين ينحتون الرخام ليضعوا قطعاً منه في مقابرهم فيحيلوها إلى قاعات استقبال أنيقة، إذا بهم يختارون التحف التي تشير إلى الموت ليزيِّنوا بها حدائقهم!».

وراحا يصعدان في بطء جبل «مون ساكريه»، الذي كان يرتفع عن مستوى المدينة بحوالى مائة متر. فلمّا بلغا القمة، كان الليل قد أرخى سدوله فأضفى بهاء سحريّاً على غابات الصنوبر والشربين والكستناء والأرز، التي كانت تحتضن معابد القديس «فرانسوا الأسيزي» العشرين المتناثرة، والتي شُيِّدت بين القرنين السادس عشر والثامن عشر، على طرز متباينة منها المربعة ومنها المستديرة، ومنها ذات القباب، ومنها التي دون قباب، ومنها القوطية والرومانية، وأكثرها بيزنطية. وكان في مكان الهيكل ـ في كل معبد ـ منظر يمثِّل فترة من حياة القديس، تبدو في تمثال من الفخار بالحجم الطبيعي: فكأنه استعراض تاريخي صامت جامد. وممّا كان يكمل قداسة المكان، تماثيل لأطفال رفعوا أيديهم في ابتهال إلى السماء، أو إشعاعات رسمت بخيوط ذهبية توحي بوجود الله!

ولم يكن موريس وإديث يتركان يوماً يمر ـ منذ استقرارهما في «أورتا» ـ دون أن يقصدا إلى «مون ساكريه»، إذ لم يكن يبعد عن فندق «بيلفيدير» بأكثر من بضع خطوات. وقد اختارا المعبد الخامس عشر دون بقية المعابد، إذ كان يقال إنَّ الرسوم التي احتواها من صنع «ميكائيل أنجلو»(**). وكان هذا المعبد على

(*) أشهر لوحات العالم والفنان الإيطالي ليوناردو دافينتشي (١٤٥٢ ـ ١٥١٩). يقال إنها صورة موناليزا، امرأة من فلورنسا.

(**) مصوّر ونحات إيطالي (١٤٧٥ ـ ١٥٦٤).

شكل أسطواني، تعلوه قبة وبرج قائم على أعمدة صغيرة من الغرانيت، الأمر الذي كان يذكّرهما بكنيسة «كالڤير دو ليمنك»، حيث اتخذا قرار الرحيل. أمّا الأقواس ذات الأحدوداب الخفيف ـ التي كانت تنتصب على طول الردهة المرتفعة على مستوى الأرض ببضع درجات ـ فكانت كالإطارات، تبدو خلالها مناظر الغابة، أو المعابد الأخرى الجاثمة بين الخضرة أو فوهة إحدى الآبار، أو جزء من صفحة السماء، أو ركن من البحيرة، أو جزيرة القديس «جول» التي كانت، ببرجها القائم والمقدمة، أشبه بحصن كبير وسط البحيرة الصغيرة!

*

وكان بدهيّاً أن يتّجها إلى معبدهما المختار، فراحا يصعدان الدرب الموصل إليه، وقد بدت أشجار الأرز كأطياف سوداء على صفحة الأفق الضاربة إلى الحمرة. وهنا وهناك كانت المعابد البيضاء تختبئ تحت الأفنان، كأنها بيوت تفيض بالود والصداقة.. وأمسكت إديث ورودها بإحدى يديها، بينما أحاطت كتفي حبيبها باليد الأخرى، وتنهدت هامسة: «لقد كانت أمسية جميلة كهذه». فسألها: «أي ليلة».. وكان جوابها: «منذ عام.. أفتراك نادماً على شيء؟».. فقال وهو يشيح بوجهه: «لا». ولكنها عادت تسأله: «وهل لن تندم قط على شيء؟». فأجاب في شيء من الخشونة وقد ضاق بإلحاحها: «لا.. مطلقاً!».

ومالت بجذعها إلى الأمام لتسعى إلى شفتيه، وإذا بها ترى في عينيه نظرات بعيدة أثارت مخاوفها.. كان ذاك الذي قام بينهما، طوال هذا اليوم الأخير من العام الأول في غرامهما، يبدو واضحاً في عينيّ موريس!.. وعندها نطقت بما كانت الحكمة تصدّها عن قوله: «أين شامبيري يا موريس؟». فأجاب بسرعة وفي إيماءة

صدرت عن ثقة زادت من جزع المرأة: «هناك!».. إذاً، فقد كان يصوِّب نظراته ـ في أكثر الأحيان ـ نحو هذه الوجهة.. وإذاً فحبه لم ينسه شيئاً! وانهمرت الدموع من عيني المرأة. ولم يعن الشاب بسؤالها عن سبب بكائها، ولكنه حاول أن يسرّي عنها بأن عانقها متسائلاً: «لكم أحبك يا إديث!». فأرسلت أنّة أسى:

ـ أكثر من أي شيء؟

ـ أكثر من أي شيء!

ـ حتى الموت؟

ـ أجل.

ـ ألا يفوقه شيء؟

ـ مستحيل!

فهتفت في رغبة جامحة: «ولكنني لا أريد أن أموت.. إنما أريد أن أعيش، فهل ستحبني غداً إلى هذه الدرجة؟».. فسألها في دهشة: «ولماذا غداً؟». فقالت: «لأنني خائفة! ألا ترى معي أننا لن نستطيع أن نستمر على هذا النسق؟».. وإذ ذاك هتف موريس: «آه! هأنتذي تعترفين! لا، لن نستطيع المضيَّ في العيش على هذا النسق. فليس بوسعنا أن نتغلّب على المستقبل، والماضي، والناس!.. ولكنك كنت ترفضين الخوض في هذا الأمر!». فصاحت: «اسكت يا موريس.. صه!». ووضعت يدها على فمه، ثم عادت تقول ضارعة: «غداً.. غداً أعدك.. سأطيعك، ولك أن تقرر مصيرنا.. ولكن، غداً وليس الليلة.. هذه الليلة الأخيرة من حقي أنا!».. وحلّت شفتاها محل يدها على شفتيه!

ومضى النهار سريعاً. وأخذ الوهج الأحمر الذي كان يصبغ الجبال في الاضمحلال رويداً رويداً.. ورانت على مياه البحيرة غلالة رمادية كانت أشعة الشمس الغاربة تتخلّلها فتبعث فيها نفساً

من الحياة. وما لبث موريس أن هبط درجات المعبد، ومشى صوب الاتجاه الذي أشار إليه منذ لحظات، وكأنه سليب الإرادة لا يفطن إلى ما كان يفعل!.. ثم التفت فرأى حبيبته واقفة دون حراك، بين عمودين، وقد تجلّى قوامها الأبيض على الجدار الذي كان أقل بياضاً.. تماماً كما كانت تقف منذ عام على هضبة «كالڤير» تنتظره!.. وغُلب مرة أخرى على أمره، فغمغم: «ما أجملها!».. أمّا هي، فكانت تشم الورود وتتأمل المساء. وارتدّ ذهن موريس إلى الزيارة الغريبة التي قاما بها عند الأصيل، فقال لنفسه: «الحب ووروده!».. ثم صاح «إديث، ألست قادمة؟.. لقد أخذت البرودة تنتشر في الجو، وليس معك معطف!».

وفيما كانت في طريقها إليه، اتّجه ببصره نحو الأفق، وتصوّر بلده فهتف لنفسه: «إن الأطلال باقية هناك!».

ولكن، ألم يقل له أنطونيو سيكاردي فنان «أورتا» بابتسامته الغريبة إنّ «الحبَّ يستمرئ العيش بين الخرائب والأنقاض»؟!

2 - حقائق وأكاذيب

شاء موريس - في يوم عيد ميلاد حبهما الأول - أن يحمل شريكته على الرحيل.. فبعد أن تناولا غداءهما، اصطحبها إلى الطريق التي تفضي إلى «مون ساكريه»، والتي تتخلّلها شرفات صغيرة محوطة بسياج حجري، أقيمت لمن يستطيعون تأمل البحيرة من علٍ. وكانت الشمس لاهبة، ولكن المرء يستطيب في شهر تشرين الأول/ أكتوبر - أشعتها بدلاً من أن يتحاشاها.. ولم تنبس إديث ببنت شفة، سواء عن حزن أو عن شرود بال، ولكن ما لبث أن كان السباق إلى قطع حبل الصمت الذي أصبح يفرق بينهما بدلاً من أن يوحّد روحيهما!.. إذ قال: «كان لا بد من أن يأتي هذا اليوم يا إديث. لقد كنّا سعيدين هنا، ولكن هناك من ينتظرني في باريس. وستكون هذه بداية حياة جديدة».. وكان يأمل منها تشجيعاً وموافقة، فلمّا لم يتلق شيئاً، استطرد في ارتباك: «سنهيّئ لحبنا جوّاً عائليّاً، وسيكون لنا منزل خاص. ثم إنني سأعمل على تعديل وضعنا، والحصول لك على طلاق من زوجك، وهو ما لم تكوني ترغبين حتى الآن في أن أشغل نفسي به. لقد فصمنا جميع العرى دون أن ننظر إلى الوراء!».

وأرادت إديث أن تروغ من هذا القرار.. فقد كانت تخاف من مغادرة إيطاليا، ومن ثم تظاهرت بعدم الاهتمام بالمشروع إطلاقاً، وقالت: «ما أجمل الطقس في هذه الساعة! لقد كنت أشعر أمس ببرودة!». فجاراها في صبر قائلاً: «برودة!؟.. إن الهواء عليل، حتى ليخال المرء أن الوقت لمّا يزل بعد صيفاً!».. فعقبت قائلة: «ومع ذلك فقد حان الخريف. انظر!».. كانت ضفاف البحيرة - المرتفعة، الموشّاة - تترامى تحت أقدامهما، وقد ظهرت في مواجهتهما تضاريس الجبال ذات الانحرافات المتناسقة، بينما

انتصب هنا وهناك هيكل، أو قرية، أو برج يحدد معالم المناظر الطبيعية. أمّا الأشجار والغابات فقد تبدّل لونها في أيام معدودة، فلم تحتفظ بالخضرة الناضرة سوى أشجار الصنوبر التي كانت محوطة بغلالة ذهبية من الضياء..

ووقف العاشقان متّكئين على سياج إحدى الشرفات، وقد بثّ جمال المناظر ـ التي كانا يوشكان أن يفتقداها ـ شجًى كان يثير الألم في نفس إديث، كما جرى لها من قبل في «الساڤوا». وأخذت تستنشق عبير الخريف ـ الذي كان موشكاً على الرحيل ـ وقد اتسعت طاقتا منخريها، وتوتّرت أعصابها، وسرت في بدنها رعشة. أمّا موريس فلم يستطع أن يحوّل عينيه عن ذلك الوجه الذي لم يكد يذكر أنه رآه قط هادئاً، بل كان دوماً مفعماً بالعواطف، وكان يبدو وكأنَّ ثمة ناراً مستعرة تلتهم ما في نفس صاحبته، وتنعكس خلال العينين!.. لقد تجمّعت في صفحة ذلك الوجه الصغير بعض خطوط دقيقة رقيقة، تنم عن حركة الدم وهو ينساب في العروق تحت بشرة صفراء، وأريج ينبعث من شعر أسود، و.. جمال الدنيا بأسرها!.. واستطاع موريس أن يلمح ـ بنظرة ثاقبة واحدة ـ أثر العام الماضي في المرأة.. كان الشباب المستعاد، والحرية، واللهو، والمدن الغاصّة بالفنون ـ التي زاراها ـ قد ساعدت على ازدهار حسنها!.. كان قلبها يضطرم ـ عندما رحلا ـ بشهوات مستعرة، أمّا الآن فقد هدأت واكتملت في وقت واحد.. لم يحدث له قط أن قدّر سحر إغرائها كما قدّره حينذاك.. بل إنه كان يشعر بحزن مستعذب كلّما فكر في أنه قد يفقدها!

شعرت إديث بنظراته الملحاحة، فابتسمت وأشارت إلى الأفق بحركة واسعة من ذراعيها، وكأنها تحتويه بينهما، وقالت: «هذا أجمل ممّا أُتيح لنا في الأيام الأولى». فلم يتمالك أن يجهر بآخر

فكرة خطرت له: «وأنت أيضاً.. إنَّك أجمل ممّا كنت!». وعجبت لهذه التحية غير المرتقبة، فأجابت: «هل صحيح هذا؟». فقال: «أجل.. انظري إلى الأشجار!.. إنَّها أكثر رشاقة ممّا عهدناها، كأنها تخفَّفت من حمل لا نفع منه. ومن الممكن الآن التطلُّع خلال أفنانها إلى مسافات مديدة. وكذلك النظر إلى عينيك يقود إلى أغوار أعمق من ذي قبل».

ـ حتى أغوار قلبي؟!

ـ حتى أغوار قلبك!

وابتسمت وهي تستعرض كل ما يجهله أيُّ شاب عن قلب أي امرأة. ولمّا كانت لا ترتاب في مدى سلطانها عليه، فقد رأت أنَّ الفرصة مواتية كي تثير من ناحيتها أمراً كانت تنأى عن الخوض فيه منذ زمن بعيد. كان غرضها أن تتخفَّف من جميع الأكاذيب، وأن تشد عشيقها إليها برباط لا انفصام له، وذلك بأن تحمله على أن يقبل أن يشاطرها ذنباً يستحيل عليها أن تكتمه بعد الآن. فإنَّ قبوله جدير بأن يكون أعظم دليل على الحب الذي يصيبها من موريس. ولو أنها كانت في مكانه، لما أحجمت عن أن تمنحه ذلك الدليل. ولكن المرأة حرية بأن تكون على حذر من الرجال، إلى أبعد مدى، لأنَّ رأيهم في الشرف عجيب!

إنَّ حقها في أخذ ونقل مبلغ الصداق، الذي منحها إياه السيد فرازن، كان أمراً لا يحتمل أي شك في نظرها. فأية منحة هذه التي يملك المانح استبقاءها لديه؟ لقد ذهبت إلى درجة التحلّل من أي لوم قد يثيره ضميرها إزاء الطريقة التي استولت بها على المبلغ.. ففيم تهمها الطريقة؟ إنَّ النساء لا يفهمن جميع ما يتعارض مع مصالحهن فهماً كاملاً! لقد قيل لها إنَّ المال يخصُّها، فوجدت في هذا ما يكفيها!.. لم تشعر بأي حرج عندما سرقت زوجها.. فقد

كانت تكرهه، بل إنها لم تعتقد قط أنها سرقته، فهي لم تأخذ سوى المبلغ الذي كان من حقّها فقط، مع أنه كان في وسعها أن تستولي على أكثر منه. ثم إنها قدمت ـ من جانبها ـ شبابها وجمالها، ودفعت الثمن من حياتها، مبلّلاً بالدموع. أفيستطيع أحد أن يرد لها تلك السنوات التسع التي قضتها في نفور مكنون، وتقزّز متراكم متعاظم؟!

*

ومع كل ذلك، وفي اللحظة التي همّت فيها بأن تجهر بكل شيء، تولاّها نوع من التردُّد. وما لبثت أن قالت في أعذب صوت: «إذاً، فالسعادة تخلع على المرء جمالاً؟.. إن هذه أولى سني السعادة في حياتي، منذ طفولتي!.. آه! ليتك تعرف ماضي حياتي!». فهتف بها: «لطالما سألتك أن تحدثيني عنه يا إديث.. ارويه لي!.. ائتمنيني عليه!.. إنك لم تعودي تقوين على حفظ الأسرار!».. وكان ما روته قصة معدّة ومنقحة، ككل سيرة من السِيَر في التاريخ: طفولة سعيدة مدلّلة، في وسط راقٍ مترف، ثم إفلاس أبيها الذي ابتُلي بالميسر، وكان إفلاساً لم يحتمله، فقاده سريعاً إلى اليأس، والإفراط في الشراب، فالمرض، فالموت.. ثم الانزواء في الريف، مع أم واهنة القوى، حزينة. والثورة النفسية التي اجتاحت إديث على هذه الحياة الرتيبة.. وحمّى الشهوة المتأجّجة، تأكل قلب الفتاة الشابة التي ورثت عن أبيها تهوّره وإسرافه، والتي هوت إلى درجة الاضطرار إلى تدريس العزف على البيانو لأبناء القادرين من الجيران، وهي ترتقب بفارغ الصبر ذلك الحب الذي كانت تأمل في أن يجيئها بالحرية!

وقاطعها الشاب متمتماً: «تلك كانت حياة تعِسة». وظنت أنَّه يرثي لها، فابتسمت شاكرة. وإذ كانت مستغرقة في ذكرياتها، فإنها

لم تفطن إلى الانتباه الذي راح يبديه نحو كل صغيرة وكبيرة من حديثها.. وقالت: «تقريباً!». فسألها: «وهل كنت إذ ذاك جميلة؟». فأجابت: «لا أظن ذلك، فقد كنت نحيفة كجزع الكرم!». ولكنها كانت تعرف فتنتها، إذ أضافت في دلال: «.. الذي يُستخدم في إيقاد النار!».. وعادت تستأنف قصتها. فقد أخذ فرازن يلاحقها. وكان يثير اشمئزازها بعينيه الغائرتين، والعناد الذي استشعرته وراء ما كان يتظاهر به من هدوء وسكون. وثارت عليه، فقرّر أن يكون أول من يتقدَّم ـ من كل الذين كانوا يتقرَّبون إليها ـ لطلب يدها. وكان يمتلك ثروة طيِّبة، ومركزاً محترماً في باريس، وفي وسعه ـ لو أراد ـ أن يتخذ مكتباً للتوثيق في «غرينوبل» أو أي بلدة مجاورة.. وكان زواجها منه «زواج مصلحة» في أبشع صوره.. فقد كانت تكره الفقر، وكانت أمها ـ التي لم تستلطفه ـ تمقته هي الأخرى وتخشاه. فالمسنّون من الناس لا يشغلون بغير الحياة، أمّا الحب فلا يحرك فيهم ساكناً! وهكذا كانت الظروف العائلية تسد على الفتاة كل المنافذ..

واختتمت قصتها قائلة: «وهكذا.. بعت نفسي!». ولم يكن موريس قد قاطعها خلال كلامها، بل راح ينصت ودقات قلبه تتسارع كشخص ينحدر إلى هاوية. حتى إذا توقّفت عن الكلام، لفظ في جهد الكلمات التي كانت على طرف لسانه منذ لحظة: «وصداقك؟».. فأجابت: «مهلاً، فسوف تفهم كل شيء».. وكان ثمة نفر قليل من الناس قد خرجوا للتريُّض في الطريق المشمسة.. كما كان ثمة أطفال يلعبون في الغابة، بعيداً عنهما. وبذلك كانا وحيدين تقريباً. ولكن وجود الناس في تلك اللحظات الحرجة، التي كان العاشقان يجتازانها، والتي كانت المرأة قد أرجأت أوانها بلباقة حتى ذلك الوقت..كان وجود الناس ـ وإن لم يضايقهما في شيء ـ

قد حرم المرأة سلطانها الأكبر في الجدل.. سلطان القبلات! ولقد أدركت ـ إذ لم يكن في وسعها سوى أن تدرك ـ سرّ قلق حبيبها واهتمامه. وكم فكّرت في ذلك من قبل. كان هذا الموضوع مبعث عذاب لهما منذ وقت طويل، ولطالما حاولت استبعاده بجهود حثيثة، وبأكاذيب، وبإعراض عن الحديث في الماضي، فإنّ المحب لا يحسب للنتائج حساباً.. وكان كل ما يهمها هو أن تقصي ذلك الموضوع عن نطاق هنائها.. بل كانت في قرارة نفسها ترى أن التخلّص والتملّص من هذا الموضوع ضمان لديمومة ارتباطهما!

وبينا كانت تشحذ ذكاءها بحيوية، وكأنه سلاح تحاول أن تفرض به تسويغاً كانت تبغي ـ مخلصة، صادقة ـ أن يحسم الأمر، عاد موريس يقول بصوت مكبوت: «صداقك؟.. ألم يكن لك صداق؟». وفي اللهجة الآمرة ذاتها، التي أخذها عن أبيه، قال: «تكلمي.. يجب أن تتكلمي!.. هيّا!».. وحدجته مذهولة، مرتبكة، وقد داخلها نوع من الهلع. إنّ هذا الشاب الكبير، الذي بلغ من العمر خمساً وعشرين سنة، والذي كان جد لطيف ـ بل جد محبوب ـ والذي ظنّت أنه في قبضتها.. لكم تحوّل فجأة إلى سيد آمر. إذاً، فهي لم تكتشف بعد كل معالم القلب الذي استحوذت عليه!.. ودفعتها الغريزة إلى الإفضاء بأقل ما كان لديها من الحقيقة، حماية لحبهما، فقالت: «صداقي يا موريس؟.. إنه ملكي فعلاً!». ولكنه سأل في إلحاح: «ومن أين جاءك؟.. إنه لم يكن من أهلك إذاً؟.. آه، لقد فهمت!.. ألم يكن «هو» الذي نص عليه في عقد زواجك؟.. أجيبي!».

وحاولت أن تسترضيه بمجاراته، فقالت: «أجل، هو الذي منحني إياه. وماذا في هذا الأمر؟.. إنه ملكي!». وتمالك نفسه ـ

مراعاة لوجود المارّة ـ وقد استبدّ به ذعر يفوق ذاك الذي اعتراها. على أنه أراد أن يختتم استجوابها قائلاً: «لا، أيتها التعسة.. إنه ليس ملكك، فأنا خبير بهذه العقود. لقد كان منحة تتقاضينها إذا عشت بعد موت زوجك. هكذا هو، وإني لموقن من ذلك، فاستجمعي أفكارك، واحذري!».. فتجمّد كل كيانها إزاء هذا الإنذار الذي انساب من بين شفتيه الحبيبتين.. الشفتين الرقيقتين، الحمراوين!.. إنَّ الأمر لم يعد ـ بالنسبة إليها ـ سعياً إلى تحويل عشيقها إلى شريك في الذنب، ليكون ذلك أعظم ضمان لحبهما،وإنما أصبح الأمر يقتصر على إنقاذ هذا الحب! ولم تكن تملك سوى نبرات صوتها التي كانت تدرك مدى تأثيرها فيه.. ثم، ألم يكن ما اعتزمت أن تؤكده له هو الحقيقة بعينها؟

وصاحت: «لا تعاملني هكذا يا موريس، فأنت مخطئ. إنَّ صداقي ملك لي، إذ آل إليَّ مباشرة، بفعل إصرار أحد أصدقاء أبي. فهل تريد دليلاً؟.. لقد كنت أُعطي أمي ـ في أثناء وجودها على قيد الحياة ـ ريعه، وكان لي الحق في سحبه. أفرأيت خطأك؟.. لا تعاملني بهذا الشكل!». وأخذ الموظف السابق بمكتب فرازن يستعيد ـ في غمرة الارتباك ـ كل معلوماته في القانون، باحثاً عن سند، ثم قال: «إنَّها منحة، على أي حال.. منحة منه.. والمنحة عرضة للإلغاء في حالة الطلاق». ولكنها راحت تؤكد له في حرارة: «لم يكن صداقي من هذا النوع.. أقسم لك!». فقال: «حاولي أن تفكري بدقة يا إديث، فالأمر خطير إلى درجة تجعل حياتي مهدَّدة». فهتفت: «حياتك؟».. وكان جوابه: «نعم.. أو شرفي. وهما سيّان! أكنت تستغلين بنفسك هذا الصداق، وتستولين على ريعه؟». فأجابت: «هٰكذا كنت أفعل».

ومن خلال حديثه اهتدت إلى الطريقة التي يجدر بها أن تتبعها

في الإجابة، فأقبلت على الكذب في نهم. لقد كان من المتفق عليه، فعلاً، أنَّ المائة ألف فرنك - التي منحها إياها السيد فرازن - ملك لها، ولكن استثمارها كان بإشراف الزوج.. ولم تكن لتبقى بعد دعوى الطلاق! وفي كل الأحوال، لم تكن للسيدة فرازن الحرية في التصرف فيها، ولا في استثمارها، ولا في أن تسحبها وحدها. ولكن، ما الذي يهم من كل هذه الحجج؟.. على أنَّ موريس ظل سادراً في أسئلته، وكأنه قاضٍ من قضاة التحقيق.. فقال: «أين كان ذلك الصداق مودعاً؟». فأجابت: «في مصرف «يونيڤرسال»، على شكل سندات عملت على تحويلها كما سبق أن رويت لك. فدعني وأسئلتك!».. ولكنه مضى في تساؤله: «هل كانت مودعة باسمك؟». وأجابت في إصرار: «باسمي».. فسألها: «أمن هذا المصرف ذاته سحبت المبلغ قبل سفرنا؟».. وكان جوابها: «من هناك».. وعاد يسأل: «هل كان بوسعك أن تسحبي من فرع «شامبيري» هذا المبلغ بتوقيعك وحدك؟».. وأكدت له ذلك، فقال: «إذاً، فقد تزوجت على أساس انفصال ممتلكات الزوجين؟». وكان جوابها في هذه المرة أيضاً: «هو ذلك!».

*

كان موريس قد سألها مراراً وتكراراً في هذا الصدد - منذ باحت له بحبها، ثم منذ فرارهما - مستفسراً عن مصدر ثروتها الشخصية، فكانت تلقي في روعه أنها ميراث عائلي. فلمّا ابتكرت خرافة المصرف - وقد توهّمت أنها لا توقظ بذلك شكوك الشاب - حرصت جاهدة على التشبّث بها.. وكانت إجاباتها الدقيقة، السريعة، تطابق إيضاحاتها السابقة، وجديرة بأن تلقى في مجموعها تصديقاً. فلم يكن من البعيد عن الصدق أن مستشارالأسرة - «دانيماري» - قد تدخّل قبل توقيع العقد، مستغلاً

حب السيد فرازن، للحصول على هبة مباشرة، مطلقة، نهائية، بغية ضمان مستقبل الفتاة، وليكفل لها ـ في ذلك الحين ـ مزيداً من الاستقلال والكرامة.

إذاً، لماذا ارتاب موريس في مثل هذه الحقائق؟.. ألم تقض هذه الحقائق على هنائه بما فيه الكفاية؟.. لقد كان شططاً منه أن خضع لمثل هذه الغواية التي أفاق الآن منها ثائراً، وإن قبل ـ في رضى معيب! ـ أن يؤخّر السعي للحصول على عمل، حتى انقضاء هذا العام من عمر حبه. على أنه لم يكن يظن لحظة واحدة أن ثروة إديث ـ التي كان يتوق إلى عمل كي يتم نقصها ـ نبتت من ذلك الأصل المسمَّم!.. ولكن، ها هو ذا الأصل يتكشَّف له، ليحطم عزة نفسه، وليهدم فيه كل احترام لها!.. وحتى إذا كانت هذه الثروة حقّاً خالصاً لحبيبته، إلاَّ أنها جاءت في الواقع من رجل هدم هو حياته العائلية. ومن ثم فإنَّ أتفه قدر تسرَّب منها إلى حياته إنما يعتبر خزياً لا يقوى على تحمُّله، أيّاً يكن الثمن!

أخذ ـ في حيرته ـ يحسب الرقم الذي بلغه دينه، ثم سألها: «إن نقودك مودعة في المصرف الدولي بميلان. فهل تعرفين كم نقصت؟».. فأجابت إديث: «إنما أنت الذي تتولاّها». فقال: «لقد بلغ النقص ثمانية آلاف فرنك تقريباً».. وإذ ذاك قالت في لطف، متظاهرة بالاحتجاج: «إذاً، فنحن لم نبذّر كثيراً». والواقع أن هذا المبلغ، إلى جانب ما كان يحمله هو، كان قليلاً بالنسبة إلى نفقات عام كامل انقضى في رحلات وأسفار. ولكن الحياة كانت رخيصة في «أورتا» ـ حيث قضيا ستة أشهر ـ كما أن الملاهي كانت قليلة، وزهيدة النفقات. ولقد ارتدّت إديث ـ بعد فترة قصيرة من التبذير ـ فباتت تؤثر البساطة والاعتدال، وتقنع بالقليل من النفقات.. مكتفية بالحب!

تُرى كيف، ومن أين، يحصل على هذه الثمانية الآلاف فرنك؟.. لسوف يرى نفسه مجرَّداً من الكرامة والشرف ما لم يردها، ولسوف تصبح الحياة عبئاً يثقل كاهله. وأخذ موريس يوسع صاحبته قسوة، نتيجة ما داخله من شعور عميق بالضعة: «هذا حسن.. إنني مدين لك، وسأوفي الدين، ثم ننظر في الأمر بعد ذلك!». فتنهّدت وقد وهنت قواها، وخبت عزيمتها، وغلبت على أمرها، وقالت: «أي حديث هذا الذي يدور بين حبيبين.. وفي عيدنا الأول؟». وأخفت وجهها في راحتيها، فسار إليها ـ وهو أشد منها تعاسة ـ وحاول أن يقصي راحتيها عن وجهها قائلاً: «اسمعي يا إديث.. إنني لا أتهمك أنت بالذات. فنحن نعيش معاً كما لو كنا زوجين، ومن ثم فلست أفكر إلاّ في حبّنا. لقد أخطأت.. إنني لا أزال شاباً غرّاً صغير السن!». فأسلمته يديها دون أن تخشى أن يرى عينيها المغرورقتين بالدموع، وقالت: «أولست أتقبّل كل شيء منك بالشكر والعرفان؟». فقال: «ولقد كنت أود أن تكون هذه حالي.. ولكن، أن يكون ما تقبّلته «منك» أنت، وليس منه «هو»!.. لقد ثأر لنفسه، وإذا كنت قد قوّضت بيته، فإنه قد طعن هنائي».. فتساءلت: «هل تراني أفكر فيه؟».. ولكنه استطرد في أسى وإصرار أليم: «لقد كنا نعيش في غير بلبال ولا شاغل. ولكن هذا العهد قد انتهى!».

وكان في لهجته من اليأس ما حملها على أن تلقي بنفسها بين ذراعيه هاتفة: «اصمت!».. وأرادت أن تجره إلى خارج الشرفة التي تركا فيها ثقتهما تتلاشى وتتبدّد، فقالت: «تعال إلى الغابة يا موريس.. تعال اجلس في الظل، خلف معبدنا، فهناك نكون في خلوة، ويخف شقاؤنا!». فقرّر في التو أن يستجيب لها، وقال: «أجل.. لننصرف من هنا!». وكانت الأشعة تتخلل أشجار الصنوبر، راسمة هالات مضيئة حول أوراقها الذابلة المتساقطة على

الأرض، فبدت هذه الهالات على الطريق الظليلة وكأنها بقع رخوة يجب تخطيها. ودارا حول المعبد، ثم اختارت إديث ركناً ظليلاً منعزلاً، حملت حبيبها على الجلوس فيه، ثم احتوت وجهه بين راحتيها وأغرقته بالقبل. وبدا الشاب مستسلماً لغزلها في البداية، ولكنه ما لبث أن دفعها عنه فجأة، وصاح: «لا، دعيني!.. انصرفي.. إن إرادتي تتلاشى عندما تلاصق شفتاك شفتي. إنني لم أعد شيئاً مذكوراً.. لم أعد أكثر من قلب ينبض بين جوانح ميتة!».

ـ إنني أحبك.

ـ وأنا أحبك أيضاً!

واستوى منتصباً على قدميه، كمن ذهب عقله،وأومأ إلى البحيرة التي كانت تتألق خلال الأفنان، فارتعدت أوصال إديث ـ إذ أدركت ما كان يرمي إليه ـ وهتفت: «ولكنني أحبك أكثر من ذي قبل، ما عليك إلاّ أن تأمر فأطيعك وأصغي إليك».

ـ أتأتين معي؟

ـ وإلى أين تقودني؟

فقال مومئاً نحو البحيرة: «هناك!». فانكمشت بحركة غريزية وهتفت: «اسكت!».. وكما أقنعته بالرحيل، على هضبة «كالڤير دو ليمنك»، أخذ هو ـ في هذه المرة ـ يحاول إقناعها: «تعالي، فإن العام الأول في هوانا قد ولّى! تعالي، فإنَّ حبنا قد مات، ولن يفتقدنا أحد. إنَّ الماء ليس قارساً، ولننزلق إليه من أحد القوارب! لقد غدوت مجرَّداً من الشرف، فهل تجيئين معي؟». وأمسكت إديث بذراعه بقوة، وصرخت مذعورة: «لا، لا، لا.. إنني أحبك، وإذا أحب الإنسان فإنه لا يرغب في الموت. إنَّ الإنسان إذا أحب لا يتورع عن الكذب، والسرقة، والقتل، ولكنه لا يرغب في الموت! والعشاق الذين ينتحرون لا يحبون غرامهم!».. وتخلص موريس

من قبضتها، دون أن يشفق من أن يجرح شعورها، وصاح: «دعيني.. لا تلمسيني!».. وانطلق هارباً. وبسرعته ذاتها، هرعت المرأة في أثره.. وكف الأولاد عن لعبهم في الغابة، لينصرفوا إلى متابعة السباق!

على أن موريس كان قد ابتعد عنها، فلم يعد في وسعها اللحاق به. واتّجه لفوره إلى فناء «بوتشيوني»، وهو موقع كان قد اكتشفه في نزهاته مع إديث، يقوم فيه برج مربع عالٍ، هو الطلل الباقي من قصر قديم، وقد حفّت به جدران مهدّمة، تخلّلتها الأعشاب والنباتات الطفيليّة المتسلّقة.. وكان يقع في الطرف الأقصى لبحيرة «أورتا»، على تل اكتسى بأشجار الكستناء، وأطلّ على مساحة شاسعة تنتهي في الجنوب عند «نوڤار»، وهي مدينة بديعة تقوم في نهاية سهل، يليه جبل «مون روز» الذي تشرف قمته النائية على سهول أخرى تحف بها جبال بدت ثلوجها ساطعة تحت أشعة الشمس. وكان المكان قفراً، لا نظير له في البطاح المجاورة، من حيث انبساط الطبيعة وتجلّيها أمامه. وكان موريس يكثر من التردّد إليه، عندما كانت صاحبته تتركه لنفسه بضع ساعات، وقد برّح بها التعب.. وهناك، كان يحلو له أن يسرح البصر صوب بلده، وهو يستشعر وطأة الغربة عنه!

ومكث موريس في تلك البقعة طويلاً، وهو ينكأ جراح نفسه ويحيي مواتها.. ترى، لماذا لم يداخله في تلك الساعة سوى الشعور بالشقاء، رغم ما كان ينبغي أن يغمر شبابه من عواطف جيّاشة؟.. لا بد إذاً أنَّ هناك شيئاً آخر غير الحب.. شيئاً بلغ من سلطانه أنّه كان من القوة بحيث نزل بالحب إلى المرتبة الثانية ـ وإن لم يستطع القضاء عليه ـ فأفسد بذلك ما كان في الحب من ضروب السعادة!.. إنَّ الحب لم يكن يشغل الحياة بأسرها قط، بل إنَّه لم يقوَ

يوماً على أن يعيش في عزلة،منفصلاً عن مقومات الحياة الأخرى.. وهو إن ترك وشأنه لم يعد سوى قوة جامحة هدامة! وهكذا ثبت في نفس موريس أن حبَّه قد أوقع ـ ولا بدَّ ـ كارثة حلّت بمن كانوا في المقلب الآخر، خلف تلك الجبال التي كانت تحجب الأفق.. فهل في وسعه أن يلقي التبعة على الظروف وحدها؟.. لا! إنه لو استعاد الماضي، في صراحة، لوجد أن هذا الماضي يدينه. لقد تكشَّفت له نفسه، فرأى أنه مسؤول عمّا بدر منه من طيش وضعف: مسؤول عن قبوله الرحيل مع تلك المرأة، في حين أنه كان قميناً بأن يدرك أنَّ موارده لن تلبث أن تنفد قبل مضي وقت طويل.. مسؤول عن التسويغات التي أدلت بها إديث إليه دون أن يطالبها بدليل واحد عليها، مع أنه كان من السهل عليه أن يلمس ضعف حجتها.. مسؤول عن خضوعه لغوايتها، وموافقته على الاستمتاع معها بالحاضر، دون أن يربط بين هذا الحاضر وبين أي ماضٍ أو مستقبل.. ومسؤول كذلك عن استسلامه لضراعاتها عندما ألحّت عليه في أن يمنحها من حياته عاماً يقضيه في نسيان.. عاماً يقضيه في هناء.. عاماً يقضيه في كسل وحقارة!

وتبيَّن له أنه إذا أراد الإبقاء على شرفه، فلن يتسنّى له الإنقاذ إلاّ على أيدي أسرته.. فقد رأى أنه من دونها ضائع، لأنه لن يستطيع ـ وقد لا يستطيع لأمد طويل ـ أن يسدِّد تلك النقود التي لم يكن راغباً في إنفاقها. ولم يساوره شك في أنّ الأسرة ستخفّ إلى نجدته لو أنه استنجد بها، إذ كيف تتلكأ عن ذلك؟ أليست متضامنة معه في عاره؟ لو أنها كانت متضامنة في عاره فهو إذاً مطالب تجاهها بالتزامات هرب منها. لقد كان الابن المفضَّل في أسرته منذ مولده، وقد ارتبط إزاءها بالتزامات أهملها، فحكمها إذاً حكم العقد المفسوخ! هذه الأسرة التي ندين لها بالعون في أوقات المحن، وفي الخطر.. بأي

حق نسيها في انطلاقه وراء سعادة أنانية اتّحدت تبعاتها كلها ضده؟ لقد فرقت كبرياؤه بينه وبين أبيه، ولكن أمه جديرة بأن تكون موضع ثقته، فليطلب منها المبلغ اللازم لتحريره.. فإنَّ هذا المبلغ هو كل ما ينبغي أن يحصل عليه في الحال، حتى يسترد كرامته وشرفه في نظر نفسه، قبل كل شيء!

وما إن عقد النية على هذا الأمر حتى عاد إلى الفندق فكتب إلى السيدة روكفيار. ولم يكد يتم الخطاب ويسلمه إلى مكتب البريد، حتى عادت إديث. ولمحها في نهاية الردهة، فدُهش إذ رآها بهذه السرعة ولمّا تمض إلاّ ساعات قليلة على ابتعاده عنها. لقد ظلت ـ منذ عام ـ تشغل كل أيامه، وكل خفقة من خفقات قلبه، فهل تراها وجدت نفسها مجردة من هذا السلطان، بهذه السرعة؟

أمّا هي، فقد توقّفت حين وقع بصرها عليه، وقد انعقد لسانها، ثم هرعت إليه فألقت بنفسها بين ذراعيه هاتفة: «أهذا أنت؟ أهذا أنت؟».. فأجاب في حنان مؤثر: «يا حبيبتي.. يا عزيزتي!».. وقالت: «إذاً فأنت هنا.. ما أسعدني بك!». وأشارت إلى البحيرة في ذعر، لتوضح له عما جال بخاطرها، وقالت: «لقد جئت من هناك.. سرت على طول الشاطئ الرملي.. لنجلس.. ألا تريد؟ لم تعد ساقاي تقويان على حملي.. لكم استبد بي الخوف».

ولم تكفّ عن التحديق إليه، فوجد في مرآها الفتنة القديمة. وكان الخريف يلفهما بإغراء لطيف، فوقف الحب منتصراً على الأطلال!.. وأقبلا على ارتشاف هناء كانا يعلمان أنه منقاد إلى الفناء!

*

منذ ذلك الحين لم يعودا يتحدّثان عن الماضي. وكان موريس، من ناحيته، ينتظر ردّاً على خطابه. أمّا إديث، فلم تجرؤ على سؤاله،

وإنما راحت تضاعف من فتنتها كي تروق له. على أنَّ هذه الفتنة ذاتها كانت قد تغيَّرت، فلم يعد فيها إثارة ولا اتّقاد دائم، إذ إنَّ خوفها من فقدان حبيبها جعلها خاضعة خانعة، تذوب ضعفاً وحناناً. وكانت تسعى لاجتذابه إلى الحديث، وتجهد في البحث عن الموضوعات التي تلذّ له قراءتها، وتعزف له المقطوعات الموسيقية التي يفضِّلها. في حين أنه لم يعد يعاملها إلاّ في ترفُّق. وكان كل منهما ينعم بهذا الوئام الهنيء المتجدِّد، ولكن.. في شيء من الضيق، إذ إنّ وجودهما معاً بات خلواً من السعادة، ومن الثقة، ومن الاطمئنان!

وكان ثاني أيام شهر تشرين الثاني/ نوڤمبر قاسياً عليهما أكثر من سواه. فقد شاء موريس أن يخرج للنزهة وحيداً، كي يستعيد ذكريات أسرته في ذلك اليوم الذي كان يحتفل فيه بإحياء ذكرى الأموات. ولكنَّ إديث توسَّلت إليه أن يصطحبها معه، فقبل في غير ابتهاج، وذهب ينتظرها عند «مون ساكريه» ريثما تستكمل زينتها وتلحق به. وسألته حين وافته: «إلى أين نذهب؟»، فأجاب: «إلى المقابر، كما يفعل كل الناس اليوم». وكان عليهما أن يجتازا ـ في طريقهما إلى المقابر ـ حقلاً قفراً غير مزروع، كان فيما مضى جزءاً من مقبرة «أورتا» ثم أُزيلت منه الأضرحة، وفُصل عنها. وكانت المقبرة تضم قبوراً غير ظاهرة، ولا يعرف أصحابها، إذ لم يكن ثمة ما يبرزها للنظر: فلا أسماء، ولا صلبان، ولا ارتفاع فوق مستوى الأرض. ولمّا كان ذلك اليوم هو يوم عيد جميع القديسين، فقد نثرت أيدٍ مجهولة باقات البنفسج هنا وهناك، فحوَّلت القفر إلى حديقة غنّاء!

ووقفت إديث وموريس في ذلك المكان المنعزل الذي أحاطت به أشجار الكستناء، وقد بدت أوراقها معلَّقة في الهواء، تكفي لفحة

من نسيم لإقصائها عن الأغصان. وهبَّت مع اقتراب الليل نسمة عليلة، فتساقطت بعض هذه الأوراق، وراحت تدور حول نفسها في الهواء، ثم استقرّت إحداها على قبعة المرأة الشابة.. وأثار مشاعر موريس ـ في ذلك اليوم المفعم بالانفعالات الجيّاشة ـ أن رأى هذا الرمز الحزين فوق ذلك الوجه الحارّ البشرة، ذي العينين اللتين تشعّان لهيباً.. وفوق ذلك القوام الذي كان ـ رغم وقوفه دون حراك ـ ينضح بحرارة الحياة!

وإذ طال صمته، أشارت إديث إلى الزهور وقالت: «ما أجمل الزهر!».. وراح عقلاهما يحومان حول الموت الذي غطاه الزهر. وأفاق العاشقان إلى روحيهما على مهل، فتأمّلا الأشجار التي كانت تنتصب في صف حجبهما عن العيون، ثم اقترب كل منهما نحو الآخر.. وتعانقا.. فوق القبور!

3 - المظروف الأصفر

استُدعي موريس - في صباح اليوم الثاني بعد تلك النزهة - إلى مكتب الفندق، وقيل له: «إنَّ ساعي البريد يطلبك، بشأن خطاب مضمون مسجَّل».. وعرف موريس المظروف إذ كان من المظروفات الصفراء التي يستعملها أبوه، فأسرع إلى فض الأختام، بينما كانت مديرة الفندق تتأمله في دهشة، بعد أن قرأت بيانات التسجيل. وكان الخطاب المجلَّل بالسواد يحتوي على ورقة مالية من أوراق المائة فرنك، وإذن مصرفي قيمته ثمانية آلاف فرنك، على المصرف الدولي في «ميلان»، بتوقيع أخته «مرغريت». وهتف الشاب لنفسه: «الآن أصبح سيد نفسي!».. كان الاعتزاز بالنفس هو أول ما خامره بعد الهوان. وحين اطمأن، فطن إلى حافة الخطاب المجلَّلة بالسواد، فانقبض قلبه. لقد وقع حادث سيئ هناك في أثناء غيابه. والمرء في ريعان الشباب - وبعد هذه الفترة أحياناً - لا يتصوّر قط احتمال فقدان أولئك الذين يحبهم، بل إنه يبتعد عنهم وهو على يقين من أنه سيجدهم عند عودته. ثم يتبدَّد هذا اليقين في المستقبل عند وقوع أول مصاب. ولمّا كان موريس قد فارق أهله، وحُرم أنباءهم، وانصرف إلى نزوات الحياة، واستغرقته أنانية الهوى، فقد كان حريّاً بأن يجهل ذلك القلق الذي ينهش الصدر في شره وحشي عندما تعاوده الذكريات. وكثيراً ما كان يتذكّر أسرته - بل كثيراً جدّاً - فيتمثَّل الفراغ الذي خلّفه فيها.. ولم يكن وجود إديث كافياً لطرد أطياف الذكرى دائماً، ومع ذلك فإنَّه لم يتصوَّر قط حدوث وفيات في الأسرة. على أنه منذ بضعة أيام - أي منذ بدأ فصل الخريف يخلع عباءة تقلباته على هناء العاشقين - كان موريس يتمثَّل وجه أمه الشاحب، أكثر من ذي قبل، ويحسّ على وجهه اللمسة

الأخيرة التي ربتت بها يدها الباردة وجهه، فعاد يستشعر هذه اللمسة رغم مرور عام!

لم يكن مستعدّاً لتلقّي الصدمة.. فما السبب في أن أخته مرغريت هي التي كتبت إليه؟ ثم، على مَن تفرض كل هذا الحداد؟ ولم يجرؤ على الإجابة عن هذا السؤال.. فقد كان الجواب يفرض نفسه فرضاً. وتناول موريس قبعته وغادر الفندق والخطاب في يده.. كيف يقرأه في مكتب الفندق؟ لا ولم تكن الشرفة بالمكان الملائم، ولا الطريق المحفوفة بالأشجار، ولا الغابة.. فقد تلحق به إديث بعد لحظات، فتفاجئه، في حين أن الحزن الأليم الذي حمله الخطاب كان حزنه الخاص، وما كان راغباً في أن يقتسمه مع أي شخص.. فإنَّ اقتسامه يخفِّف من حدته، في حين أنه كان يريد أن يحس حدّة وخزاته!

وحين أصبح خارج الفندق، قرأ السطور الأولى، ثم انطلق في الطريق كوحش ضارٍ جريح مطارد. وأخذ يواصل انطلاقه ما إن يلمح أثراً للمنازل، إذ كان ينشد خلوة يبكي فيها دون أن يراه أحد. ومن ثم يمَّم وجهه شطر برج «بوتشيوني». ولم يتوقف إلاّ عند قمة التل، في أسفل البرج. وكان متعباً لاهث الأنفاس، فتهالك على العشب النامي على حجارة الجدران المنهارة، إذ ظل يعدو وكأنما كان في وسعه ـ أو في وسع أي امرئ! ـ أن يفر من القدر المحتوم! وما إن استرد أنفاسه حتى استبدّ به الخوف، وراح يعتصر قلبه. وكان الخطاب المؤلف من بضع ورقات قد تجعّد في قبضته.. ولم يجرؤ على قراءته كله، فقد كان يعوزه جهد عظيم حتى يستطيع أن يواصل القراءة، ومن ثم أخذ يقرأ على دفعات.. كانت الرسالة تحمل إليه من الفواجع فوق ما كان بوسعه أن يحدس. وقد جاء فيها:

«شامبيري، في ٢ نوفمبر

«عزيزي موريس: عُهد بخطابك إليَّ، فكنت أنا التي فضضته. وكنت أنتظره منذ أمد طويل، إذ كنت على يقين من أنه سيجيء، أو تجيء أنت.. لقد أنبأتني أمنا بذلك، لأنه ما كان بوسعك أن تنسانا إلى الأبد! ولقد أدركت وأنا أقرأ خطابك أنك لا تعرف عنّا شيئاً منذ يوم رحيلك، فوجدت في ذلك تعليلاً لصمتك المستمر. ولعلك فهمت الآن أنه لم تعد لنا أم. وأنا إذ أُنبئك بهذا، أستجمع كل الأسى الذي لا أريد أن أفقده، لأنه يقرّبني منها. فابكِ معي يا أخي المسكين.. ابك بدمع سخين وعوّض ما فاتك من بكاء. ولكن، لا تدع اليأس يجرفك، فإنها لا تريد ذلك..

«لقد غادرتنا في الرابع من أبريل الماضي، أي منذ سبعة شهور. فقد أخذت قواها تتضاءل طيلة فصل الشتاء في بطء ورفق. ولم تكن تتألّم، أو أنها لم تكن تشكو، على الأقل! ولم تكف عن الصلاة. وفي مساء يوم، فاضت روحها وهي تصلّي، دون أن يبدو عليها ما ينذر باحتمال موتها. وكنت وأبي معها، فتطلّعت إلينا، وحاولت أن تبتسم، وتمتمت باسم أدركنا معاً أنه اسمك.. ثم مال رأسها إلى الوراء، وانتهى كل شيء!.. وكانت قد حدثتني عنك قبل ذلك ببضعة أيام، وكأنما كانت تجهر برغباتها الأخيرة، على ما فهمت فيما بعد. وكانت تتكلّم ببساطتها المعهودة، فقالت لي: «لسوف يعود موريس. إنه بائس أكثر مما هو مذنب. إنه لا يزال يجهل الأمر، ولكنه لن يلبث أن يعرفه، وسيحتاج إلى كل شجاعته. فعديني أن تحسني استقباله إذا ما عاد، وأن تصلحي بينه وبين أبيه، وأسرته، وأن تدافعي عنه.. وأخيراً، أن لا تتخلّي عنه مطلقاً، مهما يحدث!». وما كنت بحاجة إلى أن أعِدَ، ومع ذلك فقد وعدتها. ولما وصل خطابك، لم أتردّد في فضّه، وإني لأنوب عن أمي.. ومع أنني لا

أضارعها، إلاّ أنني أحاول بكل قلبي.

«واعلم أنَّ أمنا لم تكن تراك مذنباً، وكذلك أنا.. وكذلك أبونا، وإني لواثقة من ذلك. ولكنه قال لنا إنَّ الضعف نوع من الذنب، وإنَّ ذاك الذي كفلته أسرته في سنيّ عمره الأولى، حتى بلغ مبلغ الرجال، ليس حرّاً في أن يجرّ سلالته كلها إلى الهوان بأعماله. على أنه لا يتحدّث الآن عنك قط. ولكنني أوقن أنه كثيراً ما يفكّر فيك، ويعاني من هذا التفكير. فتذكّره بدورك يا موريس ـ كما تتذكّر أمنا في مثواها الأخير ـ إذ إنه قد تغيَّر.. وتغيَّر كثيراً. لقد أدركه الهرم في أيام قلائل، وهو الذي كان يحتفظ بشبابه في مشيته، وأساريره، وصوته. وهو يعمل دون هوادة، إذ يجد في العمل سلواناً ونسياناً للمحن.. وقد وعدت بأن لا ألومه على ذلك. وفي الوقت ذاته، حريّ بك أن تعرف ما حل بنا جميعاً، ما دمت لم تتلق أنباءنا منذ عام.. فلا يزال أبونا يتمتّع بمكانته، حتى أنَّ أحداً من عملائه لم يسحب منه ثقته..

«أمّا هوبير ـ الذي كان من حقّه أن يمكث عامين في فرنسا ـ فقد حصل على إذن بالعودة إلى المستعمرات، ورحل في شهر مايو الماضي قاصداً السودان، حيث يحتل بحاميته مركزاً متقدِّماً في داخل البلاد، عند «سيكاسو». وهو موقع معرض للأخطار، ولكن هوبير هو الذي طلب أن يُعيّن فيه. أمّا فيليسي فلا تزال في مستشفى هانوي، وهي شديدة القلق من أجلك. وقد روت لنا أخيراً مصرع اثنتين من المبشِّرات البلجيكيات، ذُبحتا على حدود الصين.. وبدلاً من أن تجزع، فإنَّها مغتبطة لاستشهادهما، وآسفة لأنها لا تملك أن تجود بحياتها من أجل ذاك الذي تدعوه «الابن الضال»، ولا أظنك إلاّ تعرفه!.. لقد ورثت عن أمنا تقواها العارمة. فليحفظها الله لنا في مثواها بالطرف الآخر من الدنيا!

«أمّا أسرة مارسيلاز فقد غادرتنا، رغم توسّلات جيرمين.. إذ إنّ شارل باع مكتبه ليتخذ له مكتباً آخر في «ليون». وكان رحيلهم هذا قاسياً علينا، وإن رأى أبونا أنه أمر معقول، لأنه أتاح لزوج أُختنا أن يصبح على مقربة من أسرته التي تقيم في «فيلفرانش» ـ كما تعرف ـ وفي ذلك نفع له! وقد قضوا الصيف معنا في ضيعة البرج. وتورّدت وجنات پيير وأدريان، وإن ظلّ الصغير جوليان ـ وهو أحبهم إليّ ـ شاحب اللون قليلاً. على أن هواء «سافوا» أكثر ملاءمة له من هواء «ليون» الملبّد بالضباب. ولذلك تركته جيرمين ليقضي الشتاء معنا. وهو يشيع الحياة في بيتنا الذي خيّم عليه الحزن..

«وبهذا أختم عرضي للأنباء. لقد كانت أمنا ـ في الماضي ـ مجمع أخبار الغائبين، ومصدر أنباء الآخرين لهم. وهأنتذا ترى أنني أحاول أن أحل محلها. أمّا ما تبقّى، فسأذكره دون ما عتاب، إذ يبدو لي أن هذا خير أسلوب. وسأفضفض لك في البداية، ولن تلبث أن تدرك أنّ شقاءنا هو شقاؤك. ولا بد أنك تعرف ما جرى عقب رحيلك مباشرة، وإلاّ ما لزمت هذ الصمت الذي أضنانا. لقد رفع السيد فرازن دعوى ضدك ـ أجل، ضدك أنت ـ متّهماً إياك بسوء استغلال ثقته. هكذا توصف الدعوى التي كانت موضوع لغط القوم. وهو يتّهمك بأنك أخذت من خزانته مائة ألف فرنك. وقد ادعى بالحق المدني ليجبر العدالة على تعقّبك. وبما أنك غير موجود هنا، فقد صدر الحكم عليك غيابيّاً. وسأشرح لك الأمر بالكلمات ذاتها التي استُعملت: لقد رفض المستشارون إدانتك، ولكن موظفي المكتب ـ ولا سيما السيد فيليپو ـ شهدوا ضدك في الجلسة، وصرّحوا بأنك كنت تعلم أن الخزانة كانت تحتوي المبلغ. ثم إنك كنت آخر من غادر المكتب، وكانت المفاتيح في حوزتك، كما كنت تعرف الأرقام السرية لفتح الخزانة. ومن ثم فقد

قُضي بإدانتك، وبسجنك عاماً، مع مراعاة الظروف المخفّفة. ويبدو أن هذا هو الحد الأدنى، إذ روعيت المؤثرات التي كنت خاضعاً لها. ولكن عليك أن تفهم أنهم أدانوك.. وكان هذا في الشهر الماضي، ولم تكن أمنا على قيد الحياة. وعندما أنبأني أبي كان وجهه ممتقعاً، حتى أنني خشيت أن يصاب بضر، ولكنه كظم أساه كعادته دائماً. وكنت أفضل لو أنه بكى، ولكنه ليس ممَّن يبكون، بل هو يكتم آلامه. وهذا أسوأ ما في الأمر..

«ولقد أُلصق الحكم على باب بيتنا، ونُشر في الصحف. ويبدو أنَّ القانون يقضي بذلك! إنَّ كل الخدمات التي أداها آل روكڤيار السالفون للوطن لم تشفع في تفادي إلصاق هذا الحكم على بابنا!.. وهناك كذلك المائة ألف فرنك التي يجب أن تسددها للسيد فرازن. ومن رأي أبي أن يبيع الضيعة ليسدّد المبلغ. وهو يقول إنَّ مدة غيابك تثبت ـ لسوء الحظ ـ أنك أفدت من هذا المبلغ، وأن عملك ـ من وجهة الشرف ـ شبيه بالسرقة! أمّا شارل، فيرى عكس ذلك، إذ يعتبر أن الدفع اعتراف بذنبك، وأن هذا ما يجب أن نتجنّبه بأي ثمن، ولكنه لا يراعي شرف الأسرة، ولذلك فإنني من رأي أبي. وعلى كل حال، فقد عيّنت المحكمة حارساً قضائيّاً أجرى تقسيم ثروة أمنا، ليحصل على حصتك. ولمّا كنت أنا قد بلغت رشدي، فإنني طلبت إلى أبي أن يسلّمني حصتي، وهي التي أرسلها إليك الآن. ولقد دهش أبي لطلبي هذا، ولا أدري ما إذا كان قد أدرك الباعث. على أنني عرضت عليه خطابك فأبى أن يقرأه، وقال ما أنقله لك بنصّه: «لا.. إنه في نظري ميت، ما لم يعد ليثبت براءته!».. لذلك أضفت مائة فرنك لنفقات عودتك. فعليك أن تعود. وهأنتذا ترى ما سبّبت لنا من متاعب. فباسم أمنا التي كانت عودتك آخر رغباتها وآخر أوامرها.. وباسم والدنا الذي طعنت

قلبه، هذا القلب البالغ النبل والحنان.. وباسم فيليسي وهوبير اللذين يتألمان من أجلك.. وباسم جيرمين وأختك الصغرى.. وباسم جميع أهلنا الذين لم يأتوا على مر السنين سوى كل عمل مشرِّف، والذين يستحلفونك أن لا تهدم في يوم عمل جيل برمّته.. باسم هؤلاء جميعاً: عد! إنني أنتظرك، وستجدني دائماً بجوارك، وسأساعدك، فإنني أثق فيك.. فعُد، ومن الميسور إصلاح كل شيء بعد ذلك، ما دمت غير مذنب.. بل من المستحيل أن تكون مذنباً..

«وإنني لأرى جليّاً - خلال رسالتك - أنك غير مذنب. وحتى إذا كان ثمة خطر يتهدّدك، فإن عودتك واجبة، لأن من العدل أن تنال نصيبك من العذاب، ولا أظنك من الجبن بالدرجة التي تجعلك تتهرّب. بهذا أختتم خطابي، وكم أرجو أن أوفّق إلى إقناعك. أما إذا كانت «هي» أقوى سلطاناً منّا جميعاً، وإذا لم ترد العودة فوراً، رغم كل تضحياتنا وآلامنا، فسأظل أنتظرك طيلة حياتي.. حياتي التي كرّستها لأبينا ولك، فاعلم أنني لن أتخلى عنك قط. أفلم أعِد أمنا بذلك؟ لقد كنت أنت آخر من فكّرت أمنا فيه، فإذا أحزنك خطابي فتذكّر وصيتها لك بأن تكون دائماً شجاعاً، وتذكّر قول أبينا: ما ضاع حق طالما أنَّ صاحبه لم يمت..

«وداعاً يا موريس.. وإني لأقبّلك: أختك - مرغريت»

*

ما كان أضأل الحزن والهوان اللذين استحوذا على موريس - بعد اعترافات عشيقته الناقصة - إذا قورنا بذلك السيل من العذاب الذي انصبَّ عليه من رسالة مرغريت!.. وكيف يتحمّل الصدمة وهو الذي أصاخ لحظات لنداء الموت، لمجرّد شبهة مشينة تمس الشرف؟.. كانت البحيرة المنبسطة تحت قدميه مستمرّة في مناداته، تعرض عليه النسيان، والصمت، والسلام!.. ومع ذلك فإنه

لم يرها إذ ذاك، فإن نداء الأسرة أخذ يتردّد في صدره، وبدلاً من أن يستسلم للضعف، استجمع كل قواه ليواجه النكبة التي ألمّت به. إنَّ التفكير في الموت أمر طبيعي لدى العشّاق إذا ما خامرتهم الشكوك في خلود هنائهم. ولكن موريس لم يفكّر في سعادته، فهي شيء شخصي يتعلق به وحده ـ وإن كان قد فكّر من قبل في أنَّ من حقه أن لا يعيش إذا فقدها ـ وإنما فكر في أن أسرته بأسرها كانت مهدَّدة، ومصيرها متوقّفاً عليه، وإذ ذاك شعر بأنه لم يعد ملك نفسه، وأنه مرتبط بأهله ـ شاء أو أبى ـ وأن العزلة التي ضربها حول نفسه لم تكن سوى سراب وهباء. على أنه في الوقت الذي فقد فيه خيال المحبّين الأزلي الذي يصوّر لهم الحب عزلة تباعد بينهم وبين الناس جميعاً.. في هذا الوقت بالذات، راح ينهل العزاء والراحة النفسية من ذلك التضامن الذي كان يفرض نفسه عليه فرضاً، كما ينهل الإنسان من معين ثرٍّ بالطاقة والحيوية!

وكان أشد آلامه عجزه عن أن يبكي أمه بحرارة وحرية.. وأن يبكيها وحدها. وشعر بحسد للأبناء الذين يتركون العنان لأحزانهم ـ أمام توابيت أمهاتهم ـ دون أن يتمالكوا أنفسهم. ألم تكن له يد في هذه النهاية التي لم تجل بخاطره قط؟.. وتذكّر أنَّ الطبيب لم ييأس من المريضة، وإنما ذكر أنَّ شفاءها كان يتوقف على إخلادها إلى الراحة والهدوء، فكيف كان لهذا الكيان الواهن أن يقاوم العاصفة؟.. إنَّ العاصفة التي أثارها قد اجتاحت «البيت» وقوّضت بنيانه، وشتّتت شمل الأسرة، فرحل آل مارسيلاز، وانطلق هوبير ينشد قسطاً من الشرف لاسم بات مضغة في الأفواه.. وها هي ذي الريح تحمل نذير الخراب ممثّلاً في بيع الضيعة العريقة. ولم يعد في البيت سوى أبيه المكتهل وأخته مرغريت.. ولكن، لماذا لم تتزوج مرغريت؟.. أترى خطيبها كان من الخسة بحيث حاسبها على وزر

غيرها؟ إنَّها لم تتحدث قط عنه في خطابها.. بل إنَّها نسيت نفسها، وهي تعدِّد مصائب الأسرة، وكان كل ما قالته هو: «حياتي التي كرستها لأبينا ولك»، ولم تشر بأية إشارة أخرى إلى تضحيتها. لم ينج من الكارثة شخص واحد، اللهم إلاّ المذنب الذي راح يتذوق كل ملذات الحياة، تحت سماء صافية!

مذنب لأنه وإن لم يكن مسؤولاً عن التهمة المشينة التي رماه بها السيد فرازن، إلاّ أنه قد أثم في حق أسرته عندما اعتقد أنه حرّ في أن يخونها.. ولقد اتّهم عشيقته التي كان تهوّرها من أسباب العار والخزي، والتي كان حبها سبباً في دفعه إلى الدرك الأسفل. ولكن، هل كان الحب حقّاً هو الذي هوى به إلى الحضيض؟.. ذلك الحب الذي طالما اشتهاه في شبابه الحافل بالعواطف المشبوبة والدراسة الدائبة، والذي كان يهب على قلبه كتلك النسمات الشذية التي كانت آلات الموسيقى المعلّقة على الأشجار ـ كما ورد في الأساطير ـ ترتقبها لتمس أوتارها؟.. لقد كان يعزو إرهاف مشاعره إلى الحب، كما كانت نغمات الأوتار تُعزى إلى النسيم!.. ولقد كان يعزو إليه النضوب والاندفاعات التي كانت تعتري المعين الدافق في أعماقه!.. وفي هذه الرحلة الخاطفة، خلال حياته، تذكّر عيني إديث، وشفتيها، وحركاتها.. أجل، لقد كانت نغمات قلبه ناجمة عن دلال هذه الحركات، وعذوبة هذا الصوت، واللهب المنبعث من تلكما العينين.. إنه قد يهجر هذه المرأة، ولكنه لن يتنكّر لحبه!

ومن ناحية أخرى، ما الذي يأخذه على إديث من مآخذ؟ هل دار بخلدها أن مأساة أليمة ستحيق بأسرة كاملة بسبب زلّتها؟ لا، بكل تأكيد! لقد استولت على تلك النقود كما تستولي على القلوب، دون أن تفكر في أذى، وإنما عن يقين بأنها تمارس حقّاً من حقوقها. ولو

أنه أفضى إليها بما جاء في الرسالة، لتولاّها الذهول، ولما أحجمت عن العودة معه إلى «شامبيري» لتعلن أمام القضاة ـ بأعلى صوتها ـ براءة عشيقها. ولكنه لم يكن راغباً في هذا الكرم، بل كان من الأفضل أن تظل دائماً سادرة في جهلها، وأن لا تعرض نفسها لأي خطر. فهل يسافر الليلة؟ لا، ليس الليلة، وإنما غداً صباحاً، ودون أن ينبئها.. وبعد أن يكمل صداقها غير المشروع فلا ينقص منه شيء! ولكن.. ماذا يكون مصيرها إذا هجرها هكذا؟ ألا تزال عليه واجبات نحوها، وهي التي كان الحب جماع حياتها؟.. وحاول موريس أن يتصوّر مستقبلها، فإذا به يراها ممزَّقة الفؤاد، مشتتة النفس، تلعنه، ثم تعود فتبكيه، تباعاً.. وتشكوه إلى الغابة، والهياكل، وإلى كل شهود غرامهما. لسوف يساعد فعلاً على تعذيبها!.. ولكنها ـ من ناحية أخرى ـ كانت تمتلك في نفسها مورداً قويّاً: مرونة، ورغبة جامحة في الحياة تمكنها من المقاومة والصمود والبقاء على قيد الحياة! ألم يرها تقاومه في خوف، وفي ثورة، عندما تكلّم عن الموت؟ وأحس بقلبه يتلوى حين فكر في أنها قد تجد عشيقاً آخر، وأنَّ اللهيب المتأجج في جوانحها قد يدفئ يوماً رجلاً سواه.. فهتف لنفسه: «لا.. كل شيء إلاّ هذا.. لست أريد هذا!!».

كانت هذه هي المعركة الأخيرة في سبيل حبه، وهو قد اعترف، في الواقع، ومنذ اللحظة الأولى، بهزيمته. فإن موت أمه، ونداء أسرته، والحكم المشين الذي صدر بحقّه، لم تكن لتترك له مجالاً للاختيار، ومن ثم لم يبق له سوى أن يدبّر أمر سفره، بحيث يخفّف من شقاء إديث ما استطاع!.. إنه لم يعد يبغي بقاء معها، ولكنه كان يتعذب إلى درجة تكاد تدفعه إلى الأنين، وهو يتخذ قراراً سريعاً بفراقها!

وكانت إديث تنتظره على درجات سلم الفندق بصبر نافد، فما إن رأته حتى أسرعت للقائه، وغمغمت وفي لهجتها شيء من التشكي، لا التأنيب: «أخيراً!».. وحاول أن يبتسم قائلاً: «نهار سعيد يا إديث». وراحت تتفرّس في وجهه بكل حنان واهتمام، فلاحظت آثار الدموع، وإذ ذاك قالت: «لقد أصبحت في خوف دائم من أن تبتعد عني!».

ـ خوف من ماذا؟

ـ من أن لا تعود!

فهتف: «يا عزيزتي..»، ولكنها قاطعته مستأنفة حديثها في لهجة حازمة: «إنني أعرف أنك ستخرج فلا تعود يوماً ما.. ألا قل ليّ إنّ هذا اليوم لم يحن بعد!»، فصاح: «كفى يا إديث.. لسوف أظل أحبك على الدوام!».

ـ دائماً ومهما يحدث؟

ـ مهما يحدث!

وتناولت يده فرفعتها إلى شفتيها في ابتهال، ثم قالت في استحياء: «قيل لي إنك تلقيت أنباء من فرنسا، هذا الصباح». فقال: «أجل». وإذ ذاك سألته: «وهل هي طيبة؟». ووجد من الشجاعة ما مكّنه من أن يومئ بالإيجاب.. أما وقد احتفظ بأساه لنفسه، فقد أحس فعلاً بأن هذا فراق بينهما. على أنها عادت تقول: «أما أنا فلا أرتقب أنباء قط.. إنك كل فؤادي وحياتي!».. وبينما تقدّمته إلى الشرفة، حيث وضعت مائدتهما الصغيرة في وقاء من الهواء، راح يسائل نفسه: «ترى هل أملك القوة على الرحيل؟».

4 - عودة الابن الضّال

كانت إديث في سريرها، وقد رفعت رأسها فوق حافته واعتدلت لتتمكن من مشاهدة حبيبها وهو يسوّي هندامه، وقد وضع المصباح على الأرض حتى لا يسقط النور على وجهها. وسألته بصوت مثقل بالنعاس، وهي لا تكاد تقوى على فتح عينيها: «لماذا تغادر فراشك في مثل هذا الوقت المبكّر؟».. فأجاب: «لقد شبعت نوماً.. وأوشك النهار أن يطلع». وأطفأ شعلة المصباح، فانساب إلى الغرفة ـ بعد لحظات ـ ضوء خفيف تسلل خلال خصاص النافذة. وعادت إديث تقول: «إن الوقت لا يزال ليلاً يا موريس!».. وإذ ذاك سألها: «ألا ترين قبساً من نور النهار؟».. ولكنها أجابت: «ما هذا نور النهار، وإنما هو نور القمر». فقال: «عاودي النوم يا إديث، فلا يزال الوقت متّسعاً أمامك».. فقالت: «أجل، فإنني أحس بخمول.. خمول لذيذ!».. وتهالكت على الوسادة، وأغلقت عينيها.. وكانت تحتفظ بفتنة مثيرة، حتى في أثناء نومها، فدنا من السرير، وانحنى متأمّلاً وجهها على ذلك الشعاع الواهن المتسلّل خلال النافذة، وهو يفكر: «إنَّ هذا اللهب الضئيل المنبعث من عينيها، والذي أذكى غرام حياتي.. هذا اللهب قد خبا، بالنسبة إليَّ.. لن أعود لأراه وهّاجاً.. بل إنني لا أرى جريان الدم تحت بشرة وجنتيها، ولا لمعان أسنانها مع أنَّ الشفتين منفرجتان.. وأكاد أتبيَّن، بعناء، شكل فمها، وأنفها، وتلك الكتلة السوداء من الشعر الذي أشم عبيره.. أمّا جسدها فسوف أُحرم منه!». وغلبه التأثر بدرجة طاغية.. كان كل شيء فيها يغريه بالبقاء.. وانحنى، ومس جبينها، فأحس بحرارته العذبة، بينما أشرقت على وجهها ابتسامة مبهمة، وظلت عيناها مغمضتين.

خرج موريس من الغرفة، فلم يلتق في ردهة الفندق غير صبي كان يتثاءب وهو ينظف الأرض. ولم يُلفت هندامه انتباه الصبي. وكان المتاع الذي حمله مؤلفاً من حقيبة صغيرة ومعطف شتوي وعصاً. وكانت أقصر طريق إلى محطة «أورتا» هي تلك التي تخترق «مون ساكريه». وأخذ القمر يفقد تألّقه أمام طلائع الصباح، ويتسلّل خلال الغابة في خشية ورهبة. وكانت أشعته تنساب خلال جذوع أشجار الصنوبر الباسقة، فتمتد إلى الأوراق الذابلة المتناثرة على الأرض ثم تستقرّ على واجهات المعابد. وحين بلغ موريس المعبد الخامس عشر، توقّف عن السير ورفع رأسه، فإذا الأعمدة الصغيرة الرشيقة تبدو بيضاء متباعدة، وقد انعكست منها ظلال سوداء على الجدار. وصعد الشاب درجات السلم، ثم استدار ليستوعب للمرة الأخيرة المنظر الطبيعي المألوف. وكانت حواف الآبار، ومباني بعض المعابد الظاهرة، تتواثب حوله وكأنها أطياف. وتبيَّن الجبال القائمة في مواجهته، وبعض أجزاء من سطح البحيرة. ولم يكن في وسعه أن يرى فندق «بيلفيدير» الذي كان المنحدر يحجبه، مع أنه كان يريد أن يراه هو بالذات. وراح يحفر المنظر في صفحة ذاكرته: هذه الأحجار التي كان يركلها بقدميه، والأشجار، والمعابد، وكل هذه المعالم غير الواضحة التي لن تلبث الشمس أن تعيد إليها بهاءها.. لسوف يراها ماثلة بأكملها أمام عينيه ـ ما بقي محتفظاً بذاكرته ـ لما كان لها من فتنة مميّزة، فكأنها المعالم الإضافية التي تحيط بصورة أصلية لتميّزها وتبرزها.. وكانت تلك الصورة الأصلية ـ زهرة الشباب الفريدة ـ لا تزال تبسط سحرها عليه، على البعد.. وبدلاً من أن يهرب، وأن يمضي في فراره دون أن ينظر إلى الوراء، ظلَّ جامداً في ذلك المكان الذي كانت «هي» تحبه، والذي جاءته ممسكة بالورود بين يديها، في اليوم السابق لعيد حبهما الأول.. اليوم الأخير في عمر سعادتهما!

كانت إديث نائمة في غرفتها، مستسلمة للخمول العذب. وعندما تستيقظ للحاق به ـ بعد ساعة أو اثنتين، أو قبل ذلك ربما ـ ستجد على منضدة الزينة خطاب النعي الذي يعلن إليها الفراق بكلمات حنون.. ولن تفهم الخطاب لأول وهلة، ولكن الأوراق التي يحتويها المظروف ستوضح لها الأمر. فهناك بيان حساب الفندق، مؤشَّراً عليه بأنه دُفع.. وبعض أوراق النقد، وإيصالات بالمبلغ الذي أودع باسمه في المصرف الدولي في «ميلان»، مضافاً إليه الإذن المصرفي الذي أرسلته مرغريت روكفيار، وقد حوّله موريس إلى إديث. إذ ذاك ستدرك الانقلاب الذي انقضّ عليها ـ فإنّ الأسرة التي تغلّبت عليها من قبل قد استردّت منها حبيبها! ـ وستطلق صيحة ألم مدوّية، ولسوف يسمعها هو تتردّد في أعماقه، مهما يكن بعيداً عنها!

وأخذ نور القمر يضمحل في ضياء الصباح. ومرت ساعة وموريس مستند إلى أحد الأعمدة، يكاد يعجز عن أن يحمل نفسه على الرحيل، وهو يقول لنفسه: «من أين تراني استمددت الشجاعة على أن أحطّم قلبها وقلبي؟.. إنها لا تزال جدّ قريبة مني، ولو أنني عدت إليها فلن تعرف من الأمر شيئاً، ولسوف تستيقظ في لين ودعة. ولكن، لا.. لن أراها بعد اليوم قطّ، فهناك من الأواصر ما لا يستطيع الحب أن يفصمها. إنني أدرك أن السعادة ليست حقّاً.. وإنني لأعذّب إديث وأحبها. أمّا الأذى الذي ألحقته بي فلم يكن عن طوع خاطرها! إنني لا أذكر سوى أنني أحس الحياة في قربها، ومع ذلك فإنني لم أعد أقوى على العيش معها! إديث، أفتذكرين الماضي؟ لقد أعطيتني زهوراً في الليلة الأولى، ثم منحتني شفتيك الشبيهتين بالزهور، في غير ما تردُّد. وعندما قلت لي: «سأكون لك، ولك وحدك، عندما تشاء»، أحسست مقدّماً بلمسات يديك

الناعمة تتغلغل في جسدي. آه! إن الهيام الملتهب الذي يشوب لمساتك المدلّلة، والألم الذي سينتابك بسبب خطأي أنا، وضعفك.. كلها هذه تجعلني أرتعد من المستقبل. فلا تظني أنَّ حبي قد نقص، وأنني سأنساك يوماً يا إديث.. إنَّ هذا لن يخطر ببالي، بل إنني قد أزداد حبّاً لك!.. تُرى، أي ذكرى ستحفظينها لي؟.. لقد عاش حبُنا بين خريفين، وإنَّك لتفضلين هذا الفصل الذي يتّقد فيه إغراء الطبيعة.. لقد وجدت لونه الذهبي في عينيك، ووقدته المحمومة في أحضانك، حيث اكتشفت اللذة العارمة.. أمّا الآن، فإني أرى الخريف ممثَّلاً في زهور الأقحوان في مقبرة «أورتا»، وهي تخفي الموت تحتها.. أجل، الموت، فهلاّ أدركت؟.. إنني لم أودعك، فقد انتهى كل شيء. وهكذا الموت بالنسبة إلينا. لسوف تبكين، وستتكلّمين، وستمشين، وستكونين في نظر الآخرين مخلوقاً حيّاً طافحاً بالدلال والشباب.. أمّا بالنسبة إليّ - أنا الذي لن أعرف عنك شيئاً - فستكونين ميتة! والحق أنه من الخير أن تكوني ميتة، لأنك لن تلعنيني إذ ذاك، أنا الذي أحبك، والذي اضطررت إلى أن أنحر هوانا نحراً!».

ونبَّهه من أساه - الذي كانت إرادته تتبدّد فيه رويداً رويداً - صفير قطار.. فهل تراه غفل عن الوقت؟ لا، لا بد أن هذا هو القطار السريع القادم من «نوفار»، والذي يسبق القطار الذاهب إلى «دومودوسولا» بدقائق. وقد جاء هذا التنبيه في الوقت المناسب ليردَّه إلى عزمه، فغادر المعبد، واجتاز الغابة عدواً، إلى أن بلغ المحطة وقد بدأ الصباح يشرق على القمم، وأخذ ضوء القمر يتلاشى في الفضاء. وابتاع موريس تذكرة إلى «كوركونيو» - وهي محطة جد قريبة من «أورتا»، ولكنها في اتجاه مضاد لمقصده - خشية أن تهتدي إديث إلى اتجاهه إذا حاولت اللحاق به!

كان خط السكة الحديد يمتد عبر البحيرة حتى مدينة «أومينا»، فجلس موريس في عكس انطلاقة القطار - في العربة - واتكأ على حافة النافذة ليلتقط ببصره صور هذه الأماكن المحبَّبة. وسرت في مياه البحيرة رعشة خفيفة مع مقدم الصباح، ولاحت أشجار شبه الجزيرة باسقة، وارفة.. هناك ذاق طعم السعادة!.. وغادر القطار مدينة «أومينا»، فحاول عبثاً أن يمدَّ بصره ليلقي نظرة أخيرة على «أورتا نوڤاريس»، وأن يستوعب بعينيه وقلبه هذا المنظر الطبيعي الذي كان يغرب عنه. وكانت الثواني التي تزيد من ابتعاده أشبه بأحجار يلقي بها إلى هاوية، فيسمع ارتطامها حجراً إثر حجر!.. وإن هي إلاّ ساعة حتى بلغ «دومودوسولا»، وهي مدينة إيطالية صغيرة، تقبع على جبال الألپ الكبرى، وتشرف على نهر «توسا» السريع الانحدار، الذي يصب في بحيرة «ماجير». ومن هناك كانت العربات ذات الجياد تنطلق لتربط بين إيطاليا وسويسرا، مجتازة المنطقة العليا من ممر «سمبلون». وكانت هذه العربات تقطع المسافة التي تفصل وادي «أوسولا» عن حوض «الرون» - وقدرها أربعة وستون كيلومتراً - في اثنتي عشرة ساعة، بفضل جيادها القوية التي كانت تُستبدل بانتظام على طول الطريق.

ولم يتكبّد موريس في الرحلة - إلى (دومودوسولا) - سوى فرنكات معدودة. وكان قد أنفق معظم نقوده كي يرضي ضميره تماماً نحو إديث. ومن ثم استعان بدليل السكك الحديدية، فتبيَّن أنَّ السفر من طريق «تورين» أكثر كلفة. وبقليل من الحساب، وجد أنه إذا دفع نفقات سفره في الدرجة الثالثة من «أورتا» إلى «دومودوسولا»، ومن «بريج» إلى «شامبيري»، فلن يتبقى له سوى ثمن ثلاث أو أربع وجبات متواضعة.. وهكذا تكون عودته «عودة الابن الضال» حقّاً! وتحمل - في غير تذمّر - هذه الفاقة التي حشرته

مع صغار العمال، إذ اضطر إلى أن يشاركهم مقاعدهم في القطار. وكان اهتمامه بهذه الأمور الصغيرة يباعد بينه وبين اللوعة التي كان جديراً بأن يعانيها لو لم يجد ما يشغله.. فقد كان عليه أن يعرف الطريق التي يسلكها ليقتصد في نفقات السفر، وكان عليه أن يتجنّب الفنادق الباهظة في «بريبج».. فوجد أن ثمة بيتين للضيافة فوق الجبل هما مأوى «سمبلون» ومأوى «سان برنار» اللذان كانا يستضيفان الفقراء من عابري الجبال دون بدل، بل إنَّ السيّاح أنفسهم لم يكونوا يتحرّجون عن الإفادة منهما. وكان جاره في الرحلة من أبناء مدينة «بيمونت»، فزوّده بما كان ينقصه من معلومات، وقال: «إن الملجأ مفتوح دائماً.. ليلاً نهاراً، ونهاراً ليلاً! وفوق ذلك تستطيع الحصول في الليل على حجرة في الطابق الأول دون أن تستأذن أحداً!».

وهكذا هانت عليه تكاليف ومصاعب الرحلة.. فما كان عليه سوى أن يجتاز ممر «سمبلون» على قدميه، وأن ينام في المأوى. لذلك غادر القطار في «دومودوسولا»، ومر في أنفة بجوار العربة التي تجرّها الجياد، والتي كانت متوقّفة أمام المحطة، حتى إذا امتلأت بالركاب لم تتأخر في اللحاق به، تجرّها جيادها الخمسة بقوتها المألوفة. وكان موريس إذ ذاك في بداية الطريق الصاعدة نحو القمة، فحملق الحوذي في ذلك الشاب الأنيق الذي حمل حقيبته في يده، وانطلق دون أن يخشى على حذاءيه من أن يتلفهما السير! ولوّح الحوذي بسوطه في الهواء ليسترعي نظر موريس، ثم أشار بحركة رشيقة ـ كتلك التي تقدّم بها باقة ورد إلى أحد السادة ـ وعرض عليه مكاناً في العربة، فأجابه موريس: «شكراً.. إنني ماض على قدميّ».. فصاح الحوذي: «هذا مستحيل.. هذا مستحيل على ساقيّ «السيد»! ثم إنك ستتأخر كثيراً، وأعتقد أن «السيدة» في

الانتظار!». ولكن الشاب قال: «ليس هناك مَن ينتظرني». وإذ ذاك قال الحوذي: «آه! هذا من سوء الحظ، فما أجمل أن يجد المرء عند وصوله ناراً مشتعلة، وحساء ساخناً، وامرأة!». ثم جمع أعنّة الجياد، واستحثّها، فإن هي إلاّ هنيهة حتى غابت العربة عن بصر موريس. وأصبح وحيداً، فاستأنف السير، صاعداً في بطء. وقبل أن يبلغ دروب الألپ الضيِّقة، التفت يملّي بصره بالابتسامات الأخيرة المنبعثة من الجمال الإيطالي الخلاّب، الذي تجلّى في الوادي المتعرّج - حيث يجري نهر «توسا» - وفي المنحدرات المكتظة بالأشجار، بل وعلى الحواف الجبلية الوعرة التي كانت تكسوها الأدغال الذهبيَّة اللون.. كان منظر هذه البطاح - تحت الشمس - محبَّباً إلى النفوس، رغم مشاق الجبال الوعرة! وكانت الفلاحات الساعيات إلى الكنيسة - إذ كان اليوم من أيام الآحاد - يحطن أعناقهن بمناديل ملوَّنة، تدلّت أطرافها على ظهورهن، كما ارتدين ثياباً مزركشة. وكنَّ يبادرن المارَّ بتحية الصباح في بِشر مسَّ شغاف قلب الشاب، فانتابه شعور بأنه قد قضى على نفسه بالنفي طواعية.. ألم تكن إديث وطنه؟.. إديث! لا بد أنها استيقظت الآن وعرفت كل شيء!

وإذ هو تذكر ذلك أسرع في مشيته لينسى في الإعياء لوعته! وقسّم الكيلومترات الأربعة والستين إلى ثلاث مراحل: الأولى طولها ١٨ كيلومتراً - وتنتهي عند «إيسيل» - والثانية طولها ٢٢ كيلومتراً - وتنتهي عند القمة - والثالثة طولها ٢٤ كيلومتراً وتنتهي عند «برييج». وعنَّ له أن يتناول الغداء في «إيسيل»، ثم يسعى إلى القمة - التي ترتفع على سطح الأرض بألفي متر - في موعد العشاء، ويبيت هناك في المأوى، على أن ينحدر إلى «برييج» باكراً، في صبيحة اليوم التالي، ليتمكن من اللحاق بقطار «لوزان» و«جنيف»،

الذي يتّصل بإقليم «السافوا» عند الحدود الفرنسية. وبهذا يصل إلى «شامبيري» في الساعة السادسة من مساء يوم الاثنين.

«إيسيل» - التي تقوم على مشارف سهل صغير مزهر - هي آخر قرية قبل سويسرا - وفيها يحس الإنسان فعلاً أن عليه أن يودّع إيطاليا آسفاً! - وهي مشيّدة بشكل مستطيل على حافة طريق «نابليون»، يحفُّ بها جداران جبليان يتراوح ارتفاعهما بين أربعة آلاف وخمسة آلاف قدم. ويكفي أن تتطلع إلى الخلف كي تبصر المروج الخضراء، ومجموعات من الأشجار كالباقات، وما يشبه فجوة من نور خلال الجبال. ولم يكن ثمة ما يبعث الحياة في القرية الصغيرة سوى جلجلة العربة التي كانت تبدّل جيادها في «إيسيل»، وتوفّر عملاً لرجال الجمارك الذين كانوا بادي اليقظة والمهابة، كأنّهم جنود، ما دعا إلى تسميتهم بحراس الأموال. إلى أن كان شهر آب/ أغسطس من سنة ١٨٩٨، إذ بُدئ في مدّ الخط الحديدي عبر جبال الألپ، فازداد عدد سكان القرية إلى أربعة أمثالهم بسحر ساحر، وأُقيمت مساكن للعمال، و«ڤيلات» صغيرة ذات حدائق للمهندسين ورجال الأعمال. وقد اجتمع كل هؤلاء في شوارع البلدة في يوم الأحد. فلمّا بلغها موريس، كانت الأجراس تدق مؤذنة بالخروج من الكنائس. فاخترق موكب النساء العائدات إلى بيوتهنّ والسُبحات في أيديهنّ، بينما انصرف الرجال إلى لعب الكرة، وتصاعدت من الحانات - مع روائح وأبخرة المطابخ - أنغام «القيثار» و«الهارمونيكا».

تناول موريس غداءه في مطعم حقير، مقابل ثمن بخس، ومع أناس صاخبين، صائحين. وبدلاً من أن يستغل فرصة النهار للتعجيل بالرحيل - إذ كان الليل يحل مبكراً في شهر نوڤمبر - أخذ يتلكّأ عن غير قصد، وكأنه كان يؤثر البقاء وسط هذا الصخب المزري على

الوحدة.. أو كأنه كان عاجزاً عن المضيّ في اجتياز الحدود، لأنه رأى في هذا الاجتياز صورة مادية لانفصام عرى حبّه.. الحب الذي كان متعلّقاً به إلى درجة الجنون. وفي ذلك المطعم الذي تكاثف فيه الدخان - والذي كان الضجيج المنبعث فيه يلهيه عن آلامه - خُيِّل إليه أنه لا يزال على صلة بإديث.. وإن نأت!

وقبيل شلال «كوندو» الجبلي، حيث تتدفق المياه من مساقطها، وجد الحد الفاصل بين الدولتين، فلمّا اجتازه، أحس بالظلام يطبق على صدره، ولمّا يبلغ بعد المنطقة الضيقة التي يجب أن يجتازها بين صخرتين. ورفع رأسه فرأى فلول الشفق الوردي تتلاشى. وفاجأه الليل مبكراً - أكثر ممّا توقّع - فلم يتمكن من سلوك الطريق المختصرة التي تجنّبه الطريق الطويلة، واضطر إلى سلوك هذه، فبلغ قرية «سمبلون» متعباً، في ساعة متأخّرة.. وهناك تناول عشاءه واستراح. حتى إذا استأنف السرى ليلاً، كان الظلام والصمت ينتظرانه عند نهاية القرية، فاستقبلاه كما لو كانا رفيقيه الطبيعيّين في رحلته الحزينة. وأحس بأنه كان يؤدّي واجباً لا بدّ منه رغم كل الظروف.. أفلم يذبح بيديه هناءه؟ أوليس على القتلة أن يكفروا عن ذنوبهم؟

وكان موعد شروق القمر قد أزف.. على أنه لم يظهر إلاّ حين اقترب موريس من القمة، حوالى الساعة الحادية عشرة. وعلى ضوئه الزاهي ألفى موريس نفسه وحيداً في مكان مقفر موحش، تحيط به الثلوج وكأنها تخلع على الأشياء كلها لباساً موحّداً. ولم يكن يسمع هناك حتى وقع قدميه، بينما كان ظله يتبعه كرفيق مزعج، يستطيل، ثم يتضاءل.. ويختفي، ليعود إلى الظهور. وقضى الشاب وقتاً طويلاً وهو يتطلّع بعينيه نحو الأفق، يستكشف المأوى، وقد تقطّعت أنفاسه، ووهنت ساقاه. أيكون قد مر به دون أن يراه؟ لقد

بلغ به الإعياء حدّاً لم يعد يحسن معه تقدير المسافات! ومع ذلك، فما جدوى هذه الجهود التي كان يبذلها؟ ما عليه إلاّ أن يترك نفسه ليهوي على جانب الطريق.. فعلى الثلوج يحلو النوم.. أو الموت! وبهذا وضع حدّاً للتفكير، والمسير. وصاح بأعلى صوته: «إديث!».. وما إن رجّع الصدى صوته حتى كفّ عن السرى منتفضاً، وقد خيّل إليه أن أحداً كان يناديه.. ألم تكن هي التي نادته مرة أخرى.. بل مرة أخيرة؟.. إنه لم يعد يحس لقدميه وجوداً، فليدع نفسه تنساب إلى إديث في هدوء، كما تنساب أشعة القمر في الثلوج. وأصابه الإجهاد المفرط والبرد وخفّة كثافة الهواء ـ واليأس أيضاً ـ بهذيان. والذي يتوقّف عن السير في مثل تلك الحال من الإعياء، يكون هلاكه مؤكداً، ولا يقدر له أن يقدم قدماً على أخرى، إذ يغدو كآلة تحطَّمت تروسها..

وهتف مرة أخرى: «إديث!»، ثم ابتسم. ولم يكن ثمة ألم يعتريه.. وكان من أسهل الأمور أن يجلس وينتظر. وكانت في مواجهته ـ إلى اليمين ـ جبال «مونت ليوني» الثلجية، ترسل وميضاً مرتعشاً، وكأنَّ ثمة حركة تسري في كيانها!.. وخُيِّل إليه أن الأفق كله كان يتحرّك متقهقراً، متطلِّعاً إلى إيطاليا.. وبعث الاسترخاء في نفسه شعوراً مستعذباً، ولكن غريزة البقاء، أو لعله حب الاستطلاع، أبقى عينيه مفتوحتين رغم هجوم النعاس عليهما. إلاّ أنه لم يحس برغبة في الإتيان بأيّ حركة. وخيل إليه ـ في هدأة الجبال ـ أن ضياء القمر والثلوج تتسع حتى لتملأ الفراغ كله، وترقى إلى النجوم. وفي غمرة هذا الاستغراق، اضطر إلى قطع تأملاته، إذ هوت الحقيبة من يده دون وعي، فأفاق من غشيته على صوت سقوطها. وفطن ـ حين أحس بعناء تحريك أعضائه ـ إلى الخطر المحدق به. وقال لنفسه فجأة: «هل أموت هنا؟.. وحيداً، في هذه القفار؟».. إنه يموت، يا

إديث، وهو الذي كان يظن أنه عائد إليك!

وغابت إديث عن خياله، كطيف يغيب في أعماق البحر، ليحلّ محلها منظر البلاد التي نشأ فيها، والهضبة التي تقوم عليها المزرعة، وأسرته.. وهتف لنفسه: «إنهم ينتظرونني»!. أفكانت ذكرى هذه السنين الأولى من حياته ـ التي حلت محل رؤى فترة الغواية والشهوات ـ تميمة سحرية ضد الموت؟.. لقد خفَّ شبابه إلى نجدته، فاستردَّ شيئاً من القوة والنشاط، وأخذ يرفع قدميه ـ واحدة بعد أخرى ـ وكأنه ينتزعهما من وحل سميك غاصتا فيه. ومشى، أو بالأحرى جرَّ نفسه جرّاً، ليقطع مسافة لم تزد على أمتار معدودة. وإذ ذاك، شعر بالخوف، فصمد إزاء الخطر الذي أحس بوجوده إلى جواره، يصحبه في كل خطوة، في هذه العزلة، كعدوّ يتربّص مترقباً لحظات ضعفه وخوره. وكان يعرف أن ثمة أكواخاً خشبية أقيمت على جانب الطريق ـ بالقرب من القمة ـ ليلوذ بها السائحون إذا فاجأتهم العاصفة أو الريح الزمهرير.. فبات كل مطمعه أن يعثر على أحد هذه الأكواخ. وفي تلك اللحظة لمح في أسفل «مونت ليوني» ضوءاً خافتاً، لا يكاد يبين في الليلة المشرقة.. ذاك هو الملجأ الصغير، الملتصق بالجبل، والذي ترك بابه مفتوحاً، بل ووضع عنده مصباح يرشد إليه.. إذاً، فقد كُتبت له النجاة!.. ولم يحول بصره عن ذلك البريق المشجِّع. وما لبثت معالم المبنى أن ظهرت بوضوح، فإذا هو مبنى كبير، مرتفع، مشيّد من الأحجار الضخمة.

وصعد أخيراً درجات السلم، ودخل الملجأ. وأعلن وصوله نباح انبعث من حظيرة نائية للكلاب. ولم يصادف أحداً في الردهة التي كانت أشعة القمر تنفذ إليها.. فهل سيترك وحيداً مع يأسه وأشجانه، وقد بلغ برَّ الأمان؟.. وهمَّ بأن يستلقي على الأرض، لولا أن تذكّر ما قاله له الرجل الذي كان يرافقه في القطار: «فالمرء ـ إذا ما جن

الليل - يستطيع أن يأوي إلى حجرة في الطابق الأول، دون أن يستأذن أحداً!».

وصعد إلى الطابق الأول، فلجأ إلى أول باب، ولكنّه وجده موصداً.. وعالج الباب الثاني ففُتح، وإذا به في حجرة بسيطة، ولكنَّها مريحة، ضمّت سريراً ذا ملاءات نظيفة وغطاء كاف، ومنضدة للزينة، وأخرى ذات أدراج، ومقعدين أو ثلاثة، وبساطاً.. وابتسم مغتبطاً بهذا الأثاث. وبدت المبالغة في الكياسة والكرم، إذ كانت هناك زجاجة «روم» وكوب به سكر، وضعا بشكل يلفت النظر. وهدّأ الشراب من روعه.. وما أسرع نسيان الخطر لدى شاب في الخامسة والعشرين من عمره!..وقال لنفسه في فرح: «كأنني في بيتي.. ومع ذلك، فكأنني لص!».. وتأهّب ليستمرئ الحياة من جديد. ولكن الفكرة جعلته يجفل.. كأنه «لص» حقّاً!.. ألم يحكم بإدانته في قضية سرقة؟.. ونغّصت عليه الذكرى العابرة سروره، فسارع إلى النوم. وبعث دفء الغطاء السميك في جسده حرارة مستعذبة. وكان التعب قد أنهكه، فواتاه النعاس في الحال، دون أن يخطر له أن تلك أول ليلة يقضيها بعيداً عن إديث، وبعيداً عن إيطاليا، منذ هجر منزل الأسرة!

*

استيقظ موريس في اليوم التالي بعد الموعد المناسب للسفر إلى «بريج» بكثير. وما إن علم رهبان بيت الضيافة بتطورات رحلته حتى استبقوه في رعايتهم يوماً آخر. على أنه رفض أن يستقل عربة البريد في سفره، وإن أبت عليه عزّة نفسه أن يبوح بالباعث على ذلك!.. وقضى اليوم في راحة، وشبه نسيان. واعتراه في هذا المكان المنعزل، القائم على ارتفاع ألفي متر، مرح يشبه مرح الأطفال، تخلّلته فترات مفاجئة وقليلة من الهموم والوجوم. وراح

يأكل كالوحش المسعور، كما أنه تمشّى في أرجاء بيت الضيافة، ليخفِّف من التيبُّس الذي أصاب قدميه. وأخذ يداعب كلاب الصيد - ذات الشعور الطويلة - وهي في حظائرها، ويتأمل تأثير الشمس في الثلوج، وتباين أشكال قطع الجليد الناصعة الدقيقة. وتولّته الرغبة مراراً في أن يبقى في الجبل أمداً أطول، ثم أوى إلى فراشه مبكراً. وما كان في وسع من يراه أن يتصوّر أنه قد فارق - منذ وقت قصير - أعزّ حبيبة، وأنه كان في طريقه إلى فرنسا ليسلّم نفسه إلى الشرطة!.. ففي غمرة الأحزان المتكاثفة، تسوق إلينا المصادفات واحات غير مرتقبة، تعالج ما في فطرتنا من ضعف يوهن صمودها للألم، وتذكي غريزة حب البقاء الجامحة التي تسعفنا على الرغم منّا!

وفي الساعة الرابعة من صباح يوم الثلاثاء غادر موريس بيت الضيافة، بعد أن تناول قليلاً من الخبز والجبن، كان الأب الراهب المكلَّف برعاية الأغراب قد أصرَّ على أن يحملهما معه إلى الغرفة في الليلة السالفة، ليكونا له فطوراً في الصباح. على أن موريس رأى من الحكمة أن يحمل معه نصف هذا الزاد من قبيل الحيطة، إذ لم يكن مطمئناً إلى أن ما تبقّى في جيبه يكفل له زاداً بعد أن يدفع نفقات السفر. ولم يكن أحد ممَّن في المكان قد استيقظ بعد، فرحل متسلِّلاً كما حضر، وكان الباب مفتوحاً على مصراعيه كما وجده ليلة وصوله. واستقبله الظلام - بدلاً من القمر الذي كان يرجو أن يسير على هدي نوره - وأحس بالجليد متراكماً على السلم وهو يهبط الدرجات.. وكان مضطراً إلى أن يسير مسرعاً، إذ كان هبوط الجبل أقل سهولة من صعوده. وعندما بلغ الطريق، التفت ليتأمل المبنى الأسود في الظلام.. وخالجه الندم وهو يودّعه!

سار موريس إلى المستقبل المجهول في غير وجل، وقد استرد

ثقته بنفسه.. فقد سكب السلام - المخيم على الجبل وعلى الرهبان - سكينة وطمأنينة في قلبه، دون أن يفطن. وانطلق بخطى ثابتة وئيدة ليستعيد مكانه في «بيت الأسرة» الذي أضلته عنه نزوة عابرة!.. كانت المصادفة التي يدين لها بنجاته قد أعادت إليه - في الوقت ذاته - صوابه.. وكان في عودته إلى الحياة العادية ينهج نهجاً خياليّاً جريئاً - يتحاشاه سواه عادة - ويستمرئ تضحيته في حماسة وشغف!.. وكان الجليد قد تساقط ساعات طويلة في أثناء الليل، إذ إن الطريق لم تكن ممهّدة واضحة، فواصل السير وهو يخشى أن يضلّ. واجتاز نفقين أو ثلاثة نُحتت في الصخر، وكان الظلام فيها كثيفاً، حالكاً، حتى أنه ظنَّ - عندما بلغ نهاية أحدها - أنه قد فقد بصره، فراح يتلمَّس طريقه بطرف عصاه التي أمسك بها في يده اليمنى، بينما بسط ذراعه اليسرى إلى الأمام، رغم أنها كانت تحمل الحقيبة، ومضى يخوض في مستنقعات الماء المتساقط من الصخر. وأدرك أنه بلغ نهاية النفق عندما أحس بالهواء البارد، قبل أن يرى النور بفترة طويلة. على أن صعاب الطريق شحذت همته.. ذلك لأن المحن شيء لا غنى عنه للشبّان، وهم إذا سعوا إلى الحب فإنما يسعون عن رغبة جامحة متأججة في الحياة، أكثر مما يسعون عن رغبة في المتعة!.. وما أشبه ذاك الذي يهرب من الهناء بمتسوِّل لا يأسى على فقدان كل النِّعم!

وهكذا راح موريس يكافح البرد والثلج والليل والخوف بجَلَد وعزيمة، فإذا الصراع يذكي في كيانه حرارة الحياة. وأقبل نور النهار رويداً رويداً، ولكنَّ الشاب لم يفد منه كثيراً، إذ كان الضباب الأبيض قد أحاط به من كل جانب، كما يحيط البحر بالجزيرة الصغيرة! وبدت له الطَريق البديعة، التي تكشف للبصر عن جبال «البيرينيه»، وجبال «أليتشي» الجليدية، والمرتفعات الرائعة

المحيطة بوادي «الرون».. بدت له هذه الطريق وكأنها شُقّت وسط قطن متراكم. وكان يرى أحياناً شجرة من أشجار الصنوبر تهوي من مكانها تحت ثقل الصقيع، وتستلقي على بعد عشر خطوات منه.. وفي غمرة هذه المناظر الطبيعية الرتيبة، فطن إلى أنه قد وصل إلى «برييج»، خاتمة هذه المرحلة من مراحل كفاحه!

وأمضى في القطار يوماً بدا طويلاً مرهقاً، رغم اقترابه الحثيث من مسقط رأسه. وفي الساعة السادسة مساء، هبط في «ڤيڤييه»، وهي أقرب محطة إلى «شامبيري». ذلك أنَّ الخوف من أن تكشف شخصيته فيقبض عليه وهو يغادر القطار في البلدة، أُوحى إليه بهذا القرار. ومن ثم سار على قدميه في طريق «إكس»، فلمّا مرَّ بأسفل هضبة «كالڤير دو ليمنك»، توقّف، وهتف متأوّها: «إديث!».. وفطن إلى مدى ما باعدت هذه الأيام الثلاثة بينه وبين إديث.. ولمّا كان يحبها، فقد أخذ يلوم نفسه على قسوته. ثم اقترب من الحاجز الذي كان مقاماً على حافة الهوّة الجاثمة تحت الهضبة.. وكانت أنوار «شامبيري» تتألق، فاجتذبته. ولكنه قال لنفسه: «المقبرة، ثم البيت!».. ومن ثم آثر أمّه بالزيارة الأولى، ولكنَّه وجد دار الموتى مغلقة، فلم يستطع أن يدخلها. ثم سلك بعض الطرق الملتوية، حتى بلغ البيت. وكانت ثمة ساعة تدق الثامنة.. وكان موريس مقروراً، جائعاً، فإلى أين يولّي وجهه إذا لم يولّه نحو هذا المكان؟

وضغط زر الجرس وقلبه يخفق بعنف، ففتحت له الباب خادم جديدة. وبدلاً من أن يدخل في غير كلفة، سألها بصوت متحشرج: «الآنسة روكڤيار!».. فقادته إلى البهو، وتركته فيه. وفكّر في الهرب - تحت وطأة الذل والخزي - إلى أي مكان آخر في الدنيا. أية قوة غريبة تلك التي راحت تدفعه دفعاً حتى انتهت به إلى بيت أبيه؟.. وما لبثت مرغريت أن أقبلت، فارتمت عليه هاتفة: «أنت..

أهذا أنت يا موريس؟».. وبينما كان يغالب البكاء، قالت له: «إنني أنتظرك منذ أمس!».. وقادته إلى غرفة المائدة، فاستسلم لرعايتها وهو محطم الفؤاد، خائر القوى. ولم يكن غطاء المائدة قد رفع بعد العشاء.. وسألها في شيء من الخوف: «وأبي؟».. فأجابت: «لقد احتبس نفسه في مكتبه بعد العشاء، وانكبَّ على العمل، بينما انهمكت أنا في تغيير ثياب جوليان الصغير.. سأخطر أبانا بمقدمك!».. فهتف: «لا يا مرغريت.. لا تذهبي».. وسألته في دهشة: «لماذا؟». ولكنه لم يجب بأكثر من «لست أدري».. ثم تمتم بعد صمت ثقيل: «أترينه قد تغيَّر كثيراً؟».. فأجابته: «أجل».

كان جائعاً، ولكنه لم يقو على تناول شيء من الصحاف التي أحضرتها مرغريت من المطبخ بنفسها. وأدركت ما به، حين رأته مستغرقاً في التفكير، فتسلّلت ثم ركضت إلى حجرة مكتب أبيها، وصاحت به: «أبي.. إنه هنا!».. وكان السيد روكڤيار منكبّاً على أحد الملفات، فنهض فجأة بحركة عنيفة، إلاّ أنه تمالك نفسه سريعاً وقال: «لقد تأخَّر كثيراً».. وهتفت مرغريت في ضراعة: «ألا تقابله؟.. إنه جد تعس!». ففكر روكڤيار، ثم قال في عناء: «سأقابله غداً، في السجن، لأدبِّر الدفاع عنه.. وليس الليلة!». وإذ أجهشت مرغريت بالبكاء، ضمَّها إلى صدره قائلاً: «أما أنت، فاعتني به، وإذا كان متعباً فاسهري على راحته. فلن يزج به في السجن قبل غد!».

ـ ألا اصفح عنه يا أبي.. من أجل خاطر أمنا!

ـ آمل يا مرغريت أن يثبت يوماً أنه أهل لصفحي. أما الآن، فلست أقوى على أن أنسى بهذه السرعة ما ألحقه بنا من أذى برحيله.. إنني أرغب في أن يدرك مدى هذا الضرر ويقدِّره، فإن هذا ضروري لنا ـ بالنسبة إلى ماضينا ـ وله، بالنسبة إلى مستقبله!.. لا

تبكي، فإنني لم أكف عن حبه.. بل إنَّ عودته تثلج صدري!».

وقد غادر السيد روكڤيار غرفته فيما بعد ـ بعد ذلك بوقت طويل ـ فتسلّل إلى غرفة ابنه، على أطراف أصابع قدميه، وحجب ضوء المصباح الساهر بيده، ثم أَنصت برهة إلى الأنفاس الخفيفة المنتظمة التي كانت تتصاعد من ابنه النائم. وإذ ذاك، أضاءت ابتسامة رقيقة ذلك الوجه الذي عصف به الأسى.. وهتف الأب لنفسه: «ها هو ذا هنا.. هذه هي النقطة الجوهرية. ولسوف أبرّئه وأنقذه، وأنقذ معه السلالة كلها!».

القسم الثالث

1 - المتّهم البريء

عندما دخلت مرغريت إلى غرفة مكتب أبيها ـ كعادتها في كل يوم ـ لتشعل المصباح، وتسدل الستائر على النوافذ،ولتخفّف عنه أحزانه ـ قبل كل شيء ـ وجدته يراقب هبوط الظلام السريع. قال لها حين رآها: «أهذه أنت؟ إن الضوء لم يكن كافياً ليسمح بالعمل!». واعتذر عن شرود ذهنه كما لو كان قد ارتكب خطأ. على أن مرغريت كانت تعرف سبب انشغال باله الذي لم يشأ أن يفصح عنه. وسألته: «إنَّ هؤلاء السادة لم يحضروا بعد؟».

ـ إنني أنتظرهم من لحظة إلى أخرى.. لا بد أنهم رأوا موريس في السجن بعد ظهر اليوم.

ـ ومَن الذي سيترافع؟ هل سيكون الأستاذ هاميل؟

ـ إنَّ الأستاذ هاميل نقيبنا. ولمّا كان موريس مسجَّلاً في النقابة، فقد طلبت من النقيب أن يتولّى الدفاع عنه.. وهو تقليد مرعيّ. ومع أن الأستاذ هاميل يرعى مهنتنا، بما يشرّفها، منذ نصف قرن تقريباً، إلاّ أنه يرى أنه قد تقدَّم في السن، وأنه متخصّص في مسائل القانون المدني إلى حد لا يمكّنه من تولّي الدفاع في هذه القضية. وهو يريدنا أن نكل هذه المسألة إلى الأستاذ «باستار»، وهو أشهر مَن يترافع أمام محاكم الجنايات، كما أنَّ له في الواقع تأثيراً كبيراً في المحلّفين.

وحين سمعت الفتاة اسم «باستار»، بدا عليها شيء من الامتعاض، وقالت: «لقد سمعته وهو يترافع يا أبي. إنك تجيد

الكلام خيراً منه!»، فتأثّر المحامي الشيخ لهذه الإجابة وقال:

ـ «إنني لا أجيد الكلام يا صغيرتي.. إنني أقول ما أعرفه فقط!

ـ لماذا لا تتولّى أنت الدفاع عنه؟

ـ ماذا؟ هذا مستحيل! ألا تدركين الأمر؟

فتقدّمت إليه ووضعت يدها على كتفه.. ثم أسندت رأسها إلى صدره وتمتمت قائلة: «ألم تصفح عنه بعد؟».

ـ إنّه لم يسألني الصفح!

ـ ذلك لأنّه يتألم يا أبتِ!

ـ نعم، ربّما. إنّ القدر يسوطه بقسوة، ولكنه هو الذي استفزّ القدر!

ـ تذكّر أمّنا!

فانحنى ليقبّل جبهة ابنته قائلاً: «لا تطلبي مني أن أكون ضعيفاً يا مرغريت! لقد زرته مرّتين في السجن، فوجدته سادراً في كبريائه.. ثم إنّه لم يعبّر لي عن أي أسف لمسلكه الذي جلب علينا كل هذه الأضرار!.. إنني لا أنتظر منه غير كلمة لأصفح عنه، ولكنّنا لا نتبادل غير عبارات تافهة!».

ـ إنّه يبكي أمّنا عندما يكون معي.. أمّا معك فهو لا يجسر على ذلك!

ـ إن واجبي يقتضيني أن أنتظره.. وسأنتظره!

ولمّا كانت مرغريت مطأطئة الرأس، فإنّها لم تر العذوبة الحزينة التي انتشرت على الوجه المكتهل فخفّفت من قساوة كلماته. وردّدت الفتاة قائلة: «إنه يتألم! إنه تعس!». فقال السيد روكڤيار: «ونحن؟ ألسنا نتعذب؟!».. ثم رفع رأس الفتاة برقة، وسألها بدورها ـ مغيّراً مجرى الحديث: «ماذا فعلت بعد ظهر اليوم؟».

فأجابت: «لقد خرجت في نزهة مع الصغير جوليان، ثم كتبت خطاباً مطوّلاً إلى هوبير».

ـ آه! لقد كتبت إليه أنا أيضاً.

كان هوبير، هو الآخر، مبعث قلق لهما، إذ تضمّن آخر خطاب، ورد لهما من السودان، أنباء عن إصابته بالحمى، ومرضه في كوخ منعزل دون أي عناية طبية. ومع أنه هو نفسه كان يهزأ من هذه الوعكة التي لا خطر منها، إلاّ أنَّ عبارة خاصة في الخطاب ـ صيغت في قالب وداع حنون! ـ صدمت أباه وأخته وأحزنتهما حزناً عميقاً.. ومن ثم صمتا وقد انقبض قلباهما. ثم أشعلت مرغريت المصباح لتطرد الظلام الذي كان يملأ الحجرة ببوادر الشؤم!.. وبينما كانت تسدل الستائر، إذا بطرق على الباب، فقال السيد روكفيار: «ها هما قد جاءا».

ولم يكن لدى الفتاة متسع من الوقت لتمرق منصرفة خلال الباب المؤدي إلى المسكن قبل دخول الضيفين.. بل إنَّ أباها كان قد تقدَّم بالفعل لاستقبالهما.. ودخل الأستاذ هاميل أولاً، يتبعه الأستاذ باستار.

*

كان النقيب هاميل يتمتع حقّاً بمركز محترم في نقابة محامي «شامبيري»، فرضته سنّه المتقدمة وغزارة مادته القانونية وحياته الوقورة. وكان شيخاً في الخامسة والسبعين من عمره، نحيلاً بحيث يكاد يتأرجح في سترته الرسمية ـ (الرّدنغوت) ـ البالية، التي كان يؤكّد في إصرار أنها ستبقى ما بقي هو في قيد الحياة، فإذا حلّ الشتاء لم يجد غضاضة في أن يلتحف بمعطفه الذي بلي كمّاه. وكان يجلّل وجهه الحليق تاج من الشعر الأبيض الأشعث، كما كانت وجنتاه الشاحبتان تبدوان شفّافتين. ومع أن قامته الفارعة

انحنت، كما تنحني الأشجار الهزيلة التي تعبث بها الرياح، إلاّ أن خلقه لم ينحن قط. فما استطاع شيء أن يجعله يحيد عن مبادئه الثابتة، التي اعتنقها منذ شبابه وسار عليها مترسِّماً تقاليد أسرته! وكان فاتر اللهجة، مترفّعاً، ذا صوت آمر، يظهر من الصلابة في التمسّك بمبادئه القدر ذاته الذي يظهره من المجاملة في علاقاته الاجتماعية. وكانت عظمته تلك تتبدّى في الظروف العادية والظروف الهامة على السواء، فلم تتأثّر نفسه بما تعاقب عليها من رخاء وعسر.. على أنه عرف الشدائد - على الأخص - في سني حياته الأخيرة، وفي الوقت الذي يحق للإنسان أن يخلد إلى الراحة. فلقد جلبت عليه تصرُّفات ابنه السّيئة، وإسرافه، الخراب، فاستأنف الرجل عمله من جديد - ببساطة! - ليكسب قوته اليومي!

على أنه قلّما كان يترافع في قضايا، إذ كان «المستشار» الذي يلجأ الناس إليه فيما دق من الأمور التي ما كان يبدي فيها غير الرأي المتزن، الصائب. ولم يكن يرى قط خارج مكتب استشاراته الصغير، المتواضع، الذي كان يقصده الناس ليعرضوا على صاحبه - بصفة خاصة - قضايا الصلح والتحكيم، كما كانوا يعرضونها على قاض جليل!.. فإذا خرج، ففي المساء، ليذهب إلى الكنيسة بخطى لا تخلو من السرعة، وقد بدا عليه التأثر والخشوع وعدم الاكتراث بالعالم الخارجي، مصغياً إلى صوت الله الذي كان ينتظر نداءه بصبر خاضع.

وبالرغم من فارق العمر بين روكڤيار وبين هاميل، فقد توطّدت بينهما صداقة من تلك الصداقات القديمة التي تدعم أواصرها الحياة المتشابهة والكفاح المشترك، إلى الحد الذي يجعلها تتساوى مع صلات الدم!.. فقد تعهّد هاميل نشأة روكڤيار المهنية، كما آزر هذا الأخير هاميل في محنة انهيار مركزه المالي، مناضلاً

ضد الدائنين، حاصلاً على تأجيلات وإمهالات، منظِّماً على أحسن وجه عمليات البيع وسداد الديون. فلمّا أُصيب ابن هاميل الأصغر- بدوره! - بالضربة ذاتها، كان أخوه الأكبر قد تخلّص من متاعبه وخرج من ورطته، إلاّ أن الأب كان قد بدأ يشعر بالعجز وبرودة السنين.

وقد فرضت عليه شهرة «باستار» أن يضعه في المكان التالي له. وكان هذا الشاب - فهكذا كان يحلو للمحامي الشيخ أن يدعوه رغم سنيّه الخمس والأربعين - لا يكفّ عن مضايقته بنوع من الوقاحة في المناقشة، وبنظرته إلى القضايا من زاوية أتعابها!. أمّا في ساحة المحكمة، فقد كان مرهوباً كجيش مسلح!.. كان ساخراً لاذع اللسان، مستهزئاً أو مثيراً، يكيِّف صوته كما يفعل أي مغنّ قوي الحنجرة، وحركاته كأي ممثّل بارع، ومن ثم أهّله كل ذلك لأن يقوم بالدور الأول في الجلسات!.. وبذقنه المرسلة، وقسمات وجهه الدقيقة، وصلعته اللامعة - كاللافتات البرّاقة! - واهتزازاته وارتعاشاته، كان يسيطر على الجلسة كلّها، ثم ينتهي به الأمر إلى أن يطوي المحلّفين والقضاة والخصوم في ثنايا ردائه الذي كان ينشره كالراية!.. هذا التفوّق الذي لا يمكن إنكاره، والذي كان يتمتع به «باستار» في محاكم الجنايات، كان من الواجب أن يوضع موضع الاعتبار. وعلى هذا، وبالرغم من أن «هاميل» كان «خادم الحقيقة المطيع»، الذي يكره بهرج الفصاحة وزخرف المظاهر، إلاّ أنه آثر أن يطرح مبادئه الخاصة جانباً في هذه القضية، حتى يزيد بذلك من الضمانات التي تكفل تبرئة ابن صديقه روكفيار.

ومع أنَّ روكفيار لم يكن من المعجبين بالأستاذ باستار، وكان كثيراً ما يتصدّى له في قاعة الجلسات - في غير هوادة - ليكشف عن تمثيلياته وألاعيبه بأسلوب سهل يتمثّل في الاتجاه مباشرة إلى

الهدف، بسرعة الفرسان، إلاّ أنّ ذلك لم يمنع «باستار» من أن يخفّ إلى معاونته معاونة تفرضها الزمالة، وسارع إلى قبول الدفاع عن «موريس» بحماسة واندفاع!

*

بعد تبادل التحيات والمجاملات، لخّص النقيب «هاميل» الموقف في بضع كلمات:

ـ إنك تعلم، يا صديقي العزيز، أني رجوت زميلنا «باستار» أن يخفّ إلى مساعدتنا، بعد أن بلغت من الشيخوخة حدّاً لا أستطيع معه استثارة العواطف. وعلى هذا فسوف يترافع هو، على أن أتولّى أنا مساعدته. وقد درسنا ملفّ القضية معاً، وزرنا ابنك في السجن، إلاّ أن ثمة صعوبة تصادفنا.

فقال الوالد في لهفة: «ما هي؟».

ـ إنّ «باستار» يستطيع أن يوضحها لك أفضل مني.

فهزّ هذا رأسه «الجميل»! ولمّا كان يعلم أن لا فائدة من اللجوء إلى العبارات الفضفاضة في هذا المكتب، فقد قنع بعرض واضح مختصر: «نعم، لقد درست ملف القضية. إنّ الدليل الماديّ على إساءة استعمال الثقة ثابت من أقوال الموثّق ومحضر رئيس الشرطة. أمّا أنا فلا أجد أدلّة ضد ابنك، وإن كانت هناك قرائن خطيرة: فقد كان يعلم بإيداع المبلغ في الخزانة، وكان آخر من بقي في المكتب بعد أن حصل على المفاتيح، وأمكنه أن يكتشف أرقام الخزانة الحديدية السرية من مفكرة رئيس الكتّاب التي كان الرقم مقيّداً فيها، ولم تكن له موارد خاصة كبيرة، وكان يريد اختطاف زوجة رئيسه. كل هذه الوقائع جعلوا منها مادة لإقامة الدعوى. يضاف إلى ذلك: السفر إلى الخارج، والتزام الصمت، والعودة المتأخّرة. ثم إنّ أقوال المدعو فيليبو ـ خصوصاً ـ مفعمة بالمرارة والحقد! ولا بد

أن تكون الغيرة قد ملأت قلب هذا الشاب من زميله الذي كان مفضَّلاً عليه. ويخامرني الشك في أنه كان يحب السيدة فرازن حبّاً يائساً من طرف واحد. فقد كانت امرأة لا تقاوم! صحيح أنها نحيلة، ولكنها ذات عينين جميلتين! إن هذا النوع من النساء لا يستهويني!».

ولمّا كانت نفس «باستار» قد قُدّت من معدن رخيص، فإنّه لم يشعر بأن ملاحظته هذه كانت في غير محلها، وبأن وجود والد المتّهم كان يفرض عليه أن يكون أكثر تحفّظاً!.. وبعد أن توقف برهة استأنف كلامه: «لا يكفي موريس أن يعلن أنه بريء، فما دامت السرقة قد وقعت، فإنَّ المحلّفين سيبحثون عن مذنب، ومن واجبنا أن نكشف لهم عنه. وقد لاحظت دائماً أن الاتهام أقوى أثراً من الدفاع.. فهو يحوّل الاهتمام عن مكانه ليركزه في مكان آخر. وأنا أستخدم هذا الأسلوب بنجاح دائماً. أمّا في الحالة التي نحن بصددها، فإنَّ المتهم معين كل التعيين!».. وتناول مجموعة المواد القانونية وراح يقلّب صفحاتها، بينما كان مستمعاه يصغيان إليه دون أن يقاطعاه: اعلما أنَّ السيدة فرازن لا تتعرّض لأي خطر.. فإنَّ المادة ٣٨٠ تحميها: «الاختلاسات التي يرتكبها الأزواج بقصد الإضرار بزوجاتهم، والزوجات بقصد الإضرار بأزواجهن.. لا يمكن أن تكون محلاً إلاّ لتعويضات مدنية».

فعقّب الأستاذ «هاميل» قائلاً: «إننا نعرف ذلك!».

ـ إنَّ أفراد الأسرة الواحدة لا يسرق أحدهم الآخر، ومن ثم ليس في إماطة اللثام عن السيدة فرازن ما يعرضها للعقاب. بل هناك ما هو أفضل! إنَّ إحساسي لا يخدعني قط! لقد حصلت على عقد زواج فرازن، إذ فكّرت في أنني لا بد أن أعثر فيه على شيء. وقد حصلت على نسخة من العقد بوساطة أحد وكلائي في «غرينوبل»، فوجدت

فيه الدليل على أن السيدة فرازن، بأخذها مائة ألف فرنك من الخزانة الحديدية الخاصة بزوجها، إنّما ظنت أنها تستوفي حقّاً لها!

وفي هذه المرة، تكلم روكڤيار فقال: «إنني لا أفهم!».. فقال «باستار»: «سوف تفهم.. فإنَّ الأمر من الوضوح بحيث يخطف الأبصار! فلقد قرّر فرازن لزوجته، في بنود العقد، منحة قدرها مائة ألف فرنك».. فسأل روكڤيار: «في حالة بقائها على قيد الحياة من بعده؟».

ـ لا، بل فوراً! ولكن كان من الطبيعي النصّ على إلغائها في حالة الطلاق.. فإنَّ النظام الذي تم الزواج في ظله هو نظام انفصال الممتلكات. ولمّا كانت السيدة فرازن تجهل القانون، فقد افترضت أنها تملك هذا المبلغ، وأنها بتركها منزل الزوجية يصبح لها الحق في أن تأخذه معها. إنه تعليل سخيف، ولكن لا عجب فهو تعليل امرأة!.. ومن هنا أفهم السبب الذي من أجله حرص السارق على أن لا يسحب غير مائة ألف فرنك، من مبلغ المائة والعشرين ألف فرنك، الذي كان في المظروف. إنَّ هذا ليس سرقة، وإنّما هو استيفاء حق.. وقد ظنت السيدة فرازن أنها تستوفي حقّاً لها!

فقال روكڤيار، مبدياً اهتمامه بهذه الحجة الدامغة: «نعم، إنَّ العقد يفسّر كل شيء!».. فبدأ باستار يتّقد حماسة، ويحرّك ذراعيه الكبيرتين، قائلاً: «إنَّ هذا معناه البراءة المؤكدة التي لا جدال فيها. فأي محلّف يستطيع أن يصمد أمام دليل كهذا؟ إنني لم أحصل إلاّ في النادر على أمثال هذه الأدلة الدامغة القاطعة، أمام محاكم الجنايات!».

فغمزه النقيب قائلاً: «إنك لا تدافع دائماً عن أبرياء!».

ـ أبرياء أو مذنبون.. إنَّ الذي يهم هو الدليل، والدليل هنا في أيدينا!

وأمّا والد المتهم، الذي كان يريد رد اعتبار ابنه كاملاً، فقد قال

عندئذ: «إنَّ العثور على العقد هو في الواقع عنصر هام لصالح الدفاع، وستعرف يا «باستار» كيف تستخدمه - بفصاحتك! - أحسن استخدام، وبهذا يمكننا إحراز النجاح النهائي. ولكن ثمة نقطة ألحّ عليك بالرجاء في أن تعالجها في أثناء مرافعتك.. فإنَّ موريس لم يسافر وهو خالي الوفاض مع السيدة فرازن، إذ إنه حمل معه أكثر من خمسة آلاف فرنك، اقترض الجزء الأكبر منها من شقيقتيه وعم أبيه «إتيين» وزوجة عمه السيدة تيريز روكڤيار، الذين سيشهدون بذلك إذا اقتضى الأمر. وفي مدينة «أورتا» التي لجأا إليها، تلقى شيكاً بمبلغ ثمانية آلاف فرنك، من شركة شامبيري للتسليف، التي يمكنها أن تقدّم كعب الشيك. وهذه البيانات ضرورية من وجهة نظر مزدوجة: فأولاً، هي تردّ مقدَّماً على اتهام جديد قد يلجأ إليه المدعي بالحق المدني، تاركاً المادة ٤٨٠ التي تنص على إساءة استعمال الثقة، ليتذرّع في هذا الاتهام بالمادة ٣٨٠ مكرّرة: «بالنسبة إلى جميع الأشخاص الآخرين، الذين يكونون قد أخفوا أو استخدموا لمنفعتهم الأشياء المسروقة أو جزءاً منها، فإنَّ هؤلاء يعاقبون كمتهمين بالسرقة».. ومن ثم يجب أن لا يكون هناك أي مجال للبس. وحتى إذا لم تكن هذه المادة موجودة، فإنني لا أزال أحرص حرصاً أكيداً على حماية شرف ابني من تبعة الاشتراك في حياة لا يتحمّل هو نفقاتها!».

فأمّن الأستاذ «هاميل» على ذلك بقوله: «حسن جدّاً». وردّد «باستار» العبارة ذاتها، ولكن بلهجة مغايرة. أما روكڤيار، الذي كان الدفاع قد ألهب وجهه بإشراقة الأمل في الخروج من هذه المحنة، فقد لخّص الموقف في كلمتين: «الآن، نحن مسلّحون، والنصر أكيد».. فنظر إليه النقيب بعينين حزينتين كستهما الشيخوخة بزرقة باهتة، وقال: «هل تراك نسيت، يا صديقي،

الصعوبة التي حدثتك عنها في بداية مقابلتنا؟!».. فعادت الكآبة إلى وجه روكڤيار، وقال: «أي صعوبة؟».

وهنا عاد «باستار» يحتل مكان الصدارة الذي لم يكن ليتخلى عنه مختاراً، إذ قال: «هاك هي: إنَّ خطتنا المحكمة، التي لا يحتمل نجاحها أي شك في رأيي، قد تفشل بسبب عناد ابنك!».. فهتف الأب: «عناد ابني؟».

ـ تماماً! فقد أوضحنا له في السجن قبل مجيئنا ما قرّرنا فعله لإنقاذه.. أفتعرف بماذا أجابنا؟

ـ آه! أخشى أن أكون قد استنتجت جوابه!

ـ إنه يعارض بشدة في أن يذكر محاميه اسم السيدة فرازن، وهو يهدّد بأنه سيلقي التهمة على نفسه، في الحال، إذا حدث هذا.

فغمغم روكڤيار في صوت خفيض: «هذا ما كنت أخشاه!».

ـ لقد حاولت دون جدوى أن أقنعه بأن هذه شهامة فرسان مضحكة، وأن ذلك الدفاع لا يشهّر بأي إنسان، طالما أن السيدة فرازن ليست معرضة لأيّ تبعات، وما دام أن ما فعلته يعزى إلى عدم خبرتها بهذه الأمور، وإلى سوء تأويلها لعقد زواجها. ومع ذلك ذهبت كل جهودي أدراج الرياح، إذ اصطدمت بعناد لا يقهر!

ـ وهل قدّم لك أسباباً؟

ـ سبب واحد: الشرف!

ـ إنَّه سبب من بين الأسباب؟!

ـ لا، إنَّها مجرد عاطفة! ولكن أمام القضاء، يجب أن لا ننظر إلى أنفسنا من زاوية الشرف، وإنما من زاوية القانون!

أمّا النقيب «هاميل»، الذي لم يحبِّذ هذه النظرية، فقد عرض الأمر في شكل آخر، إذ قال: «إنَّ شرف السيدة فرازن هو الذي

يعنيه بصفة خاصة! ولكي يحافظ على شرفه هو يتعيّن عليه أن يقيم الدليل على أنه لم يسرق مبلغاً من المال، ولا انتفع من اختلاس وقع من شخص آخر. ويمكنه إثبات الأمر الأول بتقديم عقد زواج السيدة فرازن، وإثبات الأمر الثاني بالشهادة المحررة من البنك الدولي في ميلان، حيث أودعت أموال السيدة فرازن. ولكنه يرفض بشدة تقديم هذه الأدلة!».

ـ وهل أحطته أنت علماً بذلك؟

ـ لقد أحطته علماً به، وأنه يعرّض نفسه لخطر جسيم إذا مثُل أمام المحلّفين وهو أعزل من السلاح!

ـ وبماذا أجابك؟

ـ أجاب أنَّه لن يدع قط السيدة فرازن تتّهم بأي شيء كان، وأنه يحظّر على المدافع عنه أن يلفظ ولو مجرد اسم هذه المرأة! وقد وجدناه مصرّاً على ذلك إصراراً لا يلين!.. وحين اعترض عليه «باستار» بقوله: «إذاً، فقل لنا كيف تريدنا أن نضطلع بمهمة الدفاع عنك؟»، أجاب في أنفة: «كيف يمكن لإنسان أن يتصوّر أنني مذنب؟ فلينظروا من أي أسرة أنحدر، ومن أنا.. ويجب أن يكون في هذا الكفاية!».

واستطرد «باستار» يقول، وهو يربت ذقنه الجميلة في رضًى: «أي ابن هذا؟ إنَّ شرف الأسرة حجة قوية من غير شك، وفي نيتي أن أستفيد منها في المحكمة، ولكنها على أية حال حجة ثانوية.. فهي لا تمس صميم الموضوع، ولا يستطيع الإنسان أن يتذرّع بأقربائه في المرافعة.. وإلاّ فلماذا لا يستشهد بالأموات؟!». فأجاب الأستاذ «هاميل» بشيء من الخضوع: «لو طلبنا شهادة الأموات لشهدوا لنا!».

ـ يجب أن لا ننسى أنَّ هناك متّهماً. وسيبحث عنه المحلّفون،

فإذا لم يكن هذا المتّهم هو العشيق فسيكون العشيقة.. وإذا لم يكن العشيقة فسيكون العشيق! وفي يدنا الدليل على اتهام العشيقة، فكيف نأبى أن نقدِّمه؟ إن هذا ضرب من البلاهة! لقد حذرت ابنك، يا زميلي العزيز، من أنني لا أستطيع قبول مهمة الدفاع عنه في هذه الظروف، وهأنذا أكرّر لك الآن هذا القول. إنّك تعلم جيّداً مبلغ حماستي للاضطلاع بهذه المهمة، وبأيّ عناية سأتوفر على تأديتها. فإذا شُلّت حركتي، فماذا عساي أستطيع أن أفعل؟ إنك تراني شديد التأثر من هذا القرار الذي اتخذته، ولكن من المستحيل عليَّ أن أتقدّم إلى المحكمة وأنا مكتوف اليدين هكذا!

فمدَّ الوالد التعس يده إليه وهو يقول: «إنني أفقد معاونة قيّمة، وقد تكون فيها نجاة ابني. إلاّ أنَّ الدفاع يجب أن لا يعوقه أي عائق في سبيل تأدية واجبه!».. وبالرغم من أنه لم تكن ثمة مودّة متبادلة بين المحاميين، إلاّ أنهما كانا متساويين في درجة التأثُّر.. فليس عبثاً أن يشترك اثنان في مهنة واحدة، وفي معارك واحدة،وأن ينشغل عقلاهما بمشاكل واحدة!

قال الأستاذ «باستار» وهو يهم بالنهوض: «فلتذهب أنت لرؤيته، وقد توفَّق في الحصول منه على ما لم نحصل نحن عليه!»، ولكن الأب قال: «لا.. لا أعتقد ذلك!». ولم يستمع المحامي إلى رأيه، بل مضى يتمّ حديثه: «فإذا أفلحت في إقناعه وجدتني رهن تصرفك، ويمكنك أن تعتمد على مجهودي الخاص. لقد قاربت الساعة العاشرة، فاعذرني، لأنَّ عندي موعداً خاصّاً ببعض الأعمال».

فاصطحبه روكڤيار إلى الباب، وشكره على العتبة قائلاً: «لقد اختلفنا يا زميلي في بعض الأحيان، ولكنني لن أنسى قط أنك لم تبخل عليَّ بإخلاصك وكفاءتك في أحرج ظروف حياتي!»..

فأجاب المحامي «الكبير» ـ الذي دهش لحب نفسه للخير: «لا، لا.. فقد ظننت أنني سأوفّق أكثر من قبل. إنها قضية مثيرة! فلتقنع ابنك، وعندئذ أعود إليك!».

وعندما عاد روكڤيار إلى مكتبه، وجد الأستاذ «هاميل» قد اقترب من المدفأة وأخذ يحرّك النار وهو شارد اللبّ، فجلس بجواره. وظل الاثنان وقتاً طويلاً يفكران في صمت. وأخيراً قال النقيب متابعاً استطراداته السابقة: «إنَّ صوتي لم يكن مجلجلاً في يوم من الأيام، وقد أوهنته السنون.. ولم أكن أُعنى في مرافعاتي بغير إظهار الوقائع، دون استثارة العواطف، ومع ذلك فسأكون هناك، وسأقول بضع كلمات عن أسرة المتّهم، وعن المتّهم نفسه. ولكن يجب أن يكون هناك محامٍ أصلي، إذ ليس في مقدوري سوى مساعدتك فقط يا صديقي!».

ولم يدلِ برأيه في مسلك موريس.. ومن المحتمل أنه لم يجد له تفسيراً. فقد كان يطوي نفسه على حذر ـ يقرب من الاحتقار ـ من المرأة.. حذر كثيراً ما نجده في خاتمة حياة متقشّفة منظّمة!.. إنَّ شرف امرأة كالسيدة فرازن لم يكن يساوي في رأيه كل هذه الرعاية. وقد رُوي عنه هذا الحادث البالغ الحساسية: في ذات يوم، حيّا امرأة ذات سمعة سيئة، فاستغلّت المرأة تحيّته وراحت تزهو بها، إذ كان رجلاً مشهوراً بالوقار. وعرف هو ذلك، فإذا به يكفّ منذ ذلك الحين عن تحية كائن من كان في شوارع المدينة!

وفي صوت جهير، تساءل روكڤيار ـ الذي كان أقدر من غيره على فهم ابنه: «تُرى، هل سيوفّق المحلّفون إلى استنتاج ما ينطوي عليه صمت موريس من النبل والشهامة؟ إن هذا قليل الاحتمال!»... فأجاب «هاميل» مؤكّداً في وضوح: «إنَّ هذا مستحيل. إنَّ ابنك يلقي بنفسه إلى التهلكة، في الوقت الذي لا

تدعو الحاجة إلى إنقاذ هذه المرأة. ولكن، أليس من حقنا أن ندافع عنه بالرغم منه؟!».

ـ وكيف يكون ذلك؟

ـ إنك تعرف، كما أعرف أنا، أنَّ الدفاع إجباري في محاكم الجنايات. فإذا لم يحضر عن المتهم محام موكل منه، كان على المحكمة أن تعيّن له محامياً يختاره الرئيس. فإذا عين الأستاذ «باستار» من المحكمة ـ ويكفي أن أشير على الرئيس بتعيينه بصفتي نقيباً ـ فإنه سيصبح مطلق الحرية في الدفاع، ولو أنه يكون معرَّضاً لخطر الردّ من موريس في هذه الحالة!

ـ ولكن هذا الردّ، إن حدث، سيؤثر في المحلّفين تأثيراً سيّئاً!

ـ إنني لا أرى سبيلاً آخر، إلاّ إذا..

وصمت الشيخ الوقور، ولم تفلح استفسارات روكفيار العديدة في إخراجه من صمته. وما لبث هذا الأخير أن تمتم: «إنها قضية خاسرة!».. وعندئذ نهض «هاميل» قائلاً: «إنك تؤمن بالله مثلي يا صديقي.. فتوسّل إليه يلهمك سواء السبيل! إنَّ ابنك بريء، ويجب أن يُحكم ببراءته. إن غلطته الحقيقية لا تتّصل بالعدالة الإنسانية.. فهي لا تضر أحداً سواه.. وسوى أسرته مع الأسف!».

واستعدّ للرحيل متّجهاً إلى الباب، ثم تراجع إلى الخلف وفتح ذراعيه لزميله فجأة. وأفصحت هذه الحركة الفريدة عن عمق الحنان الذي كان مختفياً تحت الصرامة منذ عدد كبير من السنين.. كانت حركة مدهشة، عذبة، مثل التعبير الذي يرتسم نضيراً، طاهراً، على وجه امرأة عجوز، أو مثل تلك الورود التي تستمر في النمو حتى عندما تغطّيها الثلوج!.. وتعانق الرجلان عناقاً مؤثراً، ثم قال روكفيار لصديقه: «لست أنت مَن يمكن أن يتخلّى عنّا. شكراً لك!».. فرد الشيخ: «إنني لا أزال أذكر أفضالك!».. ووضع على

كتفيه معطفه الذي كان كماه الفارغان يتأرجحان، ثم خرج إلى الردهة بخطى مسرعة، بحيث وجد مضيفه صعوبة في مرافقته حتى الباب الخارجي.

*

عندما وجد روكفيار نفسه وحيداً جلس إلى المنضدة ـ التي طالما حلّت عليها مشكلات مالية وأدبية ـ ووضع رأسه بين يديه، ثم راح يبحث عن طريقة ينقذ بها ابنه الذي يكون فقدانه فقداناً للسلالة كلها !.. ولمّا كان أقل صلابة وأكثر ترفّقاً وقدرة على فهم الحياة والناس من الأستاذ هاميل ـ المنطوي على مبادئه المتزمّتة، كما لو كان يعيش في أعلى برج! ـ فقد عرف في تشبث المتّهم بموقفه ذلك العناد وعدم التخلي عن المسؤولية اللذين قوّيا وشدّا من أزر أسرة روكفيار جيلاً بعد جيل!.. ولكن ابنه يستخدم تلك الصفات ذاتها لتحطيم قوة الأسرة: فلكي يقيم صرح سعادته الخاصة، عرّض للانهيار والتقوّض ماضي أسرته ومستقبلها.. هذه الأسرة التي حافظ على صفاتها المميزة، حتى في الخطإ الذي ارتكبه!.. ولمّا كان الأبَ يجد في ابنه إنساناً مجرّداً من الجبن والدناءة، فقد فكر في أنه إذا قُدّر لابنه أن يحتل مكانه يوماً ما في الأسرة و المجتمع، فإنه لن يدع تقاليد الأسرة تضعف، وسيوجّه إمكانيّاتها ومقدّراتها ـ التي أساء استعمالها ـ إلى هدفها الأصلي الطبيعي!.. ومن ثم يجب انتزاعه سليماً من هذه النزوة ـ التي يأبى التخلص منها ـ أيّاً يكن الثمن، «إلاّ إذا...»، وأعاد روكفيار التفكير في عبارة النقيب الغامضة التي صدمته.. ترى ماذا يعني هذا الاستدراك؟

ورفع رأسه، واستند بظهره إلى المقعد، ثم نظر أمامه. وتوقّفت عيناه على خريطة المزرعة التي كانت معلّقة على الحائط ـ وقد ظهرت غير واضحة لبعدها عن دائرة الضوء المنبعث من المصباح ـ

فاستعاد معالم هذه المزرعة كما يستعيد ذكرى أحد أجداده أو ذكرى مستشار ناصح. وفي الوقت ذاته استعاد حجج «باستار» المنطقية المخيفة: «إنَّ هناك سرقة وقعت. وإذاً فهناك مذنب. فمن منهما؟ إذا لم يكن هو، فتكون هي. وهو لا يريد أن تكون هي. إذاً فهو السارق!».. بماذا يرد على هذا التعليل البسيط بساطة عقول المحلّفين الساذجة؟.. وفجأة، وبينما كان يحدّق إلى خطوط الخريطة المضطربة، وثب إلى ذهنه خاطر كأنه البرق في عتمة الليل: «إذا ألغينا وجود السرقة فلن يكون هناك متّهم، وسيرغم المحلّفون على الحكمة بالبراءة. ولكن كيف نلغي وجود السرقة؟!».

وردّت عليه «المزرعة»!

بعد لحظات، طرقت مرغريت الباب برفق، فقال: «ادخلي. إنني بمفردي»، فسألته بعد أن دخلت: «والآن، ماذا قررت يا أبي؟».. فشرح لها المأزق الجديد، الخطير، الذي وضعهم فيه موريس بعناده، والذي يعرّضه للإدانة، وقال: «لقد تخلى عنّا الأستاذ «باستار». إنه يرفض الاضطلاع بمهمة الدفاع!».. فسألته مرغريت في وجل: «ومن سيدافع عنه إذاً؟ وعلى أي وجه سيكون الدفاع؟».. فأجاب: «لا تنزعجي يا صغيرتي.. فقد تكون لديَّ وسيلة!».. فسألت: «وما هي؟».

ـ سأخبرك بها فيما بعد، فدعيني أُعمل التفكير فيها.. إنها تستوجب منّا تضحية كبرى!

فلمعت عينا الفتاة بلهيب حاد، انعكست عليها روحها الطاهرة الشريفة، وقالت: «فلتسارع بها يا أبت!».. فتمتم الأب في كبرياء: «يا ابنتي العزيزة!».. وابتسمت الفتاة لأبيها ابتسامة واهنة، كتلك التي ترتسم على وجوه الذين يعيشون في شقاء ردحاً طويلاً، ثم قالت: «لقد كنت أعتقد دائماً، يا أبي، أنك أنت الذي ستدافع عنه!».

2 - الاجتماع الأُسريّ

وقفت مرغريت عند مدخل غرفة مكتب أبيها، بعد أن تبيَّنت وجود عدة أفراد بداخلها، وقالت: «وهل ترونني متطفّلة على مجلسكم؟». فأجاب أبوها: «لقد كنت على وشك أن أدعوك، إذ يجب أن تكوني بيننا». وهنا هتف كهل هزيل، أحكم أزرار سترته، واتكأ على حافة المدفأة حيث كانت النار تتأجَّج: «إنَّ النساء لم يكنَّ يستشرنَ في أيامنا!». وإذا بسيدة على شيء من البدانة، ناهزت سنَّ النضوج، وارتدت ثياباً سوداء، تجيب ـ من المقعد الذي غاصت فيه ـ بحدّة وعنف: «ومع ذلك، فإنَّ الذي عرّض البيت للخطر لم يكن من النساء!».. على أنَّ النقاش لم يتجاوز تقرير مبدإ، إذ ما لبث الاثنان أن كفّا عنه، ليرحِّبا بالفتاة في حفاوة وبشر. وحيّتهم مرغريت تبعاً لترتيبهم: إتيين روكڤيار، عم أبيها الذي كان أكبر سنّاً من السيد هاميل ـ إذ كان يقترب من الثمانين، وإن لم يحن عبء هذه السنين ظهره ـ ثم زوجة عمّها، السيدة كاميل روكڤيار، وابنها ليون ـ وكان من رجال الصناعة في «بونتشارا» في مقاطعة «دوڤينيه» ـ وأخيراً، شارل مارسيلاز، الذي كان قد وصل في هذا الصباح.

كانت السماء ـ في الخارج ـ مكفهرّة، مثقلة بالسُّحُب، تبدو منحدرة نحو الحصن وكأنها تريد أن تنقضّ عليه فتسحقه، بل كادت لفرط انحدارها أن تمسَّ برجه!.. وبدت غصون الأشجار العارية من الأوراق كأذرع ممتدّة تضرع إلى السحب. ولم يكن يحتفظ بطابع الربيع الدائم سوى قمة برج المحفوظات. وبالرغم من نوافذ حجرة المكتب الأربع، فقد خيّمت عليها كآبة ذاك اليوم المُقبضة، فإذا خزانات الكتب، واللوحات، والمنظر الطبيعي الذي

رسمه «هوغارت»(*)، تلقي على المكان طابعاً حزيناً.. بينما صُفّت آخر أعداد المجلة القانونية على نضد صغير، إذ لم تكن قد جمعت في مجلد واحد على نمط أعداد السنوات الماضية. أمّا المنضدة الكبيرة، المتخمة بملفات ـ كان أحدها مفتوحاً، وقد كشف عن مستندات قانونية وعقود مدنية ـ فكانت تنم عن عمل دؤوب لم تعرقله أعتى الهموم.. بينما وضعت أمام صورة مدام ڤالنتين روكڤيار ـ أم مرغريت ـ باقة من زهر البنفسج النضير، تدل على أن يداً نسوية تتعهدها بالعناية في كل يوم.

ورجا المحامي المضيف ضيوفه أن يجلسوا. وكان مطرقاً برأسه، وقد بدت عليه أمارات التفكير. لكم اكتهل خلال عام واحد، فشاب الشعر الذي كان يتوّج رأسه وشعر شاربيه القصير الحاد، وأحاط بفمه خطان غائران، كما تخلّل مقدم عنقه الناحل خط متغضِّن ظاهر، وكان تهدّل وجنتيه واسمرار بشرتهما يكمل هذه المجموعة من أمارات التداعي، التي لم تكن مرغريت تشهدها دون أن ينقبض فؤادها.. فما أشد اختلاف هذا الرجل الغارق في أفكاره، وهو يجلس إلى تلك المنضدة، من ذاك الذي كان واقفاً على التل ـ في موسم الحصاد من العام الماضي ـ وقد انتصبت قامته المتينة البنيان نحو السماء في جلال وعظمة!

كانت دعوته إياهم إلى الجلوس هي الإشارة الوحيدة التي نمت عن أنه كان يفطن إلى وجودهم. ومن خلال أهداب عينيه العميقتي الغور انبعثت تلك النظرة المهيبة التي يتعذّر الصمود أمامها، والتي استقرت على الوجوه وكأنها تتغلغل فيما وراءها! وأكّد بمسلكه هذا ـ قبل أن يتكلم ـ أنه الزعيم، وأن المحن لن تجد طريقها سهلة

(*) وليم هوغارت (١٦٩٧ ـ ١٧٦٤) رسام ونحات إنكليزي عبّر في فنه عن حياة عصره الاجتماعية.

للنيل من قوة نفسه وعزتها. وتكلّم أخيراً قال: «لقد دعوتكم لأن الأسرة تتعرّض لخطر. ونحن جميعاً نحمل اسماً واحداً، ما عدا شارل مارسيلاز، الذي يتخذ منزلة الابن لأنه يمثّل جيرمين ابنتي. ومع أن فيليسي وهوبير أبعد من أن يُستشارا، إلاّ أنّ حياتهما حافلة بإنكار الذات والتضحية إلى درجة لا تستدعي وجودهما.. وإني لأعلم مدى زهدهما في الحياة!».. وهنا سألته السيدة كاميل روكفيار: «ألديك أنباء سارة من الكابتن؟».. كان الزيّ العسكري لابن أخي زوجها يستهويها دائماً، كما أنّها لم تكن تقوى على أن تفكر في أكثر من شخص في آن واحد، لذلك نسيت كل شيء حين ذكر الضابط!.. وكانت مرغريت هي التي تولّت الإجابة قائلة: «لم تصلنا منه أنباء منذ أمد ليس بالقصير، ولم تكن آخر أنباء ـ قبل ذلك ـ طيّبة، إذ إنه كان مصاباً بالحمى».

وعاد السيد روكفيار إلى حديثه قائلاً: «لسوف تبدأ محكمة الجنايات جلساتها في ٦ كانون الأول/ ديسمبر، أي بعد ثلاثة أسابيع، وسيقدّم إليها موريس في نهاية الدورة». فقال ليون ـ الذي كان فخوراً بأنه يدير مصنعاً كبيراً وهو لم يتجاوز الثامنة والعشرين من عمره، ومن ثم كان يحاول الظهور بمظهر رجل الأعمال الواقعي، الذي لا يعبأ من الأمور إلاّ بنتائجها: «إنّها مجرد إجراءات رسمية، إذ إن البراءة مؤكّدة!». وإذا بكلمة «لا» تنطلق حاسمة من فم المحامي فتخرس فم الشاب. وارتجفت مرغريت، بينما تبادل الرجال نظرات الدهشة والقلق، ثم توالت أسئلتهم: «كيف لا؟»، و«ما دام غير مذنب» و«ما دامت السيدة فرازن هي المذنبة». وكان شارل مارسيلاز آخر من تكلّم، وهو الذي ذكر اسم غريمة الأسرة، فهتفت الأرملة ـ السيدة كاميل ـ وهي ترفع عينيها إلى السقف: «يا لها من امرأة تعسة!».. قالتها وهي تشفق على سمع مرغريت من أن

يخدشه ذكر اسم المرأة. فقد كانت تقسّم النساء - ببساطة - إلى فريقين: شريفات، وساقطات. ومع أنها كانت ترعى ملجأ للأطفال، فإنها لم تحاول - وهي تحدّد هذا التقسيم - أن تبحث عن أصل أولئك الذين كانت ترعاهم! وفي مهب تيارات الفكر المتحرِّرة، في هذا العصر، ظل أفقها فقط - دون حبها للخير ودون إخلاصها - محدوداً!

واستأنف رب الأسرة حديثه قائلاً: «إنَّ البراءة ليست أكيدة، بسبب قيود يفرضها ابني على الدفاع. ولقد زرته مراراً في السجن، ولكنه لم يتزحزح قطّ، فهو لا يوافق على أن نتولى الدفاع عنه إذا لم نتجنّب ذكر اسم السيدة فرازن!».. وثار رجل الصناعة الشاب، ورجل القانون - شارل مارسيلاز - فصاحا معاً: «هذا مستحيل. إنه مجنون!».. وتوالت التعليقات: «هذه خيانة!».. «لا ينبغي الإصغاء إليه!».. «فليكن، دعوه، وتخلّوا عنه!». وكان ابن العم «ليون» - رجل الصناعة - هو الذي عاد فأدلى بهذا الرأي الأخير المنطوي على نذالة. فرمقه المحامي بنظرة امتزج فيها الغضب والازدراء ثم انقلبا فوراً إلى ألم مرير. كانت الأسرة في حلٍّ من القضية، ما دام أحد أفرادها قد نقض تضامنها. على أن أكبر أفرادها سنّاً - العم إتيين - قال بلطف، في غمرة الصمت الذي ران على المكان: «أمّا أنا فأرى أن موريس على صواب». وعلى أثر هذه الملاحظة، غير المرتقبة، استأنف الأستاذ روكفيار عرضه للأمر قائلاً: «هذه المروءة من موريس قد يقدّرها محلّفون من أبناء الطبقة الوسطى في المدن، ولكن المحلّفين من الفلاحين السذّج لا يفهمونها. وهم لا يحفلون في المداولة بغير نقطة واحدة، هي: اختفاء مبلغ مائة ألف فرنك.. وهو رقم يذهلهم!.. إنهم أكثر اهتماماً بالاعتداءات التي تمسّ الممتلكات منهم بتلك التي تمس الأشخاص. ولسوف يتّجه

فكرهم على هذا الوجه: «لم يكن في وسع أحد - غير الشاب أو المرأة - سرقة هذا المبلغ، فإذا كانت «هي» السارقة فليقل لنا حتى نبرئ ساحته. أما إذا تركنا للتخمين فسنحكم عليه من جديد.. وإذا لم يجرؤ على اتهامها، فهو السارق إذاً».. ذلك لأنه ليس لدى هؤلاء فكرة أخرى عن الشرف!».

وهنا ردّد ليون: «الشرف! الشرف!».. كان ما خصّه به المحامي من ازدراء واضح قد أثاره. وكان يرى وجوب تفادي أي حكم يعيب الشرف، قبل كل شيء.. ومن ثم أضاف قائلاً: «لست أرى أن المسألة مسألة شرف، وإنما هي مسألة قانون!».. ورمقه أكبر آل روكڤيار سنّاً - بدوره - في ترفّع، وتمتم بصوت انبعث كالصفير لخلو فمه من الأسنان: «إنني أرثي لك!».. فصاح رجل الصناعة، في غير توقير للسن: «لماذا؟». فأجاب الشيخ: «لسبب واضح، هو أنك لم تعد تفهم شيئاً ممّا تعنيه بعض الكلمات!».. فهتف الشاب: «صحيح.. إنها كلمات.. مجرد كلمات جوفاء تلك التي تستخدمونها!».. وهنا، أراد «شارل مارسيلاز» أن يوفق بينهما، فأدلى بهذا الإيضاح القانوني: «إنَّ السيدة فرازن مذنبة، ولكن جريمتها لا تقع تحت طائلة القانون، لأن السرقة التي تقترفها امرأة للإضرار بزوجها لا عقاب عليها. ومن ثم فإن موريس لا يدفع بها إلى أي خطر حين يشي بها، ولكنّه يقرر الحقيقة!».. ولكن العم إتيين - الذي كان شبابه البعيد عاصفاً - قال وكأنما قوله القول الفصل: «إنَّ الإنسان لا يفضح امرأة كان عشيقاً لها لأي عذر من الأعذار! إنني أفهم ابنك يا فرانسوا!».. أمّا الأرملة التي كانت منذ بداية الاجتماع تلوم - بصوت خافت - ابنها الذي أخذ عنها ذكاءها الرخيص دون طيبتها، فقد رأت أن تناصره ضد ذاك الشيخ الذي كان يبشّر بمبدإ خلقي غريب، فقالت: «هل تريدنا على أن نحترم

هذه المخلوقات؟».

وحسم زعيم الأسرة النقاش غير المجدي بحركة من يده، قائلاً: «دعوني أكمل كلامي، فإذا حانت اللحظة المناسبة فسوف أدعوكم للنقاش. إنَّ موريس يعارض أي تشهير بالسيدة فرازن، ولسنا بصدد تحري الخطإ أو الصواب في رأيه ما دام يتشبث به، وما دمنا لا نملك شيئاً إزاءه. وإذا نبذ الدفاع رغبته، فإنه سيتهم نفسه بدلاً من أن يؤيِّد الدفاع، مفضِّلاً أن يتحمّل عبء الجريمة! وفي هذه الحال، ما الذي سيحدث؟.. هذه هي المسألة، ولا مسألة سواها. إن المحلّفين ـ إزاء واقعة السرقة المادية التي لم تواجه بإنكار، وفي تأثرهم بضياع مبلغ كبير كهذا ـ سيبحثون فيما أتوقّع عن متّهم. فإذا ما كانوا مجردين من أي توجيه إلى السيدة فرازن فلا بد أن يتحوّلوا ضد ابني. أما أن يعاملوه ـ أو لا يعاملوه ـ بمقتضى الظروف المخفّفة، فهذه مسألة ثانوية محضة!». وهنا أفلتت من مرغريت صيحة: «أواه، يا أبت»!.

ـ إنَّ الخطر جسيم جدّاً، فهل تقدِّرون جسامته؟ على أنني فكرت في أنه قد تكون ثمة وسيلة لتفاديه.

فداخل الأمل مرغريت ـ التي لم يكن أبوها قد أنبأها قبل الاجتماع بما يعتزم عمله ـ وصاحت: «يجب استخدام هذه الوسيلة يا أبت، مهما تكبّدنا!».

ـ ها هي الوسيلة: لقد لاحظت، دائماً، في قضايا سوء استغلال الثقة ـ أمام محكمة الجنايات ـ أنَّ تسديد المبلغ يشفع للبراءة. فإنَّ أهم ما يؤثر في نفوس المحلّفين هو ضياع النقود. فإذا أبعدتم ضرر العنصر لم يجدوا داعياً إلى إدانة المتهم. فلا عقاب ما دام لا ضرر هناك.. ولامُدان إذا لم يكن ثمة ضحية!.. هذه الآراء مجتمعة تخامرهم في العادة.

واستخلص شارل زوج ابنة روكفيار من حديثه النتيجة: «أتراك تريد أن ترد إلى الأستاذ فرازن المال الذي سرقته زوجته؟».. وأجاب روكفيار: «هو ذاك». فصاح ليون: «مائة ألف فرنك! إنه لمبلغ كبير!». وسارع شارل مارسيلاز يقول معترضاً: «ولكنَّ في هذا اعترافاً بذنب موريس! فهو مذنب ما دام يدفع!». ولكن حماه قال: «لا، إنَّ الضامن الذي يدفع بدلاً من المدين الأصلي لا يعتبر في وضع المدين. ولسوف يبيّن موريس ـ على لسان محاميه للمحلفين ـ أنه لا يريد اتهام أحد، ولكنه يريد أن ينأى بنفسه عن الشبهات. وإذا تسلّم السيد فرازن المبلغ لا تعود هناك سرقة. أمّا ترك السيد فرازن يطالب بماله فمعناه الزجّ بابني في السجن!».. وهنا هز العم «إتيين» رأسه الشبيه برأس عصفور عارٍ من الريش، وهتف محبِّذاً: «أحسنت يا فرانسوا»، فدفع هذا التقدير الأرملة إلى أن تبدي ودّها، ومن ثم قالت: «لست أفهم هذه الحيل والإجراءات، ولكن الصيت الحسن خير من الغنى! إنني معكم بكل قلبي يا فرانسوا».. ولم يطمئن ابنها «ليون» ـ وهو يصغي ـ إلاّ إلى كلمة «قلب»، لأنها لم تكن تعني أي التزام. وتبادل مع الموثِّق ـ شارل مارسيلاز ـ نظرة تحمل في ثناياها هذا المعنى: «إنَّ هؤلاء المسنين يترفّعون على الثروة، مع أنها هي وحدها التي تكسب الأُسر احتراماً وتتيح لها الرفعة!». أمّا مارسيلاز، فقد تولّته الحيرة. وما لبث أن تساءل في رفق: «وهل تملك أن تدفع مائة ألف فرنك؟». فأجاب السيد روكفيار في شيء من الجفاء، وقد بدأ الغضب يتولاه: «هذه مسألة أخرى سأعالجها فوراً.. إنما نبحث المبادئ أولاً، ثم نعالج تطبيقها ثانياً!».

على أنّ روكفيار قلب ترتيب الحديث بنفسه، إذ كان قد اتخذ قراره، فقال: «سأبيع مزرعة البرج إذا دعا الأمر!».. وكانت هذه

أعظم تضحية، أدركت مرغريت مبلغ ما فيها من بطولة وشهامة، فشحب وجهها. وتردّد شارل موزّعاً بين الاحترام والمصلحة، وبين الإعجاب والاستهجان، وراح يبحث عن منفث لهذه المشاعر المتضاربة. وما لبث أن قال مجادلاً على أثر غمزة ساخرة من عين ابن العم «ليون»: «تبيع المزرعة؟! إن الوقت لا يتسع للبيع قبل السادس من ديسمبر، وإلاّ بعتها بثمن بخس. إنّ المزرعة تساوي مائة وستين ألف فرنك في أقل تقدير، دون الغابات التي اشتريتها في «سان كاسان» منذ أربع سنوات!».. ولا شك في أن المحامي كان قد استعرض هذه المسألة في أثناء البحث، فقد كان متأهّباً للإجابة، وبادر قائلاً: «هذا ميسور. وتبقى أمامنا وسيلة أخرى هي القرض الرهني».

ـ أجل، بفائدة قدرها خمسة في المائة، أو أربعة ونصف.. خمسة في المائة، على الأرجح، نظراً للحاجة الملحة التي لا يفوت رجال الأعمال استغلالها، ولا سيما أن الأرض لا تغل سوى ريع لا يكاد يصل إلى ثلاثة في المائة، كما أن سقوط الصقيع أو الجليد قد يكفي لإتلاف المحصول. إنّ لك من الخبرة يا عمي ما لا يجعلك تجهل أن القرض الرهني ـ بالنسبة إلى الأرض ـ مرض عضال، قاتل. إنّ العقارات الثابتة أصبحت اليوم خطراً على أولئك الذين لا يعيشون في أراضيهم ويحرثونها بأنفسهم، أو الذين لم يؤتوا ريعاً طيِّباً يستطيعون بوساطته مواجهة تقلُّبات الظروف والمنافسة. إنّ هذا يعرض المستقبل لمصائب لا سبيل إلى تفاديها. ثم إنّ المزرعة هي تراث الأسرة.. التراث المقدس الذي يجب أن لا يمسّ!

وتركه السيد روكفيار يتكلّم، حتى إذا عيل صبره، قال بصوت عال: «ليس هناك من يفوقني حبّاً للأرض، وفهماً لها، وسماعاً للنصح، وكشفاً لمواطن العلل التي تعتريها.. فأنا الذي أُلام إذا

نسيت شؤونها! ولكن عليكم أن تعلموا ـ إذا لم تكونوا تعلمون ـ أنَّ في ميدان الشؤون الإنسانية نظاماً قدسيّاً يجب احترامه. إنني أقدم التراث الأدبي والمعنوي على التراث المادي. فليس الميراث هو الذي يخلق مكانة الأسرة، ولكن تعاقب الأجيال هو الذي يخلق الميراث ويصونه. والأسرة التي تنزل عن أملاكها تستطيع أن تسترد هذه الأملاك، أمّا إذا فقدت تقاليدها، وإيمانها، وتضامنها، وشرفها.. وإذا هي انحدرت إلى مجرد جماعة من الأشخاص الذين تتقاذفهم المصالح المتضاربة، والذين يقدّمون مصالحهم الخاصة على رفعة المجموع، فإنّ الأسرة تستحيل إذ ذاك إلى مجرّد جسد خالٍ من الروح.. إلى جثة تفوح منها رائحة الموت.. ولن تستطيع أعظم الثروات أن تردّ إليها الحياة بعد ذلك!.. من الممكن شراء الأرض ثانية، أمّا فضائل السلالة فلا يمكن شراؤها إذا هي بدّدت. ولهذا فإن ضياع مزرعة البرج أقل أثراً عندي من تعريض ابني واسمي للعار. على أنه لما كانت مزرعة البرج ملكاً لأسرة روكڤيار، قرناً بعد قرن، لم أشأ أن أقطع هذا الاسترسال الطويل العمر دون إعلامكم، ودون استشارتكم.. فادلوا إليَّ بآرائكم ـ كل بدوره ـ في إخلاص، ولست أعد بأن أحفل بها إذا كانت تعارض رأيي. إنني زعيم الأسرة المسؤول. ولكن أي قرار يحطم بضربة واحدة جهد عدة أجيال جدير بأن يعتبر قراراً خطيراً، ومن ثم طاب لي أن أحصل على تحبيذ من مجلس يمثل الأسرة!».

*

أظهر له الصمت الذي أعقب كلامه أنَّ جلساءه قد أدركوا أهمية القرار الذي يوشكون أن يتخذوه. وتطلّع إلى خريطة المزرعة المعلّقة إلى الجدار، والتي كانت تبيِّن المساحات التي وسّعت من رقعتها، مع تواريخ عقود شرائها.. لطالما تأمّلها وهو يُعدّ مرافعاته،

لا ليقرأ عليها حدوداً وأرقاماً، وإنّما ليتمثّل الغابات والحقول والكروم والعمل الدائب وجني العنب.. كان ذلك الإطار الضيّق - الذي لم يكن تأمّل معالمه السوداء عبثاً - يضم قطعة من الأرض، ومن الجهود الزراعية، ومن تعاقب الفصول!.. وأشاح ببصره عن الخريطة، ونظر خلال النافذة فرأى تحت السماء المكفهرّة حصن «الدوقات» الأقدمين - الذي شُيّد على مهل في جميع حقب التاريخ - وقد انهار نصفه، وبدت أطلاله الدارسة مهيبة، وكأنها تقوم على حراسة الماضي.. كانت هذه الأطلال شهودَ عيان تفوق جميع المستندات، وجميع المحفوظات، وجميع المراجع والتقاويم. وكانت تبعث في ذهنه - هو وحده - ذكرى «الساقوا» القديم، وعصر الأسلاف والحروب الطاحنة، بينما كانت قباب الكنيسة تمثّل نزعات التقوى التي تعتمل في القلوب. ما الذي كان يتبقى من الأموات - ومن أعمالهم ومشاعرهم - لولا هذه المعالم المادية التي يتجسّدون فيها، والتي تذكّر الناس بهم؟.. وهذه المزرعة - مزرعة البرج - التي طالما فُلحت، وأينعت، واتسعت، واستُصلحت.. أتراها كانت شيئاً عديم القيمة في مصير آل روكڤيار؟.. وإذا هي فقدت، أفلا تحرم السلالة من نقطة ارتكازها، ومن الدليل المرئي على استمرارها؟.. إنّ الأجيال - في الأسرات التي تعيش على ملكية الأرض - تتناقل الفأس، كما كان عداءو اليونان القدامى يتناقلون الشعلة.. وها هو ذا آخر زعيم للأسرة يترك الفأس تهوي من يده!

على أنّ المحامي رفع رأسه، وقمع كل تردّد. فما كان التراث هو قوام الأسرة، اللهم إلاّ إذا كان البرج هو مصدر شجاعة المقدام، والكنيسة هي مصدر تقوى المصلّي!.. لقد كان هوبير وفيليسي - في غربتهما عن وطنهما، في السودان وفي الصين - يحملان في جوانحهما النشاط الحيوي والهمة اللذين ورثاهما عن عراقة

أصلهما. ولو أن موريس رجع إلى الحياة العادية لكفّر بعمله عن ذنبه. أمّا مرغريت، فإن جذوة التقوى والوفاء تذكو في أعماقها. وما لبث المحامي أن وجّه الكلام إلى ابنته، بوصفها أصغر الحضور سنّاً، ورغبة منه في أن يسمع منها صدى أفكاره: «أنت الأولى في الكلام!». فقالت: «أنا يا أبت؟ كل ما تفعله أنت حسن، فأنقذ موريس.. إنني أضرع إليك! فإذا رأيت أن بيع مزرعة البرج ضروري فلا تتردّد في بيعها، إذ إننا لسنا في حاجة إلى الثروة. وعلى كل حال، فإنني في صفك، وينبغي أن لا تشغل بالك بي.. فلست محتاجة في عيشي إلاّ إلى القليل، وبوسعي أن أقنع بأي وضع!». فأمن السيد روكڤيار على قولها: «كنت أدرك هذا». ثم ربت يدها في لطف، وهو يقول لابن أخيه: «وأنت يا ليون؟».. ولمّا كان سيئ الظن به، فقد أردف: «تذكّر أباك!».

واصطنع الشاب هيئة الوقار التي ينتحلها الوصوليون الناجحون، إذا ما تأهبوا لأن يفضوا إلى الغير ـ دون مقابل ـ بخطتهم للنجاح.. وخُيّل إليه أنه سيلقي درساً على هؤلاء الكهول الذين يجهلون الحياة العصرية، ليعلّمهم أن الظروف الجديدة في الحياة تقوم على السرعة والأنانية والواقعية: «إنك، يا عمي، من رجال العهود السالفة الذين كانوا يبحثون عن الحروب ـ من أجل المبادئ ـ في كل مكان، والدونكيشوتيين الذين ينازلون طواحين الهواء! إنّ إفلاسك لن يجديك نفعاً، فانظر إلى الأمور من ناحية إيجابية. إنّ موريس يشهر ـ في هذه اللحظة ـ سلاح الشرف ضدّك، في حين أن شرف السيدة فرازن لا يساوي مائة ألف فرنك. إنّ ابن عمي الظريف يتظاهر بالشهامة في السجن، ولكنه لن يلبث أن يتخلّى عن هذا التظاهر في لطف إذا ما وقف أمام المحكمة!.. إنني لست محامياً، غير أنني كثيراً ما قرأت ما يقرأه كل الناس في الصحف عن الجرائم العاطفية،

فإنَّ المتهمين دائماً ـ ولا سيما أكثرهم غطرسة ـ يميطون اللثام عن شركائهم أو ضحاياهم، ويشهّرون بهم أو يتهمونهم ليبرئوا أنفسهم. إنَّ الخوف من الحكم هو بداية ركونهم إلى الحكمة. وموريس شاب ذكي، توّاق إلى المستقبل، ومن ثم فإنّه لن يلبث أن يدرك مصلحته. فإذا قُدّر له أن لا يفهم، فليتحمّل مسؤولية عناده، في آخر الأمر!.. ومن المحزن أن أقول هذا أمامك يا عمي، وإني لأعرب لك عن أسفي وحسرتي، ولكنه هو الذي أراد هذا لنفسه. وإني لأعرف أنك تحب الصراحة. إنَّ الخطر الذي يتهدّده لا يحوم إلاّ حول شخصه، وتضامن الأسرة ما عاد يجر الانحطاط على الجميع بسبب ذنب واحد منهم.. فتلك كانت نظرية سخيفة دفنها عصرنا نهائيّاً في أكفان الماضي. كلٌّ مسؤول عن نفسه. هذا هو الشعار الجديد. ولا يُلزم أحد بديون أحد، ولو كان هذا الأحد أباه أو أخاه أو ابنه! فالمال الذي أكسبه إنما أكسبه لنفسي! وكذلك حسناتنا وسيئاتنا. إن لدى المرء من أعباء تدبير سعادته الخاصة ما يثقل عاتقه، فلا حاجة به إلى أن يحمل أعباء عشرين جيلاً! وبوسعك أن تمنح موريس نصيبه من ثروتك مقدَّماً ـ إذا شئت ـ ولكنك جدير بأن تحتفظ لأخويه وأخواته بأنصبتهم، وبأن تحتفظ لنفسك بقوت شيخوختك. أمّا المزرعة فلك أن تبيعها إن وجدت ثمناً مغرياً، ولكن.. لا لتبتاع بها رأفة المحلّفين، وإنما لأن الأرض لم تعد ذات نفع إلاّ للفلاح الذي يقضمها كما يقضم الفأر الخبز اليابس. إنَّ المستقبل للصناعة والآلات، فهي بالنسبة إليه كالفرد بالنسبة إلى المجتمع!».

وعلى أثر هذا الخطاب، أطلق أكبر الحضور سنّاً ضحكة لاذعة، وتمتم: «إنَّه يحسن الكلام.. صحيح أنه يسهب، ولكنّه يجيد القول!». واغتاظت الأرملة، فضمّت راحتيها لتدعو الله.. بينما سأل

السيد روكفيار في شيء من الاستهجان: «هل انتهيت من الكلام؟». فأجاب الشاب: «أجل». فعاد المحامي الشيخ يقول: «إذا كنتُ قد فهمتك حقّاً، فإني أراك على استعداد لأن تلقي بموريس من علٍ!».. وقال الشاب: «معذرة يا عمي.. بل هو الذي يلقي بنفسه، وهذا الوضع يختلف عن ذاك. ولو أنه كان عاقلاً لاستطاع أن ينجو بنفسه من براثن العدالة. ولكنه لا يريد أن يكون عاقلاً.. وأنا في صف العقل دائماً!».

واتّجه زعيم الأسرة إلى شارل زوج ابنته متسائلاً: «وأنت يا شارل.. أتراك من أنصار العقل كذلك؟». فتردّد مارسيلاز قبل أن يجيب: كان يحتمل بصبر نافد سموّ مركز حميّه عليه. وكان تفوّق مكانة أسرة زوجته على مكانة أسرته يثير حنقه عند كل مقارنة، ولا سيما بعد أن نقل أعماله قريباً من مسقط رأسه. ولمّا كان مجتهداً ومقتصداً، فقد حرص على أن يعمل بحماسة من أجل مستقبل أبنائه، ومن ثم كان يبدي غيرة في حماية ثروته المتواضعة التي اكتسبها بعناء. ولقد استغرقه العمل، فأورثه ذلك مرارة نفسية وصلابة. ولكنه كان يحب زوجته «جيرمين»، وإذا كان قد أساء الظن ببعض تصرّفات لها توحي بالترفّع، فما ذلك إلاّ لأنه كان محروماً ممّا يدعوه إلى الترفّع! ومن ثم فقد انحرف عن الموضوع الأصلي، لينحي باللوم على الماضي، قائلاً: «لماذا يفضل موريس السيدة فرازن علينا، حتى وهو في السجن؟ إنه لسخف، ولا سيما أنها غير معرضة لأي عقوبة. إنه يغدر بالأسرة متذرّعاً بالشرف في تعلل خاطئ!.. مائة ألف فرنك! ألا ترى أن دفع مائة ألف فرنك أمر يفوق إمكاناتك؟! ليس من الواجب أن تقدم على المستحيل!». فقالت مرغريت: «بل من الواجب عمل المستحيل لإنقاذ موريس». وهنا قال السيد روكفيار الذي كان ينشد جواباً واضحاً محدّداً:

«زبدة القول أنك أنت أيضاً، يا شارل، تنصحني بأن أتخلى عن ابني.. أليس كذلك؟».

وطأطأ الموثِّق الشاب رأسه حتى لا يلتقي بصره بنظرات «ليون» الساخرة، وتمتم في خزي: «لا، لست أذهب إلى هذا الحد». فلمّا رفع رأسه، أدهشته النظرة التي كان والد زوجته يرمقه بها، والتي تجرّدت من سطوتها المألوفة، وبدت غامضة، رقيقة، ذات لطف غير معهود.. كنظرة المرء الذي يكشف ـ تحت بعض الحشائش النديَّة ـ المنبع المتواضع الذي يتدفّق منه نهر سيّال!.. وما لبث السيد روكفيار أن قال: «هذا دورك يا تيريز». وكانت المرأة لا تصغي إلى أي قول بعد أن ألقى ابنها خطابه، ولكنها حين سمعت اسمها، بادرت إلى تلبية الدعوة. ولمّا كانت ذات فطرة ساذجة بسيطة، فإنَّها لم تزج بنفسها في مناقشة المبادئ ـ التي كانت تطبقها في حياتها دون أن تعرف لها كنهاً! ـ وإنما عمدت، مثل كثيرات من النساء، إلى النظريات المتعلقة بالأمور الشخصية، الأمر الذي ساعد على إقصاء الحلول المبهمة، وعلى تبديد الضباب المتخلف عن المناقشات السفسطائية. ولم تكن قد استوعبت من كل الجدل سوى قول واحد، ولكنه كان أفضل الأقوال. وإذ كانت لا تقوى على مواجهة أكثر من فرد واحد بإجابتها، لذلك وجهت خطابها إلى «ليون»، غير حافلة بالآخرين: «هل قلت إنَّ كل امرئ مسؤول عن نفسه؟ لو أن عمك الجالس هنا اتبع هذه السنّة، يا بني، لما كنت اليوم تدير مصنعاً يدر عليك مئات ومئات!».

فقاطعها الشاب وقد مسّ قولها اعتزازه بنفسه: «أتهزئين بي يا أماه؟».. ولكن السيدة الطيبة كانت قد انطلقت، فما من سبيل إلى إيقافها: «لا، لا.. إنك لتدرك تماماً ما أريد قوله، لأنني قلته لك من قبل. وإذا كنت قد نسيت، فإنني أذكّرك: كان ذلك منذ خمس

عشرة سنة، حين استثمر أبوك كل مدّخراته في المصنع الذي أسّسه. ولمّا لم تصادف أعماله رواجاً في الحال، فإنه لم يلبث أن اضطرَّ يوماً إلى أن يتوقف عن دفع التزاماته. وكانت الصناعة إذ ذاك حديثة عهد في البلاد، ولا يثق فيها أحد. فذهب أبوك إلى أخيه الأكبر - عمك فرانسوا - وأطلعه على ما كان يتهدّده، فما كان من فرانسوا إلاّ أن أقرضه في الحال، ودون فوائد، العشرين ألف فرنك التي كان في حاجة ماسّة إليها، إذ كنا مهدَّدين بالإفلاس.. وهكذا تم إنقاذنا يا صغيري!.. ومنذ تلك الساعات العصيبة، تولّد عندي ذعر طاغ من الفاقة. فليسامحني الله! إنَّ الفاقة هي التي جعلتك أنانيّاً، سيّئ النية!».. فاعترف «ليون» في استياء وضجر: «حسن.. حسن، إنني لم أكن أذكر هذا!».

ولكن السيدة كاميل روكڤيار كانت مفعمة الصدر بما لديها، فلم تشأ أن تتراجع، وهي التي اعتادت أن تنزل عن آرائها أمام حجج ابنها، بعد مناوشات سهلة. فإن المرء إذا عاش إلى جوار غيره لم يفطن إلى نفسه. ومن ثم فإن الدهشة تأخذه أحياناً - إذا أتاحت له الظروف العصيبة فرصة - حين يتبيَّن أنه في عزلة. ويزداد هذا الشعور في عصرنا، جيلاً بعد جيل، بسبب تفكّك الروابط الأُسرية، وسرعة انتقال الآراء من مكان إلى مكان!

وتحوّلت السيدة كاميل تقول لأخي زوجها فرانسوا: «لست قريبتكم إلاّ بالنسب يا فرانسوا، غير أنني لا أنسى أنني أحمل الاسم ذاته الذي تحملونه. ومن ثم فإنني أضع تحت تصرفك عشرين ألف فرنك، إذا كنت بدورك في حاجة إليها.. لست أفقه من أحاديثكم شيئاً، ولكنني أدرك أنك تعس. أمّا السيدة فرازن فامرأة فاجرة!».. وهتفت مرغريت: «لكم أحبك يا عمتي!». فأضاف السيد روكڤيار إلى حديث ابنته: «شكراً يا تيريز. من المحتمل أن لا أحتاج إلى هذا

المبلغ، ولكنني سعيد وأنا مدرك أنَّ بوسعي أن أركن إليك إذا دعا الداعي».

وحان دور العم الأكبر، فأدلى برأيه في هدوء، وبصوت واضح جازم، كان يجد عناء في إرساله أحياناً، فيبدو كرنين جرس مصدّع: «إنَّ الأب هو خير من يحكم على ممتلكاته يا فرانسوا. فأنت وحدك المسؤول، ولست مقيَّداً بأحد. لقد كنت أنا الأخ الأصغر لأبيك، وتيتّمنا معاً منذ صبانا.. وكان أبوك هو الذي كفلنا، وأرشدنا، وساعدنا، إذ كان هو الوريث وزعيم الأسرة. وكان المتبع إذ ذاك أن الفتيات لا يرثن سوى نصيب ضئيل، إذ لم يكن الرجال يتزوجونهنَّ من أجل الصداق. أمّا تراث الأسرة فكان يؤول إلى فرد واحد، بكل تبعاته التي لم يكن الوريث يملك التخلّف عن أدائها، مثل تغذية، وتمويل، وتنشئة الصغار، وكفالة العجزة والمحتاجين والمكتهلين!.. إنَّ شبان اليوم يجهلون ما كان يعنيه الميراث، وهو القوة المادية للأسرة.. لكل الأسرة، مجتمعة حول زعيم واحد، آمنة من العوز، بفضل تماسكها. أمّا اليوم، فما جدوى الاحتفاظ بتلك الضيعة؟.. إذا أنت لم تبعها فسيتولى القانون تقسيمها.. فإنَّ التقسيم الإجباري للميراث لم يترك مجالاً للتراث العائلي.. بل لم تعد هناك أسرة بفضل مبدإ «كل مسؤول عن نفسه»، وبفضل تدخل الحكومة الدائم وتقاضيها نصيبها في كل العقود التي تتصل بالحياة.. ولسوف نرى ما الذي يستطيع أن يحققه هذا المجتمع المؤلف من أفراد تستعبدهم الدولة!».

وأرسل ضحكة استهجان وازدراء، ثم اختتم كلامه قائلاً: «ومع ذلك، فأنت على حق عندما تفضّل شرفنا على أموالك. ومن الصواب أيضاً أنك أطلعتنا، فلقد كنّا نتبعك في رخائك، وإذا كان القدر قد ناوأك، فنحن لن نتخلّى عنك. ولست أملك شيئاً يذكر،

فإلى جانب معاشي، كمستشار، لا أملك سوى سندات تبلغ قيمتها خمسة وعشرين أو ثلاثين ألف فرنك، أستعين بريعها على الحياة. أما وقد أصبحت طاعناً في السن، فإنني أمنحك إياها بعد موتي.. بل إنني أمنحك إياها فوراً، إذا شئت!». فأجاب السيد روكڤيار في تأثر: «إنني لفخور بتأييدك يا عمي، ومتأثر بتعضيدك. لسوف يهون عليَّ أداء مهمتي الآن.. فإن هذه التضحية بالمال ستبرئ ساحة موريس، وهذا ما تؤكده لي خبرتي بالقضايا.. ولا أظنني سأستطيع أن أنقذ المزرعة.. وهذا هو تفتيت ثروتنا!».. فقاطعه الكهل وهو ينهض: «ليس هذا من شأننا!».

ـ بل إنّ من واجبي أن أبيّنه لكم، حتى إذا خرجت مزرعة البرج يوماً من قبضة آل روكڤيار، أدركتم أن هذا لم يتم دون ألم، ودون حاجة قاهرة.. فكونوا شهوداً: إن مزرعة البرج تساوي مائة وستين ألفاً من الفرنكات، كما أن غاباتي في «سان كاسان» تقدّر بعشرين ألفاً.. وقد تسلّمت «جيرمين» صداقاً قدره ستون ألفاً من الفرنكات.

وهنا قال شارل مارسيلاز في خجل: «هل يجب عليَّ أن أردَّ إليك هذا المبلغ كله أو بعضه؟ إنه مستثمر إلى حد ما في أعمال المكتب الذي اتخذته في ليون!؟».. وكان هذا الكرم يستحق من التقدير قدر ما صاحبه من أسف، وندم، وتردّد. ومن ثم أجاب حموه: «لا يا صديقي، فقد أصبح هذا المبلغ نهائيّاً ملكاً لكما، ولا سيما أنَّ لديكما ثلاثة أطفال.. ولقد رصدنا باسم فيليسي ـ حين دخلت الدير ـ عشرين ألف فرنك، تستغل ريعها مدى الحياة. كما احتفظنا لمرغريت بصداق يعادل صداق جيرمين.. وقد تسلمت من ريع هذا الصندوق ثمانية آلاف فرنك، أعطتها لأخيها».. وحسب «ليون» المبالغ التي حصل ـ وسيحصل ـ عليها موريس، ثم قال بصوت

خافت وهو مقطب الجبين: «مائة وثمانية آلاف فرنك.. إنه لثمن باهظ!».. وكان لا يزال يجهل المبالغ الصغيرة التي أقرضتها أمه والمستشار الشيخ لموريس - في العام السابق - والتي احتسبت من الديون المعدومة!

وقالت مرغريت: «تصرّف في صداقي يا أبي، فإنني لن أتزوج!». وهنا قالت الأرملة: «إنما خلقت النساء للزواج». ولكن مرغريت قالت في إصرار: «إنَّ لديَّ مؤهلاتي الدراسية، وسوف أعمل.. سأنشئ مدرسة!».. فقاطعها العم الشيخ: «بالرغم من أن النساء لا يورثن، إلاّ أنني سأحيد عن مبدئي هذا لصالح الفتاة.. وسأوصي لها بالأربعين ألف فرنك بعد وفاتي».. فقال «ليون» - الذي كان يقدّر خسارته - يصحح له الرقم: «إنَّها ثلاثون ألفاً».. ولكن الشيخ صاح وقد تخلّى في الضائقة العصبية عن بخله وتقتيره: «لا، بل أربعون! لقد كذبت الآن عن غير قصد، وآخر قول هو أنها خمسة وأربعون ألفاً.. سأغيّر وصيّتي يا فرانسوا لتصبح وريثي!». فقال هذا متأثِّراً: «إنني أشكرك نيابة عن مرغريت يا عمي، ولكنني لن أمس صداقها - الذي لا أراه كافياً لها - إلاّ إذا بات من المستحيل عليَّ أن أبيع المزرعة بشروط مواتية، ذلك لأن بيع العقار - إذا تيسّر - خير من الاقتراض.. هذا ما استقر رأيي عليه، فإنَّ غلّة الأرض زهيدة في هذه الأيام، وقد أصبحت كرومنا وقمحنا معرضة لمنافسة شديدة من محاصيل الأراضي النائية - بفضل سهولة المواصلات - بحيث لم يعد في وسعنا أن نطمئن إلى دخلها. وإنني لأوثر أن أؤمن مستقبل مرغريت، تاركاً أولادي الذكور يكافحون في سبيل رزقهم. وإذا أنا لم أبع الأرض فإنها ستكون ذات نفع دائماً، كضمان للاقتراض». وإذ ذاك قالت الأرملة مؤكدة: «ونحن أيضاً نضمنك». فأمّن العم «إتيين» على كلامها، قائلاً: «تماماً!».

*

وانفرط بعد ذلك عقد مجلس الأسرة، فحيّا الحضور بعضهم بعضاً في صفاء وودّ، ما عدا «ليون» الذي أبدى بعض الفتور. وما لبث أن نبّه أمه ـ وهما يهبطان السلم ـ قائلاً: «إنَّ الضامن هو الغارم دائماً».. فقالت في حرارة: «فليكن.. سأدفع!». وإذ ذاك، قال ساخراً: «أنت.. ما أعظم طيبة قلبك!». فأجابته: «وأنت.. ما أجحدك!». فقال معلّلاً تصرفه: «إنَّ ما حدث كان مع أبي، لا معي أنا». فتساءلت في استنكار: «أولست وأبوك سواء؟». ولكنه أجاب في وقاحة: «لا!».

أوصل شارل السيد إتيين روكڤيار في عودته إلى داره. وظل المحامي مع ابنته وحيدين. وكان النهار قد بدأ ينصرم، وخيم على الحصن وبرج المحفوظات ضباب كأنه معطف يلقيه الليل عليهما. ورانت على المكتب تلك الكآبة التي ترافق نهاية النهار في الشتاء، فغذّت مرغريت المدفأة بقطعة من الخشب. وقال أبوها: «إنني مغتبط، فقد انتهى كل شيء على خير وجه». وهنا قالت الفتاة محنقة: «إن هذا الـ«ليون» شرير خبيث.. وإنني لأكرهه!». فقال أبوها: «ولكن أمه طيبة القلب!».

ولاذ الاثنان بالصمت، ثم تأمّلا معاً خريطة المزرعة المعلّقة إلى الجدار. وبدلاً من أن يريا الورقة المعتمة تمثّلت لأعينهما الكروم التي تسبغ عليها الشمس الساطعة لون الذهب، والحقول المحصودة، والأرض المستعدّة للحرث، والدار الكبيرة، العتيقة، المريحة.. كانت هذه الصورة هي الصرخة المدوية التي ظنّا أنها تنطلق من التراث الذي قُضي عليه بالضياع!

وفعلا ما كان موريس قد فعله من قبل، حين أطلَّ من أعلى هضبة «كالڤير دو ليمنك» قبلْ رحيله ـ وإن هما صدرا في فعلهما هذا عن نوع آخر من الحب، لم يبتغيا من ورائه سعادتهما الشخصية ـ فقد ودّعا المزرعة!

3 - الصفقة الرابحة

لم يكن هناك من ضجة في «شامبيري» بأسرها سوى تلك التي أثارتها «الصفقة الرابحة» التي عقدها الأستاذ فرازن!.. وكانت هذه الصفقة من الموضوعات العامة التي دار حولها الحديث في الحفلة الساهرة التي أقامها السيد والسيدة «ساسيناي»، لمناسبة بلوغ ابنتهما «جين» عامها الثامن عشر. فقد كان من تقاليد المجتمع الريفي أن يصطحب الرجال إلى المجتمعات ما يشغلهم ويقلق بالهم من شؤون الحياة العامة والعمل، فلا يتخلّون في أوقات فراغهم ولهوهم عن المتاعب التي يعانون منها. ومن ثم فإنهم لم يلبثوا - بين رقصتين من رقصات الفالس - أن تركوا السيدات يتنافسن في إظهار أناقتهن، وتجمّعوا في جميع الأركان ليستأنفوا الحديث عن متاعبهم الماليّة، وشواغلهم المهنيّة. ثم تحوّلوا إلى المأساة العائلية التي هزّت مكانة آل روكفيار الاجتماعية العريقة، والتي قد تقوّضها بعد يومين - وكانت الحفلة في ٤ كانون الأول/ ديسمبر - حين تُعرض القضية على محكمة الجنايات. وكان الرأي العام متحمّساً.. فقد كان ينقم على هذه الأسرة: قوة نفوذها، وعراقة نسبها، وتفوق مكانتها، ومن ثم استبدّت به الرغبة في أن يراها تنحدر لتتساوى مع غيرها!.. ولقد أثارته بوجه خاص تلك الكبرياء الصامدة، التي أبت - حتى في أثناء النوائب - أن تئنَّ وتشكو وتطلب العطف. ولهذا كان الرأي العام يرقب نهاية المسرحية، كي يرى السقوط النهائي المدوّي لسلالة كانت - فيما مضى - تُعتبر بمثابة زينة تزهو بها البلدة!

كان بين المدعوين بعض رجال القانون والطب والصناعة، وبعض أصحاب الضياع، الذين انتحوا جانباً في غرفة التَّدخين، فلم

يكن يسعى منهم - في أول كل رقصة - إلى الشابات والفتيات الجالسات في قاعة الاستقبال سوى أفراد قلائل، كانوا لا يلبثون أن يغادروا القاعة وكأنهم غزاة مظفرون ينفذون من مكان محاصر، ليعودوا إلى أماكنهم بين الرجال. ولم يكن بينهم سوى شخص واحد يجهل «الصفقة الرابحة» التي وفق إليها الموثّق، والتي كان البعض يؤاخذونه - والبعض يقرّونه - عليها.. أمّا ذاك «الجاهل» فهو الكونت «ديلا مورتيلليري». وكان عذره في جهله، أنه كان يعيش في القرن الرابع عشر، لانهماكه في دراسة تاريخ حصن «الدوقات». ولقد حاول عبثاً أن يحدّث من كانوا حوله عن عبقرية «أماديه الخامس»الذي ابتكر - في سنة ١٣٢٨ - أنابيب من الخشب لنقل المياه من عين «سان مارتان» إلى مطابخ الحصن الواسعة، حيث كانت تلك الأنابيب تصبّ في حوض حجري ضخم، كان مستودعاً تُربى فيه الأسماك لإعدادها على مائدة الدوق!.. ولكن أحداً لم يصغ إلى ذلك الثرثار الذي كان يرجع إلى ما قبل عصره بستمائة سنة. وكان السيد «لاتاش»، رئيس غرفة الموثّقين، يعارض - في تفلسف وتكلّف ولجاجة كان يظنها تليق بكرامة مهنته ومكانته - الموثّق الناشئ «كولانج»، الذي بدا معطّراً - وقد نثر المساحيق على وجهه، وحرص على تجعيد شعره! - والذي تولّى باسم «مدرسة الشباب» - أو باسم الناشئين - الدفاع عن السيد فرازن..

راح السيد «لاتاش» يقول مؤكداً في رزانة: «لا، لا.. إنَّ المجرم مواطن له حقوق المواطنين. وكان من الواجب انتظار حكم المحلّفين قبل قبول التعويض عن الضرر المادي.. أو كان من الواجب على السيد فرازن أن يسحب دعواه، بعد أن تقاضى التعويض، فلا يجمع بين الكسب والانتقام!». فبادر الموثّق الشاب يقول وكأنه يتأهب للمبارزة: «معذرة، عفواً.. لنتروّ من فضلك! لقد

قدم السيد فرازن شكوى ضد موريس روكڤيار، يتّهمه فيها بأنه اختلس مبلغ مائة ألف فرنك للإضرار به، وادّعى لنفسه بالحق المدني، فعرض عليه الأب ـ السيد روكڤيار ـ أن يرد هذا المبلغ قبل النطق بالحكم. فكيف تلوم فرازن على قبوله المبلغ؟!».

ـ أنا لا ألومه على القبول، وإنّما على مضيِّه ـ رغم ذلك ـ في إجراءات الدعوى. كما أنني لا أفهم السيد روكڤيار!

ـ آه! إنه يعلم أنّ ابنه مذنب، وهو يشتري بعمله عطف المحلّفين. أمّا فيما يتعلق بتصرّف السيد فرازن، فإنه ـ نظراً لأن الحكم بالإدانة أمر غير مؤكد في محاكم الجنايات دائماً ـ قد آثر أن تكون لديه وسيلتان لبلوغ غايته. ومن ناحية أخرى، فإنّه سيستغل دفع هذا المبلغ ليعتبره ـ في أثناء الجلسة ـ بمثابة اعتراف. وهي سياسة سديدة قوية جدّاً!

ـ بل إنها سياسة مربحة، قبل كل شيء! أمّا السيد روكڤيار، فإنني ولو لم أكن أملك أن أشرح الدوافع التي حملته على هذا التصرّف، إلاّ أنه ـ في الوقت ذاته ـ عظيم الحنكة، بحيث إنَّه لا يسلّم سلاحاً كهذا إلى خصمه دون أن يتخذ احتياطاته. ولا بد أنَّ الإيصال الذي طلبه قد تضمّن أنه وإن أدى عن غيره التزاماً، إلاّ أنّه لا يعترف قط بأن هذا الغير هو ابنه!

وهنا دخل المحامي «باييه»، فاشترك في النقاش دون أن يضيّع دقيقة واحدة، إذ قال: «إنَّ الإيصال يتضمّن هذا التحفّظ فعلاً، وفي أدق صيغة قانونية!». فصاح السيد «لاتاش» مظفراً: «لقد استنتجت ذلك. وكان الأحرى بالسيد فرازن أن يدع الأمر رهناً بحكم القضاة، بدلاً من أن يقف موقفاً يتعارض مع توقيعه على مثل هذا التحفّظ!». غير أنَّ السيّد «كولانج» رفض التسليم بالهزيمة، فصاح: «وأي دليل ينهض عليه إيصال كهذا؟ أفهناك من يدفع مائة

ألف فرنك عن شخص مجهول؟».

وأقرّ الحاضرون رأيه، وتمتموا معربين عن تحبيذهم لهذا الرأي الذي كان يعني أنَّ مثل هذا الكرم لم يقدم في الواقع إلاّ بدافع ضرورة ملحّة. على أن ظفر الشاب كان قصير العمر، إذ سرعان ما أخفاه المحامي «بابيه» كما يخفي الساحر كرة صغيرة.. فقد كان مرحاً، قصيراً، بديناً في تناسق، لا يلم بكل شيء، ولكنه يحشر نفسه في كل مكان، فيسيطر على الألباب. وقد قال إذ ذاك: «أرى أنك تجهل الصفقة الأكثر براعة، التي عقدها السيد فرازن».

ـ هات ما عندك.

ـ آه! آه!

واستحوذ على اهتمام الحضور بالنبإ الذي يحمله، ثم انتهز فرصة شروع الفرقة الموسيقية في عزف إحدى المقطوعات الراقصة، وترك في غير اكتراث مستمعيه المأخوذين، وأسرع ـ ككرة تتدحرج! ـ إلى إحدى السيدات فدعاها للرقص. ولمّا لم يكن لدى أولئك السادة ما يفعلونه، فقد راحوا ـ من خلال مصراعي الباب ـ يرقبون الراقصين، متظاهرين بعدم الاهتمام بما سمعوا، مصطنعين الإعجاب بالراقصين والراقصات الذين كانوا يتقدّمون ثم يتأخّرون ثم يتبادلون التحية، ثم يدورون حول أنفسهم، تبعاً لأنغام الموسيقى، ونظام خطوات الرقصة. وكانت «جين ساسيناي» متورّدة الخدّين، وقد سوّت شعرها بحيث بدا في فوضى متناسقة متعمّدة! وبدت أبهى ما تكون رشاقة ونضارة، في ثوب أزرق قاتم كشف صدره عن «زاوية» ناصعة راح النور يداعبها.. وانهمكت في الحفاوة بجميع المدعوين، وفي الإقبال على المرح واللهو، فأثارت بذلك تعليقات الكثيرين: «لا بأس بهذه الفتاة الصغيرة!».. «ولكنها غاية في النحافة.. انظر إلى ردفيها!».. «إنها لمّا تزل في

الثامنة عشرة من عمرها».. «آه! ولكنها لن تلبث أن تتزوّج عمّا قريب».. «ولماذا».. «لأن لها صداقاً ضخماً».. «هذا صحيح ولكن شقيقها غارق في الديون».. «وممّن تراها ستتزوج؟».. «لا أحد يدري بعد.. يقال إنه ريمون بيرسي!».. «الخطيب السابق للآنسة روكڤيار؟».. «إنه طبيب ناشئ».. «حقّاً.. لم يذبح أحد بعد!».

وبعد الرقصة الأخيرة، أحسَّ المحامي «بابيه» بإعياء، فقاد زميلته إلى المقصف، حيث تناول بعضاً من الشمپانيا، والتهم شطيرة محشوّة بالكبد الدسم، وبذلك استرد نشاطه، فعاد إلى الظهور في الوسط الذي تركه يتقلّب على جمر الفضول. ولكنه تفادى سخطهم بأن بادر ضاحكاً: «لن تعرفوا شيئاً إذا لمتموني!». فصاحوا: «ها نحن منصتون إليك!». وإذ ذاك قال يستأنف الحديث السابق: «إنكم لا تزالون عند نقطة قيام السيد روكڤيار بدفع مائة ألف فرنك إلى السيد فرازن».. فقالوا له: «وإنها لنقطة مهمّة!». ولكنه مضى قائلاً: «بل إنها أقل أهمية ممّا توشكون أن تعرفوه!». وما إن انبعثت أولى أنغام «البولكا(*)»، حتى أدار رأسه، فظن القوم أنه يعتزم أن يغادرهم مرة أخرى في غياهب حيرتهم، ومن ثم اتجه فريق منهم إلى الباب، وقرّروا أن يسدّوا عليه الطريق. وقال له السيد «لاتاش»: «إنَّك تتصبّب عرقاً، فليس من الحكمة أن تعود إلى الرقص»، بينما عمد الموثق «كولانج» إلى حيلة أخرى، إذ أبدى تشكّكاً في النبإ المنشود، وإذ ذاك بادر صاحب النبإ إلى فتح فمه، فترك صيده يطير:

ـ إليكم النبأ إذاً: لقد استولى السيد فرازن دون مقابل على مزرعة البرج، التي تساوي ما يقرب من مائتي ألف فرنك!

وهنا تعالت صيحات التكذيب والاستنكار: «ما هذا القول؟».. «إنك تسخر منّا!».. وكان المحامي «باستار»، والسيد «ڤاليروا» ـ

(*) Polka رقصة بوهيمية الأصل مفعمة بالحيوية.

المدعي العام ـ يتحدّثان على حدة، فاقتربا وقد أرهفا سمعيهما.. بينما قال الخطيب: «بل إنها الحقيقة.. دون مقابل!». وارتفع التساؤل: «وكيف حدث ذلك؟». فأجاب: «إليكم الأمر: لقد عرض السيد روكڤيار الضيعة للبيع، في سبيل الحصول على المال اللازم، فعرض عليه السيد «دودان» الموثّق، والوسيط في الصفقة ـ مائة ألف فرنك تدفع فوراً، على شريطة أن لا يعلن إليه اسم المشتري قبل اليوم الخامس عشر. واذكروا جيّداً هذا الشرط.. اليوم الخامس عشر! ولمّا لم يكن لدى السيد روكڤيار فرصة للاختيار، قبل انعقاد محكمة الجنايات، فقد قبل. وما كان يرجو خيراً في مثل تلك المدة القصيرة. وحدث ـ بفضل ثرثرة أحد الكتبة! ـ أن عرفت الآن، وتوّاً، أنَّ المشتري الحقيقي هو السيد فرازن.. السيد فرازن الذي أنفق مائة ألف فرنك بإحدى يديه، ليقبضها باليد الأخرى، والذي يجد نفسه الآن، بحيلة بسيطة، مالكاً دون مقابل لضيعة فخمة!».

وكانت هذه السياسة «المكيافيليّة»(*) تبز جميع سياسات الأساليب الاحتيالية التي تعوّدها أبناء المدن، فبُهت الحاضرون.. ولم يكلّف أحدهم نفسه عناء البحث عن الحافز المعنوي، ولا عناء سبر غور تضحية السيد روكڤيار بهذا التراث العريق!. وكان السيد فرازن ـ في المحنة الأليمة التي اجتازها، والتي قوّضت بيته، إن لم تكن قد أودت بثروته كذلك ـ قد ركّز كل مشاعره في الأشياء التي ظلت بمنأى عن التأثّر، وهي أعماله، كالفنان الذي يستمد من فنه سلوى، أو المرأة التي تنشد في الإحسان عزاء!.. وعلى هذا كان تدبير العقود والأرقام يمدّه بمنفذ يهرب عبره من الأفكار المحزنة.

(*) نسبة إلى نيكولو مكيافيلي (١٤٦٩ ـ ١٥٢٧) السياسي والفيلسوف والأديب الإيطالي صاحب كتاب «الأمير» الذي عرض فيه مذهبه السياسي وآراءه في الحكم.

ومن ثم تناسى ـ لفترة ـ همومه بالانشغال بشؤون عملائه، وبالرضى الذي كان يستشعره في إدارة معركة المصالح المادية. وقد أوحى إليه مصير ضيعة البرج بواحدة من تلك الخطط البارعة الجريئة التي لم يكن يملك أن يصدّ نفسه عنها. وكان يأمل في أن يظل السرّ مكتوماً إلى ما بعد انعقاد محكمة الجنايات، ولكن.. أي سرّ ذاك الذي يظل مكتوماً في بلدة يقلّ عدد سكانها عن عشرين ألفاً، ومن ثم يعد كتمان الشؤون الداخلية فيها بمثابة بدعة مكشوفة؟!

وكان السيد «لاتاش» أوّل من عبّر عن مشاعره، إذ نطق بكلمات ثلاث كانت بمثابة خطاب كامل، لصدورها عن رئيس غرفة الموثّقين: «عمل غير سليم!». فرد السيد «كولانج»: «كلاّ، مطلقاً! هناك أرض معروضة للبيع، وقد اشتراها. وهذا حقّه!». ومع ذلك، فإن المناورة الماكرة التي لجأ إليها السيد فرازن لم تلق سوى عدد قليل من التحبيذات، انبعثت من معسكر الشبّان الذين يوجّهون اليوم حماستهم ـ كما يوجهون أموالهم ـ نحو المشروعات المؤكدة الربح. ولقد لقي السيد فرازن نجاحاً باهراً في مشروعاته المادية، ولكن المتمسكين بالأخلاق، وذوي الإدراك العملي من الحاضرين، نقموا عليه هذا التصرّف، ولا سيما أنهم لم يغفلوا عن أنه جاء نتيجة خيانة وفرار زوجته. وفوق ذلك، فإن انتماء الرجل في الأصل إلى مقاطعة «دوڤينيه» كان يظهره ـ في نظر خاصّة المجتمع ـ أجنبيّاً، يثري بمثل هذه المكاسب على حساب بلدهم!.. حقيقة أنّ أحداً لم يأس لتدهور آل روكڤيار ـ الذين كانت مكانتهم تثير حفيظة الطبقة الوسطى ـ ولكن القوم بُهتوا حين رأوهم يضاعفون النكبة بأنفسهم، ويسحقون بأيديهم ما تبقى من أطلالهم.. إذ ما الذي يدعو إلى التفريط في المال إذا لم يكن موريس مذنباً؟ فإذا كان مذنباً، فما الداعي إلى تصرّف ينطوي على اعتراف؟ ذلك لأن ما

قرّره الشاب كان أمراً مجهولاً، إذ إن السيد «هاميل» كان شديد التكتّم، كما أن السيد «باستار» كان يلتزم في صمته خطة مرسومة: فقد كان توّاقاً إلى القضايا ذات الضجيج المدوّي، وكان لا يزال يرجو أن يطلب عونه في هذه القضية بالذات.

بيد أنّه لم يستطع أن يمنع نفسه عن الكلام طويلاً لفرط الانفعال.. وكانت الحلقة التي دار فيها الحديث قد انفضّت نظراً لوصول مدعوين جدد، واستؤنف الموضوع في جماعات صغيرة تناثرت هنا وهناك، كالنار يذكو لهيبها قبل أن تخمد نهائيّاً. وانضم المدعي العام «ڤاليروا» إلى السيد «باستار» في ركن منعزل، وبادره قائلاً: «ها هي ذي مفاجأة بارعة تستغلها في مرافعتك، لتمطر زوج السيدة فرازن بلذعاتك الساخرة!». فقال المحامي: «ليس من المؤكد بعد أنني سأترافع». فسأله «ڤاليروا» في دهشة: «كيف؟ ألن تترافع؟». ومن ثم لم يجد المحامي بدّاً من إيضاح الأمر، فأفشى السرَّ دون أن ينتبه، إذ قال: «إنَّ هذا الشاب الغبي يأبى أي دفاع جدّي، خشية المساس بشرف عشيقته!».. وفاه بالكلمات الأخيرة في سخرية وازدراء، ثم راح يشرح لرجل القضاء، المرهف السمع، كيف كان المتهم يرفض مقدَّماً كل إشارة تدين السيدة فرازن.

ـ إذا لم تكن أنت، فمن الذي سيترافع إذاً؟

ـ لا أزال أجهله. إنه السيد «هاميل» ولا شك.

ولم يخصَّ النقيب باحترام يزيد على ذاك الاحترام الذي خصّ به السيدة فرازن، إذ إنه فضفض عن رأيه في شيخوخة النقيب وعجزه بالازدراء الذي ذكر به اسمه! وبعد لحظات من الصمت، قال السيد «ڤاليروا» : «إنني أفهم الآن تصرّف السيد روكڤيار: فهو يلغي السرقة لينقذ ابنه! هذه فرصته الأخيرة، ومن ثم لم يتردّد في التضحية بثروته. هذا بديع جدّاً!».. ولم يستسغ السيد «باستار»

هذا الإطراء، فندّت عنه إشارة غامضة تحتمل جميع التأويلات، ثم قال مستدركاً إفشاءه سرّ مهنته: «هذا سرّ بيننا!». واتّجه صوب حلقة من السيدات، وقد استقرت لحيته الأنيقة على صدره، وسار في بطء وجلال كأنه طاووس يتأهّب لأن يبسط ريشه. وبقي رجل القضاء وحيداً، فلم يحاول أن ينشد لنفسه رفاقاً، بل واصل التفكير في السيد روكڤيار بإعجاب، وأخذ يستعرض حياة هذا الرجل التي امتلأت بالآلام والبسالة. فمنذ اليوم الذي رفع فيه فرازن شكواه، لم يظهر روكڤيار سوى إنكار المصلحة المادية، والاعتزاز بالنفس، والاستعداد للتضحية. وراح السيد «ڤاليروا» يسائل نفسه: «لماذا لا يفهم شخصيته العظيمة هنا سواي؟.. إنَّ أي فرد من الحاضرين لا يسمو إلى مواطئ قدميه، ومع ذلك فقد كان هؤلاء السادة منذ لحظات يترّفعون في حديثهم عنه، وكأنَّ الحظ السيّئ قد حطّ من قدره وهوى بمكانته! إنَّ الريف لحاسد حقود!».

وفي هذه الحدود البسيطة كانت المأساة مؤثرة، وداعية إلى العجب: كان الشاب موريس يجرّد الأسرة من كرامتها، بمثوله أعزل أمام المحلّفين، ومن ثم تخلّى أبوه عن الضيعة العريقة بثمن بخس ليتغلّب على «الابن الضال». ولكن.. إذا كان محامي المتهم مضطرّاً إلى أن يغلق فمه، فإنَّ ثمة صوتاً أعلى، وأكثر سلطاناً من صوته ـ لأنه يصدر عن سلطة عليا ـ يستطيع أن يدوّي في الآذان بدلاً من ذاك الصوت.. أفليس من حقّ المدعي العام أن يعرض القضية من ناحيته، بعد أن يتكلّم المدعي بالحق المدني؟ وبدلاً من أن يقيم «العدالة» بالطريقة المتعارف عليها في مثل هذه القضايا ـ التي تمتاز بأنها خاصّة أكثر ممّا هي عامة ـ أليس من واجبه أن يتدخّل تدخّلاً فعّالاً في كشف الدور المشؤوم.. الدور الأعظم تأثيراً.. الدور الفريد الذي قامت به السيدة فرازن، إذ كانت الوحيدة القادرة على

إساءة استغلال الثقة، دون أن تُدان لهذا السبب؟! ما أروعها من فرصة لخدمة العدالة، وإعطاء كل ذي حق حقّه، وإدخال شيء من الفرح على تلك النفس التي حُرمت منه!؟

توالت كل هذه الخواطر على رأس السيد «ڤاليروا»، ولكنه كان عاجزاً: فقد كان يجلس في مقعد المدعي العام - في محكمة الجنايات - محام عام، وليس هو. ومن ثم لم تعد قضية موريس روكڤيار من اختصاصه. فضلاً عن أنه قد تعرّض للوم بسبب الخطوة الغريبة التي اتخذها إزاء الموثّق في العام الماضي، والتي لم يقدّر لها أن تظل في طي الكتمان طويلاً. وما الجدوى في أن يقحم نفسه في قضية لم تعد من اختصاصه، ولن تجرّ عليه سوى العناء؟ يجب أن يقنع بإبداء العطف السلبي من أجل راحة باله وطمأنينته!.. وأسرع يختلط بالمدعوين حتى لا يسترسل في التفكير، ولا يقدّر أنانيته. وداخلته السعادة حين شعر بالناس حوله.. ففي وجود بني جنسنا عزاء وتسرية لنا حين نحاول أن نقيس مدى ضآلة شأننا.. ولكن - من ناحية أخرى - لا يقدم على هذه المحاولة سوى خيار الناس!

*

بعث التردّد على المقصف حركة رائحة غادية في قاعتي الاستقبال وفي البهو وقاعة المائدة، اغتنمها الشبان ليحوموا حول الفتيات. وكان بين الفتيات من استهواهنّ الرقص فرحن يطالبن الفرقة الموسيقية بالعزف، ومَن أظهرن سعادة في تقبّل بعض الغزل البسيط، لترويض أزواجهنّ، بيد أنّ بعضهنّ - وكنّ فئة قليلة - لم يأبهن بإلقاء نظرة عاجلة للتأكد من وجود أو غياب خاتم الزواج في الأيدي اليسرى للرجال، قبل أن يستجبن لمغازلاتهم في تحبيذ خفيّ! وكانت عيون الشباب المنتشي تتألّق بوميض الابتهاج كما تتلألأ المجوهرات التي كانت تزين الشعور والصدور والأذرع

والأصابع!.. وكانت الوجوه المزدانة بالمساحيق تبرز، بين ثياب السهرة السوداء، في خطوط واضحة كأنها الألوان المائية!

فإلى أي طبقة منهنَّ كانت تنتمي الآنسة «جين ساسيناي»، التي تخلّت تماماً عن ذراع ريمون بيرسي - الذي كان في العام الماضي خطيباً للآنسة روكڤيار - حين تبعتها عين أمها اليقظة، في قلق، وفي شيء من الدهشة؟ تُرى، هل كان رأسها الصغير، المتناسق، الشبيه برؤوس التماثيل الإغريقية - التي تبدو لنا رشيقة وأخّاذة وهي تستوي فوق قواعد حجرية - هل كان رأسها هذا ضيِّق العقل إلى درجة لم تمكّنه من أن يرعى ذكرى صديقتها التي هجرها ذلك الشاب؟ أولم تكن نظراتها الصافية، المنبعثة من عينين في زرقة السماء ونضارة الربيع، تنم في قرارتها عن استخفاف وعدم اكتراث؟.. وكانت الدماء تجري في وجنتيها، نتيجة الحركة التي بذلتها في الرقص، ولكنها لم تكن تبتسم، بل كانت عبوساً، تشدّ على شفتيها، وكأنما اتخذت قراراً جادّاً لا يتلاءم مع روح الطفولة البريئة..

قال لها الشاب: «إنني لم أرقص معك بعد، فهل تؤثرينني بإحدى رقصات الڤالس؟». فأجابته في جفاء بعد أن اطمأنت إلى أنهما ليسا وحيدين: «لا». فهتف يسألها: «ولم لا؟ هل جميع رقصاتك «الڤالس» محجوزة؟».. وكان جوابها: «ليست كلها». ولم يحمل رفضها على محمل الجدّ، بل إنه طفق يضحك بدلاًمن أن يتجهّم، وقال: «لقد نبّهتني، فشكراً!».. فأرسلت زفرة حرّى، كتلك التي يصدرها العمال وهم يرفعون حملاً ثقيلاً، ثم اندفعت فجأة قائلة: «الواقع أنَّ من واجبي أن أنبئك يا سيدي: لقد تحدثت أمك إلى أمي، وأمي لا تخفي عني سرّاً، وحتى الذي تكتمه لا ألبث أن أحدسه. فهل أدركت؟.. لن - وأرجو أن تصيخ السمع - لن

أتزوجك أبداً!».. فهتف الشاب مبهوتاً: «عفواً يا آنسة، فأنا لم أطلب يدك».

ـ لقد استكشفت أمك الميدان.. جسّت النبض كما يقولون!

ـ إنّ الأمهات يرسمن الكثير من المشاريع لأبنائهن.. ومع ما في هذا المشروع من شرف لي، إلاّ أنه لا يتفق مع نواياي.

ـ أوه! هذا أفضل!

ـ إنني لا أفكر في الزواج!

وبهت عندما أجابت: «إنّك لمخطئ!». فقد بدا هذا التأنيب غريباً، وموجعاً، وهو يصدر من ذلك الفم الرقيق. واستطردت الفتاة: «عندما يُتاح لامرئ حظ مصادفة فتاة مثل مرغريت روكڤيار في حياته، فجدير به أن لا يهدم بنفسه سعادة كهذه!».. وكان هذا هدفها. ولقد أدرك الشاب هذا الهدف. وكان بوسعها أن تدرك مدى اللطمة التي وجّهتها إليه من التبدّل الذي ألمّ بأسارير وجهه، لولا أن العينين في مثل سنها الغضة لا تكونان قد اكتسبتا بعد القدرة على تتبع مظاهر الانفعالات الداخلية! كذلك كانت تنقصها القدرة على الاعتدال في الانسياق لحماسة الفتيات المتحرِّرات، إذ استطردت تقول: «من القبيح دائماً، يا سيدي، أن يتخلى الشاب عن خطيبته، ولا سيما حين تكون في ظروف تعسة.. هذا أمر لا يُحتمل!». تُرى، بأي حق سمحت لنفسها بأن تؤنبه بهذه القسوة؟ واغتاظ «ريمون بيرسي»، ولا سيما أنه كان يستشعر في قرارة نفسه سروراً مشوباً بالمرارة عندما يسمع حديثاً عن مرغريت. وانصبّ غيظه ومرارته في ردّه، إذ قال: «إنني لم أنصّبك حكماً يا آنسة. وإذا كنت تتكلّمين بلسان فتاة أخرى، فإنني أجيبك بـ...»، ولكنها قاطعته قائلة: «لست أتحدّث بلسان أحد».

ـ إذاً، فما أبعد معلوماتك عن الحقيقة.. فما أنا الذي فسخ خطبة

كانت عزيزة عليَّ!

ـ كانت عزيزة عليك؟! أجل، هكذا أنتم أيها الرجال.. تَحضرون إذا أشرقت الشمس، حتى إذا أمطرت السماء لا يبقى منكم أثر!

ـ ولكنك جدّ ظالمة.. وإني لأوشك أن أفقد صبري.

وبدلاً من أن تسكت ظلت تطن كالدبّور الذي يبحث عن شخص يلسعه: «لا يغضب سوى المخطئ!». فقال: «ليس هناك ما أؤدي حساباً عنه أمامك يا آنسة. فاعلمي أنَّ الآنسة روكڤيار هي التي فسخت الخطبة». فقالت معقِّبة: «بدافع من الشهامة». ولكنه أجاب: «إنها لم تعبأ بقلبي، ولا اكترثت لآلامي». فاشتد احتقان وجهها، ولم تعد تتمالك نفسها، فقالت تستنكر عمله في غضب: «في مثل هذه الظروف، ما كان ينبغي أن تقبل القطيعة». ولم يعد بدوره قادراً على الهدوء، فقال: «وإذا أُدين أخوها؟».

ـ هذا أدعى وأنبل.

ـ آه! أحقّاً يا آنسة؟

ـ أجل، إنّه لحق. فأنا إذا أحببت لا يتغيَّر حبي بذهاب خطيبي إلى السجن.. بل إنني أتبعه إلى هناك! أتسمعني يا سيدي؟ ولو استدعى لحاقي به أن أرتكب جريمة، فإنني أرتكبها.. في الحال، ودون تردّد.

فقال لها: «إنك لطفلة!». ثم غيّر من لهجته فجأة، وتمتم معترفاً بصوت أجش: «هل تظنين أنني غير آسف عليها؟». وإذ تبدّل بهذه السرعة، استخفّها الانتصار حتى كادت تلقي بنفسها على صدره، وإذا بالسيدة ساسيناي تقترب وقد رابتها هذه الحركة وهي ترقبها عن بعد، وقالت «جين»: «آه! كنت على ثقة ـ يا سيدي ـ من أنه ليس في وسعك أن ترغب في الزواج مني.. إذاً، فأسرع.. أسرع وأخطر مرغريت، واضرع إليها باسمي، أنا الأخرى، كي تصفح عنك..

واستعد بسرعة مكانك في الأسرة قبل القضية، وإلاّ فسوف يفوتك القطار. إنَّ هذا أفضل من كل ما تعالج به مرضاك من أنواع العقاقير الضارّة!».

ـ شكراً.

ـ اذهب في الحال.

ـ ولكن الساعة بلغت الحادية عشرة والنصف!

فهتفت: «إذاً، فاذهب غداً». وكانت السيدة ساسيناي في طريقها إلى ابنتها، فاستوقفها فريق احتدم بين أفراده النقاش، وأخذ يزداد حدة بين لحظة وأخرى: كان السيد «ڤاليروا» يسأل شابّاً ـ في زيّ عسكري ينم عن أنه من هيئة أركان الحرب: «أواثق أنت؟». فأجاب الضابط: «كل الثقة. لقد نُمي الخبر إلى الفرقة في الساعة السادسة، وقد ذهب الجنرال بنفسه لزيارة السيد روكڤيار». فهتف السيد «كولانج» وقد أدهشته ـ وأثارت مشاعره ـ خطوة رسمية كهذه، نحو رجل تكالبت عليه المحن: «بنفسه؟».. وسألت السيدة ساسيناي أقرب شخص بجوارها، وكان السيد «لاتاش»: «عمّ يتحدّثون؟»، فأجابها: «عن موت الملازم روكڤيار يا سيدتي. فقد توفي جراء الحمى الصفراء، في السودان». فتمتمت وقد طغت عليها الشفقة: «يا لهم من تعساء!».. وقال السيد «لاتاش» مؤمِّناً: «أليسوا كذلك يا سيدتي؟».

كان هذا المصاب الأليم الفادح سبباً في أن اكتسب آل روكڤيار عطف النساء، وفي تحطيم روح العداء لدى الرجال، بعد أن كان القوم يؤيّدون انهيار الأسرة المادي والمعنوي بنفوس راضية. لقد أرادوا لها الهوان، فأجابهم القدر، ولاحقها بالنوائب في غير ما تردّد ولا هوادة! وران الصمت على أنصار السيد فرازن وصفقته الرابحة.. وعبّر المدعي العام عن شعور القوم بقوله: «يا

للمساكين!».. واختفت «جين ساسيناي» بعد هذا اللغط، فبحثت عنها أمها في المسكن دون جدوى، حتى إذا لمحت «ريمون بيرسي» في الردهة، وهو يرتدي معطفه في عجلة سألته: «أترحل مبكراً يا سيدي؟». فأجاب دون أن يحاول تعليل هذا الانصراف المفاجئ: «أجل يا سيدتي». وأدركت ما كان يجثم على صدر الشاب، فربطت بين هذا وبين اختفاء ابنتها، وبدأ القلق يساورها بشدة! ثم سألت زوجها ـ الذي صادفته عند مدخل قاعتي الاستقبال: «ألم ترَ جين؟». فأجابها: «لا.. أتبحثين عنها؟».

كان السيد ساسيناي رجلاً مجتهداً، صريحاً، وفيّاً، ولكنه مجرد من القدرة على تفهّم العوامل النفسية.. فكان في وسعه أن يتغلّب على أعظم العقبات المادية، ولكنّه كان عاجزاً عن أن يُعنى بتحليل العواطف. ومن ثم لم ترَ زوجته جدوى من مصارحته بهواجسها، واكتفت بأن سألته أن يُعنى بضيوفهما، بينما اتجهت هي مباشرة إلى غرفة مخدع ابنتها، فما إن دخلتها وأدارت زر المصباح الكهربائي حتى ألفت ابنتها غائصة في أحد المقاعد، وقد انحنت على نفسها، وانخرطت في البكاء، غير مكترثة لما قد يصيب ثوبها من تجعّد. وبادرت تسألها وهي تربت ظهرها: «جين.. ماذا ألمَّ بك؟».. فصرخت الفتاة: «أماه!». وكانت الصرخة أشبه بشكوى طفلة هدأ روعها في الحال. فسألتها أمها: «لماذا تبكين يا ابنتي؟».

ـ لقد خطرت لي أحزان مرغريت، بينما كنت أرقص أنا لاهية!

وتنهّدت السيدة ساسيناي، إذ كانت تدرك الود العظيم الذي تكنّه ابنتها للآنسة روكفيار. وما لبثت أن سألتها حين وجدتها لا تكف عن البكاء: «هل تذكرين الملازم هوبير؟». فأجابت الفتاة: «أجل، كان ظريفاً.. ولكنّا كنّا نتخاصم في ساحة التنس، إذ كان دائماً متفوّقاً».. ولكن هذا لم يكن مبعث أسى الفتاة، إذ استطردت

دون تمهيد: «مسكينة مرغريت! إنني أفضل موريس السجين على هوبير! لسوف تبرّأ ساحته. أليس كذلك؟». فأجابت الأم: «آمل يا عزيزتي». وإذ ذاك قالت الفتاة: «بريء يبرئ القضاة ساحته، ويدينه الناس! إنه لأمر عجيب، أليس كذلك يا أماه؟». فسألتها السيدة ساسيناي: «أواثقة أنت أنه بريء؟»، فهتفت الفتاة للتو: «كيف لا وهو شقيق مرغريت؟».

ابتسمت السيدة لهذه الفورة، ولهذه الثقة التي تعمّدت أن تستثيرها. وتذكّرت، وهي تسرّي عن ابنتها، حديثاً دار منذ أمد بعيد بينها وبين السيدة روكفيار حول أولادهما. فقد قالت المرأة التقية وقتئذ: «قد يحين يوم أطلب فيه يد ابنتك لابني موريس، إذا أثبت جدارة، وبذلك تبقى الطفلة بالقرب منك!». ومع أن موريس لم يثبت جدارة، إلاّ أنه ظل يحتل في قلب الصبية النبيلة مكانته الأولى. وهنا موطن الخطر، فلا بد من الحذر. وبينما اعتزمت الأم أن تُعنى بذلك، راحت تفكر بالرغم منها في بقية آل روكفيار، الأموات منهم والأحياء، الأفاضل منهم والمبتلين بالمحن!

وكان ضجيج الموسيقى يصل واهناً إلى الغرفة، فقالت الأم: «خفّفي عنك يا صغيرتي برفق، وانثري بعض «البوردة» على وجهك. لا بأس. إنك الليلة جميلة! والآن، لنعد إلى القاعة سريعاً، وإلاّ لاحظ القوم غيابنا». فقالت الفتاة: «أصبت يا أماه، وقد وعدت بالاشتراك في هذه الرقصة». واستردّت جأشها لفورها، ثم تقدّمت أمها في الردهة.

*

في تلك الساعة، كان «ريمون بيرسي»، الذي أفجعته وفاة صديقه «هوبير»، يذرع الطريق أمام دار آل روكفيار. وكانت سقوف الحصن المكسوّة بالثلج تلمع تحت ضوء النجوم ببريق

كئيب. وبدا برج المحفوظات وقمة برج الكنيسة كحارسين ساهرين على البلدة الهاجعة. وكان ثمة ضوء خافت يتسلل خلال مصاريع نوافذ غرفة المكتب الأربع، التي كان الشاب يعرفها جيِّداً. هناك كانت مرغريت تجلس مع أبيها، يتألمان معاً، وقد أصابت قلبيهما طعنة نجلاء جديدة!

وتملّكت الشاب رغبة في الصعود، ولكنه لم يجد الجرأة. كان فسخ الخطبة، والنفور الذي أبداه أهله والرأي العام، وظلمات الأنانية الجائمة.. كانت هذه كلها لا تزال تحول بينه وبينهما. ولكنّه - في تلك الليلة القاسية، وخلال هذه الجولة - أحسَّ بحقيقة عواطفه، وبأن الألم والإشفاق ينميان الحب أكثر ممّا ينميه الفرح!

4 - رسالة الماضي

كان لا بد في الواقع من قرار. ولكنَّ السيد روكڤيار كان يرزح منذ الأمس تحت وطأة مصابه في ابنه.. المصاب الذي نُمي إليه بإخطار رسميّ مقتضب، قيل فيه إنه مات في خدمة الوطن، بعيداً عن كل إسعاف، في أحد المراكز الأمامية! بل إنَّ الأب الثاكل لم يجد في هذا العزاء السامي ما يخفّف لوعته. لقد رحل «هوبير» إلى المستعمرات سعياً وراء المخاطر، ليرفع الاسم الذي أُهين، فكان بذلك آخر قربان للتكفير عن خطإ «موريس» الذي نسي الأسرة.

وكان «موريس» على وشك أن يمثل أمام محكمة الجنايات، في اليوم التالي، وما فتئ الجدل دائراً حول المصاعب التي تكتنف الدفاع عنه. ولا شك في أن تضحية تراث الأسرة لم يكن عبثاً، كما أنه لا شك في أن إصلاح الضرر الذي وقع يجعل الحكم بالبراءة جدّ محتمل، إن لم يكن مؤكداً، ويقلب ميزان الحظ في مصلحة المتّهم.

ولكن هذه البراءة بالذات ما كان ينبغي أن تُنتزع بدافع من التسامح أو من الشفقة، بل كان لا بد للشاب أن يغادر دار القضاء مطهَّراً من كل شبهة تمس سمعته، مبرّأً من كل ذنب ضد القانون أو ضد الشرف، لكي يعود إلى احتلال مكانه في البيت، وفي المدينة، وفي مقاعد المحامين، ولكي يستأنف تقاليد الأسرة ذاتها، وينقلها بدوره إلى ذريّته.. ولكن، كيف السبيل إلى ذلك دون ذكر اسم السيدة فرازن؟ صحيح أن السيد «باستار» رجع - بعد بيع ضيعة البرج - عن رفضه الدفاع، ولكنّه قال لزميله - بسفاهته التي تعودها: «إن هذه القضية تكلّفك أكثر ممّا تستحق. ولكن هذا السخاء سينتزع عطف المحلّفين، فإن هؤلاء القوم الذين يقيمون الدنيا ويقعدونها من أجل بيضة، ويقتلون من أجل شجرة كمّثرى،

سيخورون كالبقر عندما يعلمون أنك بعت أرضك لردّ دين الضحية، ولكنهم كذلك قادرون على أن يصدروا الحكم بالإدانة، إذ انتبهوا إلى المثل السيئ الذي تضربه، وإذا تكشّفت صفقة السيد فرازن للمحكمة كحجة نهائية، في أسلوب متعمّد لإثارتهم ودفعهم إلى غيرة جامحة في صالحنا!».

كان «باستار» لا يقيم كثير وزن للعدالة والإنسانية، وإنما كان يدرس ملف القضية، ويهب هذه الدراسة كل نفسه. وكان - بصيته الذائع - يفرض تأثيره فرضاً. وكان من المقرّر أن يزور السيد روكڤيار في الساعة الخامسة، ليتّفق معه، ومع السيد «هاميل»، على الخطوط الرئيسية للمرافعة، للمرة الأخيرة. إلاّ أن والد موريس لم يكن يثق في الأسلوب المسرحي، وفي فن إثارة الشكوك، لكسب قضية أسرته.

وبعد تناول الغداء الذي لم يكد السيد روكڤيار وابنته مرغريت يمسّاه، نهض الشيخ متأهباً للخروج.. فقد كانت أحزانه تثقل عليه وهو بين جدران البيت. ولكنّه كان يجد القدرة على التفكير في الخارج، إذ كان الهواء ينعش أفكاره، وقواه المستنزفة، ونشاطه المتهالك. وما إن بلغ الباب حتى نادته مرغريت: «أبت!». فالتفت إليها في حنان، إذ كانت منذ وفاة زوجته - بل وقبلها - موطن سرّه ومشورته، وأعظم مصدر للترفيه في حياته. وكان رحيل جوليان الصغير - إذ اصطحبه شارل مارسيلاز إلى ليون غداة اجتماع مجلس الأسرة - قد خلّفهما وحيدين، وجهاً لوجه، في البيت الذي كان يخلو من أهله شيئاً فشيئاً! وكانا قد قضيا الليلة السالفة معاً حتى الصباح، تقريباً، يتحدثان عن «هوبير» ويبكيانه ويصليان لأجله..

حين اقتربت الفتاة من أبيها، رفع يده في بطء إلى شعرها الجميل، فأدركت أنه يباركها، وإن هو لم يتكلم. واغرورقت عيناها بسرعة،

وقد ألفتا الدموع، ثم بكت من جديد، وقالت: «أبت.. ما الذي قرّرت بشأن موريس؟». فأجابها: «لقد استعد «باستار» للدفاع عنه، وسيحضر مع السيد «هاميل» في الساعة الخامسة، ولذلك فسأعد إرشاداتي الأخيرة في الهواء الطلق». فسألته: «هل أنت بحاجة إلى أن أرافقك؟». وأجابها متلطِّفاً: «لا يا صغيرتي. لا تقلقي عليّ، بل إنني سأفكر في أثناء المشي، إذ لا وقت لدينا كي نكفِّن موتانا.. فإن الأحياء ينادوننا!». وإذ ذاك غمغمت الفتاة: «إذاً، فسأذهب إلى السجن». فقال: «أجل، وأفضي إليه بالمصاب الجلل!».

ـ يا لموريس من مسكين! لكم سيتألم!

ولكنَّ الأب قال: «إنَّ ألمه أقل من ألمنا». فهتفت الفتاة: «أوّاه! لا يا أبت، إنه مثل ألمنا، بل أكثر! لسوف ينحي على نفسه بالتأنيب».. فقال: «جدير به أن يفعل، فما رحل «هوبير» إلاّ بسببه». وأمّنت الفتاة على قوله: «هذا حق يا أبي. إننا نبكي دون أن نؤنب أنفسنا. ألا أنبئه بشيء نيابة عنك؟». فأجاب: «لا، لا شيء». ولكنها هتفت: «أبت..»، فبادر قائلاً: «قولي له.. قولي له إنَّ عليه أن يتذكر أنه آخر سلالة روكڤيار!».

وخرج، فجاوز الحصن، وبات في الخلاء. وكان اليوم من أيام الشتاء البديعة، وقد تألقت أشعة الشمس على صفحة الجليد، فسار ـ وهو شارد البال ـ في طريق «ليون» التي تفضي إلى الضيعة، والتي كان يسلكها في رياضته عادة. وكانت الطريق تخترق حي «كونيان»، حتى إذا جاوزت مصانع قطع الأخشاب، عند قنطرة «سان شارل»، اتصلت ـ بين تلال «فيمين» و«سان كاسان» المحيطة بجبلي «ليبين» و«كوربيليه» ـ بطريق طويلة تمتد حتى نهاية ممر «إيشيل». وما إن بلغ السيد روكڤيار هذا المكان ـ وهو

مستغرق في أفكاره! ـ حتى عرج يساراً، وسلك الطريق الزراعية المفضية إلى مزرعته القديمة. واجتاز القنطرة العتيقة القائمة على نهر «إيير».. ذلك الخيط الرفيع من الماء، الذي كان يجري بين ضفتين من الجليد، والذي كانت أشجار الصفصاف ـ العارية من أوراقها ـ لا تخفي مجراه. وبعد دورة صغيرة، ألفى نفسه عند منعرج مقفر من السهل، تطبق عليه سفوح «مونتانيول» التي كانت تشرئب بقمتها نحو السماء. ولم يشعر بوحشة، وإنَّما انطلق يسير بتؤدة متخفِّفاً من أحزانه. ألم يكن في موطنه، تحيط به أراضيه؟.. ألم تكن تلك الأرض هي التي اعتادت أن تسرّي عنه بصداقتها القديمة الوثيقة، وذكريات الطفولة التي كانت تحتفظ برونقها، وبكل الماضي الإنساني الذي كان يعزو إليه ـ بعد الطبيعة ـ تكوينه؟.. وإلى اليسار: الكروم المثقلة بالعناقيد، لا يميز منها غير جذوعها المحزومة بالأسلاك الحديدية.. تلك الكروم التي جنى ثمارها في الخريف الماضي فقط.. وإلى اليمين: هذا الجدول الذي كان يُعتبر الحد الفاصل بين مقاطعتين متجاورتين، وهذا التل الذي كان مقفراً، لا ترتفع عليه سوى شجرة واحدة، والذي زرعه بعد ذلك بأشجار الزان والبلوط التي ابتاعها بما ادّخر من مال، وحرص على تشذيبها لتحيط بأراضيه. وعند نهاية الطريق الصاعدة، وصل إلى الدار التي أصلحها، والتي كان قِدمُها شاهداً على عراقة الأسرة، وحسن ذوقها، ونبل أخلاقها. من هنا كان ينفذ إلى المزرعة، ويلاطف الأطفال، ويشرب كأساً من «العرق»، الذي كان يقطره بنفسه مع المرأة التي تقيم في المزرعة، والتي لم تكن تخشى تأثير الكحول!.. ثم كان يعانق بنظره الأفق الشاسع الذي كانت المرتفعات والسهول الخصبة والبحيرة البعيدة تشكّل معالمه الراسخة، الملهمة.. ثم يرتد إلى أفق المزرعة الأضيق نطاقاً، فيلمّ بما فيها من نباتات شتى.

هكذا أخذ يسير ساهماً على التربة التي ألف السير عليها، وبالخطى النشيطة ذاتها التي كان يسير بها في الماضي، حين كان يشعر بعزيمة الشباب تعاوده رغم تقدّمه في السن.. ذاك لأنه كان سعيداً، محاطاً من كل جانب بمن يحبه ويشد أزره! على أنه ما لبث أن توقّف فجأة، إذ خطر له فجأة خاطر: «إنني لم أعد في ممتلكاتي، فقد بيعت المزرعة، ولم يعد آل روكڤيار هم سادة المكان. فما الذي جئت أفعله؟.. لأرحل من هنا!».. وعاد أدراجه مطأطئ الرأس، كشريد فوجئ في حديقة خاصة. ووقف عند الجدول الذي كان يفصل بين «كونيان» و«سان كاسان»، فاجتازه ووجد نفسه إذ ذاك على بقعة من الأرض تتصل بالمزرعة ـ من حيث الاستثمار ـ وإن لم يتضمّنها عقد البيع، فهي بذلك كل ما تبقّى له من أملاك!

توقّف عند أسفل المنحدر لحظات ليسترد أنفاسه ـ كجيش عثر على ملاذ وهو يتقهقر! ـ ثم شرع يتسلّق التل في شيء من العناء، إذ كانت قدماه تنزلقان فيضطر إلى غرس عصاه في الأرض ليحتفظ بتوازنه. ولمّا كانت الطريق مقفرة، فإنها صارت مسدودة تماماً، ولذلك اتّجه صوب الشجرة الوحيدة القائمة على رأس التل.. وكانت من أشجار البلوط المعمَّرة، تُركت فلم تُجتث: لا احتراماً لقدمها، ولا لجمال فروعها الباسقة، وقوامها السامق، وإنَّما لأن التلف بدأ يدبُّ فيها، ما هبط بثمنها، فلم يكن ثمة ربح يُرتجى من وراء قطعها وبيعها. وكانت أوراقها القوية الكثيفة ملتوية ـ وكأنها تستجمع قواها لتحسن الدفاع عن نفسها ـ وقد بقيت متشبّثة بالأغصان التي كانت تظهر خلال الصقيع ـ هنا وهناك ـ في لون الصدإ. وكانت جذوع الأشجار المقطوعة ـ التي لم ينقلها بعد قاطعو الأخشاب ـ ملقاة على طول الطريق المنحدرة، كأنها جثث

مجندلة على الجليد!

وبلغ السيد روكڤيار أخيراً غايته، فتحسّس بيده الشجرة - التي اجتذبته إلى ذلك المكان - كما يتحسّس المرء يد صديق، وأخذ يتأملها معجباً بضخامتها ومتانتها، وهو يقول لنفسه - بينما كان يجفف العرق المتفصّد من جبينه: «إنك مثلي.. رأيت رفيقاتك تتهاوى، وظللت وحيدة بعدها. ولكنّا جميعاً مسوقون إلى السماء.. والزمن هو الفأس التي ستجتثنا عمّا قريب!».

كان صعود التل قد استغرق منه وقتاً طويلاً. ومع أن الأصيل لم يكن قد اكتهل، إلاّ أن الشمس كانت قد انحدرت نحو سلسلة جبال «ليبين». فإنّ النهار في شهر كانون الأول/ ديسمبر قصير جدّاً، وكان تقارب الجبال وارتفاعها يزيدانه قصراً. ومن فوق التل، أطل روكڤيار على الأفق ذاته الذي كان يراه من المزرعة تقريباً.. ففي مواجهته جبل «السينيال»، وتحته طريق «إيشيل»، وإلى اليمين - في الطرف الأقصى، وراء التل - كانت تبدو بحيرة «بورجيه»، وسلسلة «ريڤار»، وجبل «نيفوليه» المتناسق السفوح. وكان الجليد يوشي الحواف، ويمزج المناظر بعضها ببعض، مخفِّفاً من حدّتها، منسّقاً بينها.. وقد خلع عليها اقتراب المساء حمرة ورديّة ضعيفة، فكأنها بشرة جسد حي! وشعر السيد روكڤيار ببرد رغم اعتدال الجو، فأحكم أزرار معطفه. وكان قد كفّ عن السير - الذي كان يبعث في كيانه حرارة - فأحس بشيخوخته وآلامه. ما الذي حمله على تسلّق هذا التل الذي تراءى له سفحه - بما عليه من أشجار مقطوعة وممدّدة على الأرض البيضاء - كأنه مقبرة؟.. هل جاء إلى هنا، في مواجهة ضيعته التي تخلّى عنها بعد جهود أجيال عديدة لصيانتها، كي يتأمل ما حاق به من خراب، ويتفقد فجيعته في آماله؟.. لقد كان بوسعه أن يتبيّن في الجانب الآخر تلك المباني والأراضي التي

آلت إليه من طريق الميراث. أمّا البيت الذي كان يضم في العام الماضي كل أفراد أسرته، في كنف السعادة وأحضان السرور، فقد أغلق، ولن يدخله قط بعد الآن!

كان الصمت والوحدة على هذه الأرض الموحشة الحزينة يحيطان به من كل جانب، كما كان الموت يحوم حوله ويتربص له! وكما يفعل القائد المنهزم بعد المعركة، أخذ يستعيد الحوادث، ويستعرض آلامه واحداً بعد الآخر: زوجته المحطمة التي قضى عليها الحزن والمرض، وابنته فيليسي التي وهبت نفسها لله، وابنه الأكبر هوبير ـ خير أبنائه ـ الذي ذوى في ريعان الشباب بعيداً عن فرنسا، وبعيداً عن ذويه.. وجيرمين التي هجرت مسقط رأسها، ومرغريت التي قدّرعليها أن تظل بلا زواج لفقرها، ثم.. ها هو ذا آخر سليل لآل روكفيار، الذي يتوقف عليه مستقبل الأسرة ومصيرها، ملقًى في غيابة السجن بتهمة مشينة، ومهدَّد بأن يُدان.. حتى بعد التضحية بهذا الميراث! وأحسّ السيد روكفيار بأن الستين عاماً التي أنفقها في خدمة الأسرة قد ذهبت كلها هباء منثوراً! لقد انفرط عقد الأسرة بعد أن أثقل كاهلها وزر فرد واحد من أفرادها، فتهالكت عند أقدام الضيعة كالجذوع المقطوعة التي غاصت في الجليد. أمّا هو، الذي كانت قوته وإيمانه الراسخان يمنّيانه بالنصر، فقد دبّ إلى نفسه الشعور بهوان الهزيمة!

وإذ أحس بعزيمته تخور، استند إلى شجرة البلوط، وكأنها رفيق له في البأساء، وأرسل تأوّهاً طويلاً حزيناً، كأنين الشجرة التي تترنح فجأة تحت ضربات الفأس المتتابعة، وتشرع في السقوط! وخيّل إليه أن السماء والأرض، اللتين لفتهما ألوان هادئة، ثابتة، لم تعودا تصغيان إلى شكاته، فأحس بأنه وحيد، لا حول له ولا سند!.. وانحدرت على خدّيه دمعتان من دموع الرجال الضنينة، النادرة،

التي تفتّت القلوب لأنها تنطوي على اعتراف بالذلّة والهوان!.. وراحت الدمعتان تنسابان على بشرته في بطء وهما نصف متجمّدتين جراء البرد!

لم يدر بخلده أنه كان يبكي! ولم يفطن إلى بكائه إلاّ حين لمح شخصاً يتسلّق التلّ بدوره، فبادر إلى تجفيف دمعتيه لكي لا يفاجأ وهو في قبضة الألم! وكان الشكل الأسود لامرأة عجوز انهمكت في جمع الحطب اليابس وحزمه. وهي لم تره لأنها كانت منحنية على الأرض البيضاء، فلمّا أصبحت قريبة من الشجرة، نصبت قامتها قليلاً، فإذا بها تراه. وتمتمت قائلة: «السيد فرانسوا!».. فتمتم بدوره: «لافوشوا!».. ودنت منه، ثم وضعت حملها على الأرض، وراحت تبحث عن شيء تقوله، ولكنها لم توفق إلى شيء، فأخذت تبكي.. ولم يكن بكاءً صامتاً، بل كان عالياً مدوّياً. فسألها: «لماذا تبكين؟». فأجابت: «أتبكي لما حلّ بك يا سيدي؟».

ـ لما حل بي؟!

ـ أجل!

ولم يكن قد باح بآلامه لأحد، كما أنَّ عزة نفسه كانت تنأى به عن مواطن الرثاء، ومع ذلك فإنه تقبَّل رثاء العجوز لحاله، فبسط إليها يده متسائلاً: «وهل علمت بما حلّ بي من مصائب؟». فأجابت: «نعم يا سيد فرانسوا».. فعاد يسألها: «وبالمصاب الأخير؟».

ـ أجل.. علمت به من شخص من أهالي «سان كاسان»، قدم من البلدة في هذا الصباح.

وصمت الاثنان، ثم عادت «لافوشوا» تجهش بالبكاء ـ فالصمت في أوقات الأسى لا يوائم الطبائع التي لا تزال على الفطرة! ـ ثم أخذت تقول: «لقد كان السيد هوبير موفور الصحة، شابّاً، ظريفاً مع الجميع. وكان يأتي إلى المطبخ ليلقي نظرة على الأطباق ويمزح

معنا! والسيدة؟ لقد كانت السيدة مؤمنة من المؤمنات بالله! كل هذه حسنات تجنيها في السماء!». وظل السيد روكڤيار صامتاً، جامداً، يحسد الأموات على راحتهم في القبور. بينما استأنفت «لافوشوا»: «والسيد موريس.. هل يردونه إليك؟».. وأردفت بصوت خفيض مشوب بذلك الخوف الذي يساور الناس إزاء القضاء: «إن محاكمته غداً!». ورآها تبتهل إلى الله، تسأله عونه القدسي. وتذكّر ـ عن غير قصد ـ أن ابنة تلك المرأة كانت قد سُجنت لأنها اتُّهمت بالسرقة، فسألها عن أخبارها في تلطُّف ـ إذ إن نفسه المهيضة لم تعد تعرف الازدراء: «وابنتك.. ألديك أنباء طيِّبة عنها؟». فأجابته العجوز: «لقد عادت إليّ يا سيد فرانسوا».. وإذ ذاك قال لها: «لقد أحسنت صنعاً!».

ـ آه! ليس لها فضل في ذلك، وإنما دفعتها الحاجة إلى العودة.. لقد جاءت من «ليون» في أشد حالات المرض، ولا يزال شفاؤها مستعصياً.

ـ وماذا بها؟

ـ الآثار المترتِّبة على الوضع!

فهتف في دهشة: «الوضع؟.. وهل هي تزوجت؟»، فأجابت: «لا يا سيد فرانسوا، ولكنّها رُزقت بطفل.. طفل صغير، حبيب، مفعم بالحياة، لا يكف عن الحركة طوال النهار. ولم أكن راغبة في أن أرى هذا الملاك، بدافع من الخزي والعار كما تُدرك.. ولكنني حين نظرت إليه، وجدته يستميل قلبي بابتسامة صغيرة.. وقد أصبح الآن بهجتي الوحيدة!».. فسألها: «أهي بنت؟». فصاحت: «بنت؟ أحسبك تريد أن تقول إنه ولد.. ولد سمين مفعم بالصحة والعافية!».. فقال الشيخ: «إنه عبء ثقيل على عاتقك!».

ـ بكل تأكيد. على أنني حين أعود إلى المنزل فأبصر الطفل وهو

يمتصّ «بزّازته»، أشعر بأنّ لمرآه تأثير كوب من عصير كرومك، إذ يبعث في كياني حرارة واستساغة للحياة!

ـ ولكنك اكتهلت ولم يعد في إمكانك أن تعملي!

ـ بل إنني لا أصلح لغير العمل!

وهكذا، كانت تستمد العزاء من البؤس ذاته! كما كان الشقاء في أيامها الأخيرة مبعث متعة ضافية لها! وأُعجب السيد روكڤيار ـ الذي شغل بالقصة عن همومه ـ بالمرأة البائسة التي ضربت له المثل في الصفح والشجاعة دون أن تفطن! وانحنت المرأة لترفع حزمتها إلى كتفها، وقالت: «إلى اللقاء يا سيد فرانسوا». فسألها: «إلى أين تذهبين؟». فأجابت: «إلى «كونيان»، لأدفع بحطبي إلى الخباز». فقال: «انتظري!».. وأراد أن ينفحها قطعة من ذات الخمسة فرنكات، مشاركة منه في بؤسها، ولكنها أبت. فقال ملحّاً: «يجب أن تأخذيها!». فقالت: «إنّ مزرعة البرج لم تعد الآن ملكاً لك يا سيد فرانسوا، على ما يقولون».

فعبس المحامي وقال: «لا، لم تعد مزرعة البرج ملكاً لي، ومع ذلك خذي هذه النقود.. إن هذا سيجلب الحظ لي!».. وأدركت أن الرفض يجرح كبرياءه، فبسطت يدها.

وهبطت العجوز التل وهي تميل على ساقيها في كل خطوة، حتى لا تزل قدماها. وظل السيد روكڤيار يرقبها وهي تتضاءل، حتى لم تعد أكثر من نقطة سوداء في قاع السهل.. وألفى نفسه وحيداً، ولكنّه كان قد تغيَّر.. فإن هذه البائسة ردّت إليه ما كان قد قدّمه إليها في حصاد الكروم ـ في العام الماضي ـ من تشجيع وشحذ للهمة، مضاعفاً مائة مرة!

وكان الليل قد أرخى سدوله في تلك الأثناء، فإذا به يشيع في الطبيعة الساكنة ـ وكأنها قد تجمّدت بفعل الجليد ـ تلك المهابة

الخاشعة الغامضة التي تسبق احتضار النهار. وبدت حواف الجبال وكأنها ذابت وامتزجت بحافة السماء الشاحبة.. ولم تك ثمة نأمة تعكِّر الهدوء الذي كان أعمق تأثيراً في النفس من عاصفة هوجاء!

وكان الجدول الصغير يجري في أسفل التل صامتاً، تحت طبقة رقيقة من الجليد تفتّتت ثم تكوّنت من جديد. أمّا الأرض، ذات الصبغة الشاملة، فقد بدت ملتفة في غلالتها الناصعة كحلية وسط قطن مندوف!.. وتأمل السيد روكڤيار المزرعة المهجورة، التي فجعت في السلالة التي ذلّلتها وملكت زمامها، فاجتذبه المنظر وسحر لبّه.. لقد أيقظت «لافوشوا» في نفسه غريزة الكفاح، وباعدت بينه وبين اليأس. فنحّى رئيس الأسرة ألمه جانباً، ليفكّر في الابن الذي كان معنيّاً به. وراح يبحث عن وسيلة لإنقاذه، ولكنَّ بصره - الذي تطلّع وكأنه يضرع إلى السماء! - اصطدم بذلك الغلاف البارد القاسي الذي كان يلف الفضاء.. وإذا الأرض صامتة، لا تنطق بما اعتادت أن تشي به من تعاقب فصول الحياة.. تُرى، كيف يدافع عن ابنه متسلّحاً بالماضي وحده؟.. وأي عون ينتظره من الأرض المهجورة، ومن السلالة التي غيَّبها الثرى؟.. وبأعلى صوته، راح يردِّد الكلمات التي قالها له السيد «باستار»، وهو ينبئه بأن المتهم رفض كل مناقشة للاتهام: «إنَّ الإنسان لا يتذرّع بالموتى في دفاعه!».

ورمت الشمس - التي كانت تمس ذرى الجبال - آخر شعاع من نورها، فبدا الجليد المتراكم في منحدرات الجبال وكأنه ينتفض تحت وهجها من نعاس كان يعتريه!.. وأخيراً، دبّت الحياة في الأفق الساكن بفعل هذا الضوء، فإذا به - في صمته وصفائه - يحس بالحياة ويعكسها. وانفصلت الأرض المرتعشة عن السماء التي كانت زرقتها الشاحبة تصطبغ بآلاف الظلال التي كان يغلب عليها اللون

الذهبي. وكان الصقيع، الذي جلّل الأشجار والغابات القريبة، يعكس أشعة الشمس الغاربة، كتلك العدسات البلّورية التي تجمع أضواء الثريات لتسلطها على بقعة صغيرة.. وكان السيد روكڤيار - وقد ثبت عينيه على المزرعة - يكمل المنظر الذي كان يمثِّل البعث!.. وارتدت الحياة للطبيعة بضع لحظات، تحت لمسات المساء، فإذا الدم يجري من جديد في وجهها المرمريّ. وعلى طول الكروم المنتصبة على قمة الهضبة، التي كانت بقايا أشعة الشمس تمتد إليها في خطوطٍ أفقية، لم يعد المالك - الذي فقد ملكيّته - يرى الأرض في لونها الأبيض الذي لا يتغيّر، وإنَّما استطاع أن يلم بحركات التربة التي ذكّرته بتعاقب المواسم الزراعية: فها هي ذي الأشجار المتناثرة هنا وهناك.. أشجار الحور الوادعة، الباسقة، المزهوّة، وأشجار النخيل الفارعة المستقيمة، وأشجار الزيزفون ذات الأغصان الوارفة، والسندس النحيل، والكستناء المتكاثفة، وشجيرات الفاكهة الرقيقة العود، ذات الأغصان التي كانت - رغم رقّتها ولينها - بارعة في حمل ثمارها.. وإذا هذه الأشجار، التي كانت تبدو منذ لحظة متشابهة مختلطة، قد انقلبت تطفر بالحياة وكأنها أشخاص أحياء!

ولم يعد الشيخ يشعر بالوحدة، إذ كان يعرف هذه الأطياف واحداً واحداً. وتصارعت الانفعالات في نفسه وهو يذكر الأجيال المتعاقبة التي استصلحت هذه الأراضي، وشيّدت هذا المنزل الريفي، وهذه المباني الخلوية، وتلك المزرعة، وأسَّست هذه الضيعة، منذ عُرف أول ثوب لبسه أقدم فلاح من آل روكڤيار عليها، إلى ذلك الزيّ التقليدي الذي كان يرتديه أعضاء مجلس الشيوخ - منهم - عن دائرة «ساڤوا»، إلى رداء المحاماة!.. كانت الهضبة، التي قامت إلى مثل ارتفاعه في الجانب المواجه له، كحصن احتلته سلسلة من أسلافه الذين زرعوا في هذا الركن من الأرض تقاليد

الأمانة والشرف والشجاعة والنبل، مع ما زرعوا من قمح وشعير وبساتين وكروم.. وكما كان لمحاصيل هذه الأرض صيت طبّق الآفاق، كذلك كانت تلك التقاليد تسطع على البلدة القابعة في أحضان الجبال - والتي بدأ الظلام يزحف نحوها - وعلى الإقليم الذي أدت له أجلّ الخدمات، وبسطت عليه حماها، ورفعت من شأنه في بعض حقب تاريخية.. بل لقد امتد أثر تلك التقاليد إلى الوطن الذي كان يستمد قوته من استمرار قيام أمثال هذه الأسرة، ومن عراقتها وصلابة كيانها..

وعاد السيد روكڤيار يردِّد مرة أخرى: «إن الإنسان لا يتذرع بالموتى في دفاعه!»، ولكنَّه أردف في الحال: «لا، ليس بالموتى، وإنما بالأحياء.. وإنهم لحاضرون جميعاً، لا يتخلّف واحد منهم عن تلبية النداء!.. لقد فتحت الأرض صدرها لتسمح لهم بالخروج.. ولسوف أجتاز هذا الوادي الضيِّق الذي يفصل بيننا.. فأنا أتوق إلى الانضمام إليهم!».. وأخذ يسبر عمق الوادي الضيِّق المعتم، وكأنما احتشدت أطياف أسلافه جميعاً فيه!.. وزحف الظلام على الطبيعة، فاحتوى السهل بأكمله، وراح يصعد والجبال تحاول أن تصده، ولا سيما جبل «نيفوليه» ذو السفح المقسّم إلى طبقات، والذي كان يقف في وجه الغرب، ومن ثم انصبَّ عليه لهب الشمس الآفلة المشتعلة، فبدا ما كان يكسوه من جليد أرجواني وبنفسجي كأنه يشع وهجاً كذلك الذي ينبعث من معدن مصهور!

وأخذ السيد روكڤيار يتتبع معركة الغروب، وهو يطل من أعلى التل.. وإذا بكل كيانه ينتفض! لقد لمح فجأة الأطياف تصعد مع ظلال الغروب.. كل الأطياف ارتفعت مغادرة المزرعة، في طريقها إليه!.. كانت الأطياف عينها التي تمثّلها منذ لحظة متجمّعة في الوادي الضيق، وكأنما خفّت إليه لتشعره بوجودها، وبعونها،

وبولائها له!.. وانتشرت على جميع الدروب، فكأنها جيش يحتشد حول قائده الواقف على قدميه عند أسفل شجرة البلوط. حتى إذا التأم شمل الجنود، سمع الجيش يناديه طالباً منه أن يقوده إلى النصر: «لقد عملنا، وأحببنا، وكافحنا، وتألمنا، لا لهدف شخصي فحسب، ولا لغرض تحقق أو لم يتحقق لكل منّا، وإنما لغاية أبقى على الزمن منّا.. هي الأسرة.. ولقد منحناك كل ما جمعناه للصالح المشترك، كي تسلّمه بدورك لمن يليك.. وليست المزرعة هي الذخر المتوارث، فما المزرعة سوى أرض تُقتنى بالعرق والدأب المنظم، وإنما الذخر هو روح سلالتنا التي تحملها بين جنبيك، وإنّا لنوقن من أنك قادر على الذود عنها. ما الذي قلته في يأسك عن الوحدة والموت؟.. الوحدة؟ ألا أحصِ عددنا ثم نبّئنا: من أين انحدرت؟.. الموت؟ إنَّ الأسرة نقيض الموت، وما دمت تحيا فنحن جميعاً أحياء. ولسوف تُبعث إذا ما لحقت بنا، إذ إنَّ حياتك تتجدّد في ذريتك. انظر: ها نحن أولاء جميعاً حضور، في هذه اللحظة الحاسمة، فارفع عنك آلامك كما رفعنا نحن الحجر عن أجداثنا، واعلم أنك أنت الذي اختص بشرف الدفاع، وبإنقاذ آخر سلالة روكڤيار. لسوف تتكلم باسمنا، وفي وسعك ـ بعد أن تتم رسالتك ـ أن تلحق بنا في سلام الله..».

واتكأ السيد روكڤيار على شجرة البلوط بيده. وكان الظلام قد أحاط بجبل «نيفوليه» الذي ارتفع على أعلى طبقات سفحه صليب أخذ يتوهّج قبل أن ينطفئ، كشعاع الشمس المنحدرة إلى المغيب.. وإذ ذاك، استشعر الشيخ طمأنينة عارمة، وتقبّل الرسالة التي عهد الماضي بها إليه، وهتف لنفسه: «أنا الذي سأتولى الدفاع عنك يا موريس.. ولن أذكر قط اسم السيدة فرازن!».. وعندما ابتعد عن الشجرة، أخذ يتأمل المكان الذي همَّ بأن يغادره، وقال لنفسه: «هنا، سأشيد البناء من جديد.. أنا أو ابني!».

5 - نداء السماء

موت هوبير روّع موريس وحطّم الكبرياء التي كانت تعزله عن الأسرة. وانصرفت مرغريت من السجن، بعد أن أطلعته على النبإ المحزن، فسارت في الشارع لا تكاد تبصر شيئاً، إذ أطبقت أحزانها عليها. وما إن بلغت باب الدار حتى سألت خادمها: «هل عاد السيد؟».. كانت متلهفة إلى شدّ أزر أبيها، بعد أن شدّت أزر أخيها، وهي تقاوم العذاب النفسي بتلك القوة المألوفة لدى النساء أكثر ممّا هي لدى الرجال، والتي تدعو إلى التسرية عن الآخرين، بدلاً من الاستسلام للأحزان!

وكان الجواب الذي تلقّته من الخادم: «لا، لم يعد بعد يا آنسة». فهتفت في دهشة وقلق: «لم يعد بعد؟!».. كانت قد مكثت في السجن وقتاً طويلاً، وها قد حل المساء، ولم يكن السيد روكڤيار قد غادر الدار إلاّ لنزهة قصيرة، إذ كان يتوقع أن يزوره السيدان «هاميل» و«باستار» في الساعة الخامسة، ليستعرض معهما آخر وجهات النظر فيما يتعلق بجلسة الغد. ومن ثم فقد كان غيابه الطويل ـ في ظروف كهذه ـ أمراً غريباً!.. وقالت الخادم مستطردة: «ولكنَّ في قاعة الاستقبال سيِّداً يبغي مقابلة الآنسة». فتساءلت مرغريت: «مقابلتي أنا؟». فأجابت الخادم: «أجل يا آنسة». فعادت الفتاة تسألها: «ومَن يكون؟».

ـ لقد ذكر لي اسمه، ولكنني لا أذكره.. إنه طبيب.

وكانت الخادم ريفية لم تتأقلم بعد، ولم تألف وجوه أهل البلدة وأسماءهم. فقالت لها مرغريت في تأنيب: «لم يكن ينبغي استقباله يا ميلاني، في يوم كهذا». فأجابت الخادم: «هو ذلك يا آنسة، وما نسيت هذا، ولكنه أبى أن ينصرف، إذ إنه جاء في مهمة خاصة للآنسة!».

ودخلت مرغريت قاعة الاستقبال على كره منها، وقد استبقت قبعتها ونقاب الحداد، لتتعجل رحيل هذا الفضولي، وإذا بها تجد نفسها وجهاً لوجه أمام «ريمون بيرسي»، الذي تمتم متلعثماً في اضطراب وكأنه فتاة: «يا آنسة!».. وتقهقرت مرغريت في حركة أدرك لفوره مغزاها، فهتف في توسّل محاولاً استبقاءها: «اغفري لي مجيئي يا آنسة مرغريت.. لقد علمت مساء أمس بمصابكم، ومن ثم..»، فتقدّمت منه قائلة: «سيدي!»، ودفعته هذه الكلمة وحدها ـ بما تجلّى فيها من حزم ـ بعيداً، ومنعته من مواساتها! فقد كانت مرغريت تكره الرثاء، مثل أبيها! وأرتج القول على خطيبها السابق، فطأطأ رأسه، لائذاً بالصمت. وإذ ذاك قالت، وقد لانت بعض الشيء: «لماذا أصرّ السيد على مقابلتي.. اليوم؟». فتطلّع إليها مبتهلاً في ضراعة، وقال في أسًى: «لأنني سأكون جدّ متأخّر، لو انتظرت إلى غد». فقالت: «جد متأخّر؟ غداً؟.. ألديك أمر تريد أن تفضي به إليّ؟.. أهو بشأن موريس؟».

كانت قد نسيت نفسها، فلم يخطر لها أنها المعنيَّة بالزيارة. ألم تقطع كل رابطة بينها وبين «ريمون» منذ عام.. منذ اليوم الذي لم تحجم فيه عن فسخ خطبتها ـ في دار السيدة بيرسي ـ دفاعاً عن كرامة اسمها؟.. ولم يسعَ الشاب قط ليستعيد حبها ويدها. ثم تتابعت الحوادث كالعاصفة: بلاغ السيد فرازن، وموت السيدة روكفيار، وصدور الحكم على موريس غيابيّاً، وهوان الأسرة وخرابها، ثم.. آخر مصائب القدر: فقدان الأخ الأكبر، الذي كان مدّخراً للمستقبل. كانت هذه الأحداث من الكثرة بحيث لم تدع للشاب مسوِّغاً في هجره، وابتعاده، ونسيانه. ولكن، أليس من خصائص البؤس أنه يوسع الهوة بين الناس؟.. لقد استنزفت مرغريت ـ في وحدتها ـ دمعها، وتجرّعت أساها، وعانت وحدها

المرارة دون أن يقاسمها أحد. فبأي حق يأتي الآن هذا الشاب فيفرض عليها وجوده غير المجدي، وعطفه المتأخِّر؟ لا بد أنَّ ثمة سبباً آخر دفعه إلى هذه الخطوة، ولعله يعرف شيئاً يفيد الدفاع عن المتّهم. ومن أجل هذا الغرض، وهذا الغرض وحده فقط، تلتمس له العذر في اقتحامه الباب، ودخوله المنزل! على أنَّ الشاب لم يتعجّل الإفصاح، وكان من الواضح أنه كان يعاني اضطراباً عميقاً طاغياً.

قالت مرغريت أخيراً: «تكلّم يا سيدي». فأجاب: «إنَّ الأمر لا يتعلق بموريس». وتساءلت وهي تتقدم منه خطوة: «إذاً؟».. ثم رفعت النقاب الذي كان يعوق حركاتها ويحجب وجهها. وبدت له في اقترابها ـ وقد شدّت قامتها وعضلاتها ـ كما لو كانت قد ازدادت بعداً عنه! وبين الثوب الأسود والشعر الأسود، لاح وجهها شديد الامتقاع، وبدت عيناها ذابلتين، وشفتاها رقيقتين كأنهما مجرّد خط أحمر!.. وحبس الشاب دموعه ـ لفرط إحساسه بأنها بعيدة، حزينة، ولخوفه من أن يعجز عن إلانة قلبها، وتلهّفه إلى أن يسرّي عنها بحنانه الفياض ـ واستجمع كل شجاعته، وشرع في الكلام متلعثماً، ثم أخذ صوته يقوى رويداً رويداً: «ألا أنصتي إليَّ يا آنسة.. يجب أن تصغي إليَّ، ولن تلبثي أن تفهميني وأن تصفحي عني.. لا بد لي من أن أتحدّث إليك اليوم!.. إنني أحترم ألمك وأشعر به.. أرجوك، لا تقاطعيني! ليس بوسعك أن تمنعيني من أن أحس بألمك، فإنني أتعذّب ـ أنا الآخر ـ منذ ذلك اليوم.. وإنَّ عذابي ليجعلني أكثر إدراكاً لآلام الآخرين. لقد أحببتك. آه! لا تقطعي عليَّ الحديث.. دعيني أفرغ ما في جعبتي! أجل، لقد أحببتك، ولم أكن أتصوَّر مستقبلي إلاّ في قربك. ولكنني صادفت من أسرتي مقاومة شرسة، وعراقيل كأداء، بسبب.. بسبب أخيك! فإنَّ أمي ـ وإن كانت طيبة في قرارة نفسها ـ تصغي إلى أقاويل

الناس، وأبي يفكّر في مستقبلي! إنّه من رجال العلم، لا يعيش إلاّ بين جدران مكتبه، أو إلى جوار مرضاه. أمّا البيت، فلا سلطان له عليه!!.. وأنا.. آه، لا.. لست أريد أن أمضي في اتّهام الآخرين لكي أخفّف من ذنبي. لقد كنت جباناً، خسيساً.. ولكنني نلت عقابي، وإذا كنت لم أدافع عنك، فما ذلك إلاّ لأنني لم أكن أعرف كيف أدافع عنك..».

وأومأت عدة مرات تحاول أن تقاطعه، وقد وقفت منتصبة القامة، في ترفّع غير متعمّد، فكشفت بجلاء عن ذلك الإباء الذي فطر عليه آل روكفيار، والذي ألّب عليهم كثيراً من الأعداء! وكانت في تلك الأثناء ترمقه بنظرة حزينة من عينيها المغرورقتين، وبذلك الجلال الغامض الذي ورثته عن أمها. وما لبثت أن أجابته ببساطة: «ولكنني لم أطلب إليك أن تدافع عني!». فقال متلجلجاً: «هذا صحيح يا مرغريت..». ونسي في اضطرابه الأسلوب المصطنع، فناداها باسمها مجرّداً، كما اعتاد أن يفعل عندما كان خطيباً لها - من قبل - ثم استطرد: «بل إنني نقمت عليك ازدراءك لي!».. فقالت: «أنا لا أزدري أحداً يا سيدي!».

- بل إنك طعنتني طعنة نجلاء بنظرتك القاسية في ذلك اليوم الذي أعفيتني فيه من عهودي.. ما كان أشد قسوتك!

فهتفت بصوت مختنق: «أنا.. قاسية؟». وقدرت أن لا جدوى من الردّ، ولكنها ثارت في أعماقها على هذا الظلم. بينما أردف الشاب: «أجل، فما كنت أفهم حتى ذاك الوقت قيمة اعتزاز المرء بكرامته في النوائب. لقد لعنتك، ولكن قلبي كان يتحطّم!.. كنت أتّهمك بدلاً من أن أعترف بتفاهة هواجسي وشكوكي، وبافتقاري إلى الرأي السديد. على أنني تغيرت كثيراً، وأقسم لك!.. إنني الآن معجب بك، وأمجّدك، بل أعشقك.. أجل!.. لا تتكلمي. دعيني

أكمل حديثي! لقد حاولت أن أنساك، وأراد والداي أن يزوِّجاني من فتاة أخرى وأن يطمئنا على استقراري، كما يقولان. ولكنني لم أستطع.. لست أحب، ولست أملك أن أحب سواك!». فهتفت: «أرجوك يا سيدي». ولكنه مضى في حديثه: «إذا كان ثمة قدر من الخير أستطيع أن أفعله فأنت مصدره. سأسمو بنفسي إلى مستواك شيئاً فشيئاً. إنَّ الرجال الذين على شاكلتي - بل كل الرجال - يتأرجحون بين الخير والشر، وبين الوفاء والغدر.. وليس يجول بخاطرهم أنهم مدفوعون بكل ما في الحياة من أمور حقيرة! على أنهم قد يصادفون أحياناً حافزاً واحداً يرفع من شأنهم.. ولقد أمدّني حبك بهذا الحافز!».

وتوقّف عن الكلام مترقّباً كلمة تبعث في نفسه الأمل.. فغضت مرغريت بصرها، وتركت النقاب يتدلّى على جانب وجهها ملقياً عليه شيئاً من الظلام. وعاد «ريمون» يتمتم: «مرغريت.. ردّي عليَّ عهودك، واقبلي أن تكوني زوجتي!.. إنني أهواك، وإنَّ حبي ليزداد لما أنت فيه من آلام!».. ورآها ترتجف، ولكنها أجابت في غير تردّد: «هذا مستحيل، فلا تطلبه مني!». وصدمه هذا الرفض لأنه صدر في وقت كانت تساوره فيه بقية من غرور توسوس له بما في خطوته من نبل وشهامة.. ومن ثم انفلتت منه صيحة كصيحة اليائس المتداعي، وهتف متأوِّهاً: «إنَّ هذا كل هنائي، فكيف تريدينني على أن لا أطلبه منك؟». ولانت على الفور، فاكتسب صوتها رقّة جديدة، وقالت: «ستمنحك امرأة أخرى هذا الهناء. إنني موقنة من هذا، وأرجوه لك!».

ـ أنا لا أرى في الدنيا امرأة سواك!

ـ لا، لا.. هذا مستحيل، فلا تعذبني!

ـ مستحيل!؟ ولماذا يا مرغريت؟ لماذا تثبطين عزيمتي؟ إنك لا

تحبينني!.. على أني قد أنجح يوماً في أن أجعلك تحبينني، فهل ما زلت ترفضين؟.. أوّاه! يا إلّهي!.. أترمين بي دون سبب؟

وبدا أنها تبحث عن مخرج، فتردّدت، ولكنّه كان يرتقب ردّها في لهفة. وأخيراً قالت: «إنني لم أعد تلك الفتاة التي كنتها في العام الماضي». فقال في حيرة: «لست أدرك ما تقولين».. وإذ ذاك قالت: «لم أعد أملك صداقاً». فهتف: «أهذا هو السبب؟.. إنني لا أستحق منك هذه المعاملة يا مرغريت. إنّ في نفسك ـ في عينيك ـ شعاعاً يسطع كأنه صفاء الحياة!.. إنني حين أنظر إليك أحس بالشجاعة تدبّ في نفسي، وبالرغبة في عمل الخير، وباحتقار ونسيان جميع الرغبات الحقيرة القائمة على الماديات! فأيّ قيمة للثروة إذا قيست بهذا الذي تمنحينني، والذي يبث فيَّ القوة والشجاعة؟». فقالت متسائلة: «وإذا حدث غداً..»، فلمّا أمسكت عن إتمام قولها، ردّد هو التساؤل: «وإذا حدث غداً؟».

ـ إذا حدث أن مُنينا غداً بكارثة أفدح.. إذا حدث أن قُضي غداً بإدانة موريس؟!

ـ إنَّما جئت اليوم بدافع من هذا الخطر المحدق.. جئت أطلب شرف الوقوف إلى جانب أبيك في محكمة الجنايات غداً، كابن له.. ولهذا كان لا بد لي من أن أقابلك اليوم!

فتمتمت: «آه!».. وأدرك من دهشتها أنَّ كل ما كانت تبديه له من عدم اهتمام قد تبدّد أخيراً.. وتبيَّن أمارات العطف والعرفان ـ وربما التقدير أيضاً ـ على ذلك الوجه الشاحب الذي كان يقرأ عليه كل ما كان يعتريها من مشاعر.. فتراءت له السعادة غير مؤكّدة، وغير واضحة، ولكنها موجودة.. يهز وجودها فؤاده. ودعمت مرغريت أمله حين مدّت له يدها قائلة ـ في غير تحرّج من ذكر اسمه كما اعتادت في الماضي أن تذكره: «أشكرك يا ريمون.. لكم أنا

متأثرة، أعمق التأثر!». ولكن هذا لم يكن القول الذي توقّعه الشاب، فأخذ يتأمّلها في ذهول مُقلق، موجس، حتى إذا لاذت بالصمت، تمتم في استحياء: «فيم الشكر، ما دمت أحبك؟.. أحسب أن هذا الحب أعظم قيمة من أي شيء آخر».. ثم تأوّه وقال: «مرغريت.. ألا تودين أن تصبحي زوجتي؟».

ورأى على وجهها الشاحب أمارات الحنان والأسى. ولكنها قالت: «ريمون.. إنني لا أستطيع»، فهتف: «لا تستطيعين؟ إذاً.. إذاً فأنت تحبيّن شخصاً آخر». فتأوّهت قائلة: «آه، يا صديقي!».

ـ أجل، إنك تحبين شخصاً آخر.. شخصاً لم يكن جباناً مثلي، أدرك ما تنطوي عليه نفسك، ففهمك، واستحقك.. بينما فقدت أنا هنائي بخطأي.. هذا عدل، ولكن وقعه أليم على مَن يحب!

وانهمر دمعه فمزّق نياط فؤادها، وقالت وهي تهتزّ انفعالاً: «ريمون، أتوسل إليك أن لا تكلمني هكذا». فقال: «لست أتّهمك، فأنا المذنب.. كما أن هناءك أعز عليَّ من هنائي!».. وإذ ذاك قالت وفي نفسها أمر كتمته: «أصغ إليَّ يا ريمون!».. فتهالك فجأة على أحد المقاعد، واهن النفس، واحتوى رأسه بين راحتيه، غير متحرِّج من البكاء. وبحركة سريعة، رفعت مرغريت قبعتها، كالممرضة التي تتخفّف ممّا لا نفع له من ثيابها، لتحسن أداء عملها. وتناولت يدي الشاب وأزاحتهما عن وجهه بقوة، وقالت: «انظر إليَّ!».. وسيطرت على الموقف، لا بطريقة أبيها الآمرة الصارمة، وإنما في لطف وادع! ولم تحاول أن تتصنّع شيئاً، أو أن تكتم شيئاً من مشاعرها، أو أن تدافع عن مسلكها، بل أقبلت عليه في بساطة بالغة، فإذا به يستسلم لتأثيرها، ويطيعها بطريقة آلية، إذ إنه لم يكد يرمقها حتى كفَّ عن البكاء. فقد تبدّلت أسارير وجه الفتاة، وأضاءتها النظرات المنبعثة من أعماق نفسها، فبدت كالهالة التي تحف

بأولئك الذين وُفّقوا إلى الطمأنينة بعد التوتّر والانفعالات.. وكساها - وهي حيَّة! - ذلك الوقار الصافي الذي يكسو وجوه الأموات، فتلاشى كل أثر للألم من وجهها الشاحب وعينيها الذابلتين، وتولاّها هدوء عميق راسخ، يكاد يكون رهيباً!.. وصاح الشاب في لوعة ولهفة، كمن يستوقف رفيقاً يوشك أن يتردّى في هاوية: «مرغريت، ما بك؟».. ولكنها كرّرت قولها السابق: «أصغ إليَّ يا ريمون!». ثم أردفت: «أجل، إنني أحب شخصاً آخر!». فصاح ملتاعاً: «آه! كنت أعرف هذا».

- أحب شخصاً آخر لا تستطيع أن تغار منه.. إنني لن أتزوّج، ولن أكون امرأة أحد.. لسوف أسلك طريقاً آخر.. ومع ذلك، فإنني لم أوت العصمة التي تقيني من الشعور بالزهو إزاء الحديث الذي قلته لي منذ لحظة!.. إنني لا أزال أتمسك بالكبرياء، وهي من عيوب أسرتنا.. ولكن توالي الخطوب علينا كان يتطلّب منّا أن نعتز بأنفسنا قليلاً!

وارتسمت على شفتيها ابتسامة رقيقة، لم تلبث أن تلاشت وكأنها أشفقت أن تغيِّر من طهر معالم هذه الأسارير الجامدة. وعادت الفتاة تتكلّم - بينما اعتصم الشاب بالصبر، مستسلماً للقوة الغامضة التي كانت تنبعث منها: «لا، لن أنسى أنك اخترت الساعة التي تكاثفت عليَّ فيها أشدّ الأحزان، كي تعود إليَّ من جديد!»...، فهتف ريمون كالطفل: «إنني أحبك!».

- يجب أن تكفّ عن حبي يا ريمون!.. لقد لبيت نداء آخر سبق نداءك.. سأكشف لك عن سرّ لا يعلم به أحد.. حتى أبي، ولكنني لا أتردد في أن أُفضي به إليك، فاحفظه لي: لقد عاهدت الله - عندما فقدت أمي - على أن أحل محلها في بيتنا الذي اجتاحته النوائب والمصائب.

ـ ألم تتمي هذه المهمة؟

ـ إنها لم تتم بعد.

ـ وهل يمنعك الزواج من إتمامها؟.. إننا لن نغادر «شامبيري».

ـ إن الإنسان لا يستطيع أن يوزّع نفسه بين اثنين يا ريمون.. لقد نزلت عن سعادتي الشخصية، وما أعظم القوة التي استشعرتها يوم نبذت هذه السعادة!

فوثب في عنف، وهتف محتجّاً: «ولكن هذا جنون يا مرغريت.. ليس من حقك أن تنسي نفسك إلى هذه الدرجة. لسوف تعيشين بعد أبيك، ولسوف تبرّأ ساحة أخيك غداً، وسيعيد بناء صرح حياته من دونك. أمّا أنت، فما الذي تصيرين إليه وأنت وحيدة؟.. وما جدوى أن تضحّي بنفسك من أجل وساوس وهواجس زائفة؟».. فقالت: «لقد طُعن أبي في الصميم، كما أن أخي مهدّد بالخطر دائماً. فلا تسلبني جزءاً من شجاعتي بقولك إنني سأكون عديمة الجدوى لهما!».. فكفَّ ريمون عن النضال، إذ ساوره شعور داخلي أثارته أسارير مرغريت أكثر ممّا أثاره كلامها.. شعور أوحى إليه بالهزيمة. فتوسّل إليها في صوت حنون، خجول: «وإذا انتظرتك، فهل تصدّينني؟.. إذا بقيت وفيّاً لك حتى تتمي رسالتك العائلية، فهل توافقين على العودة إليَّ؟.. إنني أحبك إلى الدرجة التي أفضل عندها الصبر، حتى لا أفقدك.. ولسوف يكون الصبر قاسياً وعذباً، في آن واحد. فهلاّ توافقين؟».

إزاء هذا العرض المنطوي على شهامة وحب عارمين، كفّت عينا الفتاة عن الوميض لحظة، فظن ريمون ـ حين رأى تأثّرها ـ أنها أوشكت أن تلين، وعاوده أمل لم تلبث الكلمات الأولى من ردّها أن بدّدته: «لا يا ريمون.. لن أقبل قط أن أرسي أسس مستقبلي على آلامك! هذا مستحيل! إنك لم تفهمني تماماً! لقد وهبت نفسي لله،

فلا تحاول أن تستردّني!».

فهتف الشاب في لوعة: «أواه يا مرغريت!».

ـ إنَّ المرء إذ يهب نفسه لله، فإنَّما يهبها لكل مَن يتعذّب!

ـ الآن فهمت.. إنَّك تريدين الانخراط في سلك الرهبنة.

ـ لست أدري بعد.. على أن هناك طرقاً كثيرة لخدمة الله. فلا تبح بما قلت لك لأي إنسان.. أتبكي؟.. لا تبك يا ريمون. ليسكب الله عليك العزاء كما سكبه على قلبي!

فصاح: «لا.. لن أجد العزاء مطلقاً!».. وسالت دموعه وهو يسألها: «ما الذي تنوين عمله؟». فأجابت: «لسوف أساعد أبي ما بقي على قيد الحياة، ولسوف أساعد موريس إذا ما احتاج إليَّ. لقد عاهدت أمي على ذلك وهي على فراش الموت. وسأكرّس قواي بعد ذلك لخدمة البائسين والشيوخ، أو لرعاية الأيتام. وقد أُنشئ هنا مدرسة لأبناء المعوزين.. لست أدري، وليس بوسعي الآن أن أجزم، فلا داعي إلى التعجل لأنَّ الوقت لن يلبث أن يحين من تلقاء ذاته.. أفلا ترى أنك الآن عليم بكل أسراري؟».. فتمتم قائلاً: «وأنا؟.. ما الذي قدّره الله لي؟.. إنَّك تفكرين في مواساة كل البائسين وتنسينني!». فهتفت ضارعة: «ريمون!».

ـ إنني أكثر تعاسة من جميع البائسين. إنهم لم يعرفوا السعادة، على الأقل، أمّا أنا فإني ألقي بها من علٍ!

ـ لا، لا تتحسّر عليَّ، فإنني لم أخلق للزواج!.. لقد أنذرني الله بذلك في شيء من القسوة. أمّا أنت، فإنه ولا بد قد آثرك بفتاة أخرى أكثر مني مقدرة على إسعادك.

ـ ما من فتاة تضاهيك يا مرغريت.. إنك لست من أولئك اللاتي يمكن الاستعاضة عنهنَّ بسواهنَّ!

وتسلّلت العتمة إلى غرفة الاستقبال مع هبوط المساء، ولكن وجه الفتاة المشرق بالروحانية ظلَّ محتفظاً بضيائه في هذا الظلام، ولو أن هذا الضياء لم يكد يقوى على أن يشيع الحياة في الصفاء الشاحب الذي كان يجلّل ذاك الوجه، حتى ليخشى المرء أن يحسّ فيه ـ إذا مسّه ـ ببرودة الصخر، بدلاً من دفء الحياة!.. وقالت مرغريت أخيراً: «إنك لن تلبث أن تنساني.. لا بد من هذا، ولا سيما أني أرغب فيه!».. فحدق إليها في برود، كسائح يتأمل قمة لا سبيل إلى بلوغها، وقال: «لا سلطان لك على ذاكرتي». فقالت: «إذاً، فاذكرني في غير مرارة، كما تذكر أختاً ماتت».

ـ لا يا مرغريت، لا سبيل إلى أن أذكرك دون مرارة.. لقد سموت بفكري وفؤادي، ثم تركتني أسقط من حالق!

وتأثّرت لقوله، فأجابت في لهجة حازمة، أوشكت أن تكون قاسية: «إذا كنت قد أحببتني يا ريمون.. إذا كنت قد أحببتني حقّاً، لمنحتني سروراً سامياً بإدراكك أنَّ رسالتي لن تكون عديمة الجدوى، بالنسبة إليك أنت الآخر.. ولما وسعك أن تيأس إزاء رفضي، لأنه يجب أن لا يضيرك، فهو لا يستطيع أن يجرح شعورك أو أن يحط من قدرك. يجب أن تكون ذكراي بلسماً لجراح حياتك لا مورداً لهلاكك. ذلك لأنني أحببتك يا صديقي، وكنت أرقب في طمأنينة اقتراب يوم زفافنا.. وما الطمأنينة سوى هدوء النفس، وأمان المستقبل. ولكن عاصفة غير متوقعة فرّقت بيننا.. وسمعت خلالها نداء الله!.. فإذا كان الله قد شاء أن لا أحمل السعادة إليك، وإذا كان قد ابتلاك أنت الآخر، فدعني أعتقد أن هذه التجربة بالذات خليقة بأن تقويك، وترفع من شأنك، وتسمو بنفسك.. وإذا كنت أنا ـ على معايبي ومثالبي ـ قد ساعدت على السمو بك، فلا تقل إنَّك ستهوي من شاهق. لسوف أصلي من أجلك كثيراً!».

ولمّا كانت مرغريت مستغرقة في نجواها، فإنّها لم تره وهو يجثو أمامها ببطء، ولكنّها أحست بشفتيه على يدها، فهتفت: «ماذا تفعل يا ريمون؟ ألا انهض.. أرجوك!». ونظرت إليه وهو جاثٍ عند قدميها، وقد بهتت لهذا الانهيار الجديد الذي أبداه أمامها. ولم تعد أساريره تتلوّى لفرط العذاب، وإنّما بدا وجهه واجماً حزيناً، في هدوء. فقد استولى عليه ـ دون شعور منه ـ ذلك الجَلَد وتلك السكينة اللذان كانا يشعان من إيمان الفتاة. وتمتم ريمون: «لم أكن أهلاً لك.. ولكنني أحببتك كل الحب!». فعادت تهيب به: «ألا انهض.. أرجوك!». وقال وهو ينهض: «ما من رجل جدير بك.. وهذا هو عزائي الأوحد!».

وتمّت التضحية، فشعرا بها كما لو كانت شيئاً ماديّاً ملموساً! وأخلدا إلى الصمت. ودخلت الخادم ـ خلال هذا الصمت الجاثم، المفعم بالحزن ـ إلى الغرفة التي سيطر عليها الظلام، فوجدت عناء في تبيُّن مخدومتها التي تلاشى شكلها في العتمة. ونادتها قائلة: «يا آنسة!».

ـ ماذا جرى يا ميلاني؟

ـ لقد وصل السيدان.

فقالت مرغريت: «آه! وهل أدخلتيهما مكتب السيد؟». فأجابت الخادم: «أجل يا آنسة!». فعادت مرغريت تسألها: «ألم يصل السيد بعد؟».. وكان الجواب: «لا يا آنسة!».

ـ سليهما أن ينتظراه بضع دقائق فقط، فإنه قادم!

وكان تأخر أبيها ـ دون ما سبب ـ قد بدأ يشغلها، فأدرك «ريمون بيرسي» أن بالها قد نأى عنه. وهمس لنفسه: «أبمثل هذه السرعة؟».. لقد كان في أقل تقدير يشغل فكرها وقلبها عندما صدّت حبه في رفق منذ لحظات.. حتى اللوعة التي بعثتها في نفسه

كان مديناً بها لها، وكانت محببة إليه ما دامت مرغريت مبعثها!.. ورمقها بنظرة أخيرة، وكأنه يقدّر فداحة الخسارة التي مُني بها، ولكي يحفر شكلها في أعماق ذاكرته. ثم تأهَّب للانصراف، متمتماً: «وداعاً يا مرغريت!».

ـ وداعاً يا صديقي، فامض بسلام.. لسوف أقرن اسمك بأسماء أفراد أسرتي في صلاتي. أفتريد أكثر من هذا؟

ـ شكراً.. لقد قام أمامي أمل عظيم، ولكني هدمته بنفسي!

فأجابت بصوتها الحازم: «إنَّ الله ـ ولست أنا ـ هو الذي أراد ذلك.. فليحفظك الله!».. وانحنى لها، ثم انصرف. وما إن ألفت نفسها وحيدة حتى اعتمدت جبينها براحتيها. ولكنها لم تلبث أن نهضت فسارت إلى مكتب أبيها حيث رجت الأستاذين «هاميل» و«باستار» أن ينتظرا أباها الشيخ بضع دقائق أخرى. وكان القلق بدأ يستبد بها شيئاً فشيئاً، فاعتزمت أن تخرج للبحث عنه.. وفي تلك اللحظة سمعت صوت مفتاحه يدور في قفل الباب الخارجي، فهرعت إليه قائلة: «أبي.. هأنتذا أخيراً!».. فجفف السيد روكفيار العرق الذي تفصّد من جبينه، رغم البرد، لفرط إسراعه في السير، وسألها: «هل حضر السيدان يا مرغريت؟».

ـ إنهما ينتظرانك.

ـ حسن، إنني ذاهب إليهما.

ووقفا وجهاً لوجه في الردهة المضاءة. ولما كانا قد افترقا في يأس وتداع نفسيّ، فقد أدهشهما أن طالع كلٌّ منهما على وجه الآخر نوعاً من صفاء النفس بدَّد ما كان يعلو أساريرهما من حزن وخوف! وأحسّا بإلهام روحي منبعث عن الثقة: فقد كان الأب ينصت إلى نداء الماضي المنبعث من أجيال سحيقة.. وكانت الابنة تصغي إلى نداء الله!

6 - المحامون الثلاثة

ما إن دخل السيد روكفيار غرفة مكتبه، على عجل، حتى بادر زميلاه ـ اللذان كانا يتجادلان ـ إلى النهوض لاستقباله. ولم يتمالكا نفسيهما من الدهشة حين ألفيا ـ بدلاً من الرجل الذي حطّمه الأسى لوفاة ابنه ـ زميلهما روكفيار المعهود، الذي كان مرهوب الجانب في المحكمة، وموضع الشورى في المسائل العويصة العاصفة، لرجاحة حكمه وحزم قراراته.. والذي كانت شخصيته الطاغية تقابل ـ كنظرته الثاقبة ـ بالحرج والمضض.

قال في بساطة أغنت عن الاعتذار: «لقد تركتكما تنتظران». وكان السيد «هاميل» ـ بتاج شعره الأبيض،وقسماته الحادة، وترفّعه المتكلّف بعض الشيء ـ يبدو في شكل وقور.. كما كان السيد «باستار» بلحيته المرسلة على صدره، ورأسه المائل إلى الخلف، يفرض شخصيته ويحتل الصدارة في كل مكان.. ومع ذلك فقد بدا المحاميان ـ في حضرة السيد روكفيار ـ كما لو كانا في حضرة رئيس كان أولهما يتقبّل رياسته عن طيب خاطر، وكان الثاني يتقبّلها على الرغم منه!.. وزال ما كانا يمتازان به من أمارات التفوّق أمام أمارات أخرى لا سبيل إلى إنكارها أو تجاهلها. وتمتم النقيب الشيخ وهو يبسط يده إلى السيد روكفيار: «يا صديقي!».. بينما قال السيد «باستار» في تكلّف: «يا زميلي العزيز». وأخذا يعزّيانه: الأول في ود وتأثّر، والثاني في عبارات عادية، فأجاب مضيفهما وهو يشير بيده، قاطعاً عليهما استرسالهما: «أجل، لم يبق لي غير ولد واحد. وهذا الولد سأنقذه.. أجل، أريد أن أنقذه، وإليكما الذي قررت».

كان هذا الاجتماع الأخير قد عقد بالتحديد بين المحامين الثلاثة

ليتّفقوا نهائيّاً على خطة الدفاع، فإذا بواحد منهم ينفرد بالرأي دون مشورة.. وهتف نقيب المحامين، الذي أخذ بهذه الثقة وذلك الحزم: «آه!»، بينما رد السيد «باستار» في شك، وهو موزَّع بين احترام حداد رب الدار وبين اعتداده بقيمة نفسه: «قرّرت؟!».

وفي هدوء، وصوت رنّان، أماط السيد روكڤيار اللثام عن فكرته بكلمات مقتضبة: «ستساعدانني أنتما الاثنان.. فأنا الذي سأتولى المرافعة!».. فهتفا معاً: «أنت؟!».. «أنت؟!». وكانت إحدى الكلمتين مفعمة بالدهشة، والثانية حافلة بالغضب. وحدّق السيد «هاميل» إلى رفيق الجهاد القديم بعينيه الخابيتين، اللتين كان بريق الحياة يرتعش فيهما واهناً، وإن ظل محتفظاً بصفائه.. في حين تلقّى المحامي الآخر «باستار» في استياء نبأ إعفائه من المرافعة في قضية حسّاسة ومدوّية.. ونسي ظروف القضية والمصائب التي نالت من الأسرة وأسلمتها إلى اليأس بعض الوقت، لكي يقصر تفكيره على الانتصار الذي كان يرجوه لشخصه، ثم انتُزع منه بقسوة!.. وقال السيد روكڤيار في لهجة الأستاذ اللطيف الذي يعرف - رغم مجاملته - كيف يفرض إرادته: «أجل، أنا!.. سأطالب بابني في قوة ولسوف يُردّ إليَّ.. فما من أحد ينكر ابناً على أبيه!».

أما وقد أملى الثاكل إرادته، وكأنها أمر، وأعرب عن نواياه في الصراع، فقد راح يعمل على استبقاء حليفيه، في شيء من الديبلوماسية.. فقد كان خبيراً في الجمع بين أسلوبه الآمر وبين فنّ قيادة الرجال. ولمّا كان على يقين من معونة النقيب، فقد ركّز كل جهوده على السيد «باستار» الذي كان قميناً بأن يتخلّى عنه: «لسوف تحضران معاً، إذ إنني أعوّل عليكما، وإذا كنت أطلب أن أحل محلّك يا باستار، فليس ذلك لأنني أقيس كفاءتي على كفاءتك، وإنما لأنَّ هناك أموراً يمكّنني موقفي المميَّز الأليم - كرب الأسرة -

من أن أوضحها للمحلّفين!».

ـ وما هي هذه الأمور؟

ـ إنها سرّ أحتفظ به، وستعرفه غداً. وإني لأعتقد أنني كفيل بإقناعهم ببراءة ابني، دون أن أورد اسم السيدة فرازن!

ـ هل ستتوسّل لأجل هذا بزوال الضرر الذي وقع؟

ـ لا، بل مباشرة!

ـ لست أفقه شيئاً!

ـ لسوف تسمع كل شيء. ومع ذلك، فإذا شعرت بشيء من الضعف في صوتي، أو كلامي،وإذا كانت مرافعتي توحي إليك بالخوف من الفشل، فإني أعتمد كل الاعتماد عى ما لك من خبرة عظيمة بالمحاكمات الجنائية، وعلى ما لك من حضور بديهة عجيب!.. إنَّ وجوه هؤلاء القضاة كتاب مفتوح بالنسبة إليك، كما أنك أفضل منّي إلماماً بالقضية، وقد تأهّبت لها. ولهذا فبوسعك أن تحل محلي. وبهذه المساندة سأشعر بأنني قويّ.. فهل أنت راغب في ذلك؟

وأخذ المحامي ـ الذي أُزيح بلباقة عن المرافعة ـ يحكّ لحيته برفق، وهو يخفي استياءه وراء مظهر من عدم الاكتراث. وقال: «وما الجدوى يا زميلي العزيز؟.. إنَّ معاونتي لك عديمة النفع، فأنت في غير حاجة إلى أحد!.. إنك لا تحجم عن الاضطلاع بأثقل الأعباء وأشقها، فاسمح لي بأن أعتبر مهمتي منتهية!». وكان المتحدِّثان في تلك الأثناء واقفين، بينما جلس السيد «هاميل» في ركن بجوار المدفأة، يرقبهما بعينين زائغتين دون أن يشترك في الحوار. وما لبث الأستاذ روكفيار أن اقترب من زميله الذي كان يصغره سنّاً، فوضع يده على كتفه في حركة تنمّ عن ود، وقال: «إني أدرك يا «باستار» أنني أسألك خدمة جليلة. وإذا كنت أطلب شرف الدفاع عن ابني

بنفسي، فافهم أنَّ اسمي هو الذي أنتوي الدفاع عنه.. ولست أنكر قط الفرص التي تتيحها لنا كفاءتك، ودرايتك، ولباقتك النادرة..ولكنك لو كنت في موقفي لفعلت ما أفعل.. فقدِّم لي هذا الدليل المعبِّر عن الصداقة وإنكار الذات، والتقدير أيضاً. إنك بذلك تثبت لي مدى إدراكك لفحوى كلامي. أرجوك!».

وظل السيد «باستار» يتخلل شعر لحيته الطويل بأصابعه المضطربة، وهو يوازن بين القبول والرفض، واضعاً نصب عينيه - في كل مرة - تقاليد الزمالة في النقابة التي كانوا ينتمون إليها، وكبرياءه الجريحة التي كان يجد عناء في وضعها في المرتبة الثانية. كان قد فرض خدماته فرضاً، تقريباً، لا لإنقاذ موكِّله فحسب، وإنما لينتزع أيضاً نصراً شخصياً في ساحة مكتظّة بالناس، ستضم دون شك خيرة القوم،ولا سيما النساء التوّاقات إلى سماع مرافعته!.. وبدلاً من أن يتأمله القوم واقفاً في مجده مسيطراً على الموقف، سيراه هؤلاء القوم - صفوة المجتمع - جالساً، وكأنه سكرتير للسيد روكفيار الغريم الخطير الذي طالما أصلاه بردوده اللاذعة في الجلسات. فهل يليق به وضع مهين كهذا؟!.. ثم إن حضوره الجلسة لن يكون مجدياً، فإنَّ والد المتهم قد يكون - في غمرة تحمُّس رائع - واهماً أو مخدوعاً في قوة الحجة التي واتته فجأة ففتنته، والتي يقدم على إماطة اللثام عنها.. والتي خطرت له بإيحاء حزن قد يكون أوهن من قوته المعنوية وقوته الذهنية معاً!.. إنَّ هذه الحرارة المتكلّفة التي تبعث الحياة فيه، قد تخبو بين لحظة وأخرى، ليحل محلها أشنع أنواع الانهيار. فكيف يأمل أو يتوقع القدرة على بذل جهد حيويّ عنيف كذلك الذي تتطلّبه مرافعة كهذه - أُعدَّت في زمن قصير - من رجل سحقه القدر.. رجل أفلس، وانتزع منه ابنه الأكبر بقسوة في الليلة الماضية، ولكنه مع ذلك يريد أن يضطلع

بنفسه بعبء الدفاع عن آخر أبنائه وإنقاذه من إدانة مشينة؟.. إنَّ الأمر كان بعيداً عن المعقول، ومن الممكن أن يفسّر هذا القرار الجديد بأنه من وحي الانفعال الغامض المنبعث عن الألم.. ومن ثم يجدر بالسيد «باستار» أن يكون على أهبة الاستعداد، فقد يُدعى إلى الدفاع في آخر لحظة.. هكذا توحي الحكمة!.. وهذا ما يمليه عليه ـ دون نزاع ـ واجب العناية بالدفاع، الذي يجب أن يطغى على كل فكرة لدى المحامي، وعلى كل مصلحة شخصية بالذات!

على أنَّ الاعتداد العجيب، الذي كان السيد روكڤيار يبديه بمواجهة الخطر، حدّ من قوة هذه الدوافع الأثيرة. فما لبث السيد «باستار» أن قال: «لا، ليس بوسعي أن أجيبك إلى طلبك. إنني آسف: فإمّا أن آخذ على عاتقي مسؤولية المرافعة، وإمّا أن أنسحب تماماً!». فقال السيد روكڤيار: «إن الأمر يتعلّق بابني، ومن الإنصاف أن لا أتخلى عن الدفاع عنه».

وهنا ترك السيد «هاميل» مكانه ليتدخل في الأمر، في الوقت المناسب، فقال: «بوصفي نقيباً للمحامين، أسألك يا زميلي العزيز أن تعاوننا. إنني أفهم دواعي تردّدك، وكان من الممكن أن أقدّر رفضك في أية ظروف أخرى.. قد تكون لدى السيد روكڤيار أسباب خاصة تجعله راغباً في الدفاع عن ابنه، رغم أن العادة جرت بأن يوكل أمر الدفاع عن الأقارب إلى الغير. ولمّا كانت الخطوب قد أضنته، فلا بد أن تكون إلى جواره، إذ إنه قد يتعرّض لخطر المبالغة في الثقة بمقدرته.. وإني لأصرّ على رأيي».. أما وقد تطوّر الأمر إلى التذرّع بالواجب بدلاً من الاستجداء، وإلى اللجوء إلى السلطان بدلاً من الإقناع، فقد طرح المحامي عنه كل تردّد، وعمد إلى البتّ، فقال للشيخ في لهجة أقرب إلى الخشونة: «لا، لا.. مستحيل! لقد عرضت مساعدتي في أكمل صورها، ولكنها

مُسخت، وتغيّرت خطة الدفاع دون استشارتي، وأخفيت عني حجة لا بد أنها دامغة قاطعة.. وفي هذه الظروف، لا أملك سوى أن أنسحب، وإني لمنسحب!». ولم يظهر على وجهه المتجهم سوى أمارات الكبرياء الجريحة، والتفت إلى السيد روكڤيار ليضيف في مجاملة مصطنعة: «هل ترغب في مذكرات مرافعتي؟ إنها توفّر عليك بعض الجهد، وإني لأضعها تحت أمرك».

ـ فكّر جيّداً يا زميلي.. يا صديقي.. لا تتركنا في المعمعة!

ـ إنَّ قراري حاسم.

ـ نهائيّاً؟

ـ نهائيّاً!

واحتفظ السيد روكڤيار في كلماته الأخيرة بمظهر مترفّع، هادئ، أدهش زائريْه. ولمّا كان النقيب غير مطمئن تماماً إلى نتائج هذا الرفض، فإنه حاول استبقاء السيد «باستار»، بالرغم ممّا كان يحسّه نحوه من نفور طبيعي، فقال له: «أتوسّل إليك أن لا تحرمنا من عونك!». ولكن المحامي أجاب: «إنني لحزين لهذا.. صدّقاني!».. فقال والد المتّهم، دون أي انفعال: «إذاً، فإنني أسترد منك ملف القضية، ومحضر المعاينة ـ على الأخص ـ وتحليل الادعاءات، وصيغة الحكم الذي صدر غيابيّاً».. وكان في عدم اكتراثه هذا ما أشعر «باستار» بإهانة.. فعلى الرغم من أنه لم يكن ينوي أن يلين للرجاء، إلاّ أنه ـ بما في الطبيعة الإنسانية من تناقض ـ لم يكن يصدق أن في الإمكان الاستغناء عنه.. ومن ثم استأذن زميليه في الانصراف وقد كلح وجهه غضباً. وفي خارج غرفة المكتب، شدَّ مضيفه على يده بقوة ـ على السلم ـ وهو يشكره بحرارة لأنه وافق على أن ينسحب من تلقاء نفسه. ولم ير السيد «باستار» في هذه المجاملة المتكلّفة سوى إهانة بالغة، فراح يذرع البلدة،

محطِّماً لدى الرأي العام عدالة قضية آل روكڤيار، معلناً غرور الأب، واحتمال إدانة الابن!

لم يفلح السيد «هاميل» - بعد انصراف «باستار» - في أن يخفي أساه، وهواجسه،وقلقه الذي راح يعذّبه ويزيد من وطأة السنين على كاهله. أليس إبعاد المحامي الشهير في القضايا الجنائية - طواعية - تصرُّفاً بعيداً عن الحكمة؟.. أوليس ينطوي على مغامرة قد يدفع آل روكڤيار ثمنها باهظاً؟.. ما الداعي إلى الإقدام، في الساعة الأخيرة، على اتخاذ هذا الإجراء الذي من شأنه أن يشيع الاضطراب والفوضى في معسكر الدفاع؟.. وأعرب عن هذه الآراء في تلطّف مشوب بالحزم، فلمّا رأى حديثه يضيع عبثاً، كفَّ عن الاسترسال فيه، وقال في لهجة حزينة: «يا صديقي، لقد جئت منذ لحظة ووجهك مشرق بإلهام نفساني، فأدركت وأنا أنظر إليك أنك لن تصغي إلى أحد. فمن أين كنت قادماً؟». فأجاب السيد روكڤيار، الذي كان قد احتمل تأنيبه في احترام: «من ضيعة البرج.. لقد تحدَّث الموتى إليَّ.. إنهم لا يريدون من دجّال أن يتذرّع بما يناقض فضائلهم من أجل خطإ أحد أحفادهم!».. فهتف النقيب الشيخ مأخوذاً: «الموتى؟».

ـ أجل، أمواتي..أولئك الذين كوّنوا عشيرتي وصانوها. لسوف يكونون غداً الضامنين لشرفنا. فكم عدد الذين ضحوا بأنفسهم - منذ أول اسم منا إلى اسم ابني الأكبر - في سبيل المصلحة العامة.. أفتريد أن لا يكون لهذه التضحيات حساب؟

ـ إنني أؤمن بعودة الروح وأفهمها. ولكن، هل يفهمها المحلّفون؟

فقال مضيفه في اعتداد اهتزَّ له كيان الشيخ: «يجب أن يفهموها!».. وقال النقيب آنذاك: «إنَّ ثمة شيئاً يسري في كيانك

ويؤثر في أولئك الذين يتحدّثون إليك، فينساب إلى نفوسهم! أجل، لسوف تدافع عن ابنك خيراً من أي محام آخر، فإنَّ لديك القوة والسطوة، وسيكون لي شرف معاونتك غداً. لأتركك الآن للعمل، فوداعاً!».. ولفّ كتفيه النحيلتين بمعطفه البالي، وسار إلى الباب بسرعة مفاجئة.

وبعد أن اصطحب السيد روكڤيار النقيب إلى الباب الخارجي، نادى: «مرغريت!». وظهرت الفتاة في التو، قائلة: «هأنذي!». فقد كانت في الحجرة المجاورة، تنتظر اللحظة التي يعود فيها أبوها.. وقال الشيخ: «تعالي، فإني أريد أن أتحدث إليك». وقادها إلى مكتبه وسألها في عجل: «هل رأيت موريس في السجن؟» فأجابته: «نعم يا أبي، وقد بكينا معاً!».

ـ بكيتما؟!.. نعم، إنَّ قلبي قد انتُزع من مكانه، ولكنني لا أبكي مع ذلك. ولسوف أغدو حرّاً ـ مساء غد ـ في أن أبكي ما أسعفني الدمع. أمّا قبل ذلك فلن أذرف دمعة واحدة!

وكانت مرغريت قد ارتاعت بعض الشيء لذلك التحمُّس الذي ردَّ الشباب وأضاء ذاك الوجه العزيز الذي طالما تتبعت ما تعاقب عليه من أمارات الألم التي سبّبها ما حلّ بالأسرة من مآسٍ. لذلك انتهزت الفرصة، دون إبطاء، لتتم مهمتها في إصلاح ذات البين بين أبيها وأخيها، فقالت: «إنَّ موريس يطالب بمكانه في قلبك يا أبي». فقال: «إنه لم يفقده قط!».. وهتفت الفتاة وقد أشرق وجهها: «كنت أعرف هذا جيِّداً.. أتصفح عنه؟».. وقال الأب: «لقد صفحت عنه منذ أمد طويل».. فصاحت الفتاة: «آه!».

ـ أتراك شككت يا صغيرتي في أبيك، ليلة عاد أخوك؟

ـ آه! لا، فلماذا لا تنبئه بذلك؟

ـ إنه لم يسألني.

ـ بل إنه يسألك إياه..وهو يرجوك أن توجِّه الدفاع عنه الوجهة التي ترتضيها، دون أي قيد. فهو يوقن إنك ستعنى بكل ما يمسّ شرفه!

ـ دون أي قيد؟.. لقد فات الأوان يا ابنتي!

ـ ولماذا فات الأوان؟

ـ لأنني أعفيت محاميه، الأستاذ باستار.

ـ ومَن الذي سيتولى الدفاع؟

ـ أنا!

فهتفت مرغريت وهي ترتمي بين ذراعيه: «آه! كنت قد كففت عن الأمل في ذلك! لقد طالما رغبت في هذا!». وضم السيد روكفيار ابنته إلى صدره بقوة، وهو مشغول البال بمهمته الجديدة العاجلة، وقال: «إنك تثقين دائماً فيَّ يا صغيرتي، فاذهبي وأحضري لي سجلات الأسرة كلها، حتى القديم منها». وفي غيبة ابنته عن الغرفة، تسلّم ملف القضية الذي أرسله السيد «باستار»، ففتحه وراح يقلب أوراقه وهو يتأمّل ساعته: «لقد ناهزت الساعة السادسة، فهل سيكون لديَّ متسع من الوقت؟».. وراح يتأمَّل - في غمّ - أكداس السجلات الضخمة التي أخذت مرغريت تحضرها على دفعات.. وأخيراً قالت الفتاة: «ها هي ذي.. إنَّ لدينا الكثير ممّا هو أقدم منها عهداً».. كانت هذه المجلدات تضم عمل وكرامة وشرف خمسمائة عام!.. وقدّمت مرغريت لأبيها في النهاية كتاباً أصغر حجماً من سواه، وقالت وقد تضرج وجهها قليلاً: «هنا لخصت تاريخنا، وسجّلت خطوطه الرئيسية، ولا سيما الخدمات التي أُدّيت من أجل الوطن.. إنه ملخص في كثير من التوسّع!».

ـ هل حدست أنّنا قد نحتاج إليه يوماً؟

ـ لا، يا أبت.. إنما كتبته في الشتاء الماضي، لأردَّ على الشائنين

الشامتين الذين حاولوا النيل منا. وقد قرأت على أمي فقرات منه، فأقرّتني على ما فعلت!

ـ إنك كنت بهذا العمل تعدّين الدفاع عن موريس!

ـ بهذا؟

ـ أجل، فدعيني أنصرف إلى العمل.

وما إن ابتعدت حتى ناداها ثانية وقال: «لديَّ أمر آخر أريد أن أقوله لك يا مرغريت». فارتدّت إليه الفتاة مسرعة. وقبل أن يتكلم أخذ يغمرها بتلك النظرة الأبوية التي تهب دون أن تأخذ، وتذود دون أن تحقد. وتأمّل هدوء أساريرها وشحوبها وحلاوة ملامحها. ثم قال: «لقد صادفت «ريمون بيرسي» وأنا أدخل الدار يا صغيرتي.. كان في الطابق الأسفل، على عتبة الباب الخارجي، جامداً بلا حراك، مستغرقاً في التفكير، مضطرباً.. ولقد تقدّم نحوي خطوة، وكأنه يريد أن يتحدَّث إليَّ. ولكنه لم يجد الفرصة، لأنني سرعان ما تجاوزته!».. فلم يبد على الفتاة أي تأثّر، بل أجابت: «لقد كان منصرفاً من هنا يا أبي».

ـ آه، وماذا كان يريد؟

ـ أراد أن يقف إلى جوارك غداً.

ـ يا لها من فكرة.. وبأيِّ صفة؟

ـ بوصفه ابناً لك.

ـ بوصفه ابناً؟ إذاً فقد طلب يدك؟

ولمّا أجابت الفتاة: «نعم»، هتف: «ومع ذلك فإنك أخفيت عني النبأ.. لقد رثى الله لحالنا يا مرغريت. .لقد أشفق علينا لفرط ما مسّنا من محن! وإنَّ تصرف «ريمون بيرسي» لنبيل، فهو لم ينتظر حتى نبرَّأ أمام الرأي العام من كل اتهام ثم يعود إلينا!.. وبماذا أجبته؟». فقالت: «لقد رفضت!». وإذ ذاك أجفل السيد روكڤيار في دهشة،

ثم جذب إليه ابنته في حنان، وراح ينظر إلى أعماق عينيها الصافيتين. وقال: «رفضت؟ لماذا؟ أستطيع أن أحدس السبب: لقد فكرت في أمري يا عزيزتي! إنك تضحين بنفسك من أجل أبيك، ولكن أباك يرفض هذا يا عزيزتي، فلطالما قلت لك إنَّ الآباء يضعون حياتهم في المرتبة الثانية بعد حياة أبنائهم.. هذا هو الأمر الطبيعي، والعكس هو خطأ!». فتمتمت الفتاة قائلة: «لكم أحبك يا أبي، وإنَّك لتعلم ذلك. ولكنك تخطئ في حدسك، وأقسم لك!».

ـ ألم يكن الرفض من أجلي؟

ـ لا يا أبت!

وتبيَّن على الإشراق النقيّ ـ الذي كان ينبعث من عينيها الصافيتين وينعكس على وجهها الشاحب ـ حقيقة نفس ابنته. ألم تسنح له الفرصة، مرة قبل اليوم، كي يفهم هذه الحقيقة؟ كان الله ينتزع منه أولاده واحداً بعد آخر، فأيّ حمى تلك التي كانت تستبدّ بهم وتكويهم وتدفعهم إلى الزهد في الحياة؟! ألم يكن خليقاً به أن يرى في هذه القرابين المتعاقبة كفّارة عن المذنب؟!.. وتذكّر إذ ذاك صباح يوم من أيام الصيف، وقد وقف على ميناء «مارسيليا» يرقب ـ على تباشير ضوء النهار الوليد ـ تلك الباخرة التي أقلت ابنته «فيليسي» إلى الصين. ولم يتمالك أن ضمَّ «مرغريت» بقوة إلى قلبه المرتجف، وتمتم: «أنت أيضاً؟». فطوقت عنقه، وهمست في أذنه، وهي تقبّله: «ليس الآن يا أبي».

ـ أتعتزمين ذلك بعد موتي؟

ـ نعم!

واستبقاها برهة متكئة عليه كما تفعل الطفلة المدلّلة.. وكما كانت تفعل في الأيام الخوالي، حين كان يمسك بها في حذر. وأخذ يفكّر فيما كان يشعر به وهي لا تزال بقربه.. وتردَّد في أن يقبل منها تلك المهلة التي انبعثت عن إشفاقها من أن تتركه وحده.

ولكن مرآة كانت في مواجهته عكست أمامه صورة تلك الوحدة التي جمعت بينه وبين مرغريت. ولمح بنظرة واحدة ما انتاب وجهه من تغيّرات خلال العام الأخير، ثم قال لنفسه: «غداً سأكون قد أنقذت موريس، وبذلك تنتهي مهمتي. ولن أعمَّر بعد ذلك طويلاً!».. وانحنى على ابنته فلثم وجهها الحبيب، إشارة إلى موافقته. ثم عاد إلى الفكرة الرئيسية التي كانت تختمر في رأسه، فطرح العواطف جانباً، وشرع يستعدّ للمعركة، وهو يقول: «أعدّي العشاء في الساعة الثامنة، إنَّ أمامي عملاً يستغرق حوالى الساعتين، هما الفترة اللازمة لاستعادة تفصيلات هذا الملف، وإن كنت أعرفها. ولسوف أخلد إلى فراشي في الساعة التاسعة، لأستيقظ في الثالثة صباحاً. ثم أعد دفاعي من الثالثة حتى التاسعة.. أي إلى ما قبل بدء الجلسة!».

ـ حسن يا أبي. لقد تسلّمت خطاباً من «جيرمين».. إنَّ قلبها معنا!

ـ اقرئيه عليَّ في أثناء تناول العشاء.

ـ وسوف يحضر «شارل» غداً بقطار الساعة الواحدة، فليس بوسعه أن يأتي قبل ذلك.

ـ سأنتظره!

ـ والآن أتركك يا أبي!

وما إن أغلق الباب خلف مرغريت حتى أمسك في لوعة صورة لابنه «هوبير» كانت على المنضدة، فتأمّل طويلاً رسم ابنه الأكبر، وقال في سريرته يخاطبه: «اغفر لي لأني أقصر كل تفكيري على أخيك. غداً أناديك، وأتحدث إليك، وأبكيك.. فلا تخش أن أنساك، ولكنك ترى أنني لست حرّاً.. غداً سأخلو إليك. أمّا الليلة فإنني ملك لسلالتنا بأسرها!».. ووضع الصورة أمامه في رفق، وطوى لوعته إزاء الضرورة الملحَّة..وانهمك في دراسة الملف.

7 - التضحية

مثُلت مرغريت روكفيار أمام المحكمة، إطاعة لأمر أبيها، فأدلت بما كان لديها من بيانات عن المال الذي كان معدّاً لجهاز عرسها، والذي أرسلته إلى أخيها موريس، في ليلة رحيله إلى إيطاليا.. وعن المال الذي أرسلته إليه في «أورتا»، ثم عادت إلى دارها على عجل، وكأنما طغى عليها الخجل إذ ألقت ضوءاً على جودها وأريحيّتها!.. لقد استطاعت بهذا الجهد الضئيل أن تساهم في الدفاع عن أخيها!.. وراحت تلوم نفسها على ما اعتراها من ضعف، وما تولاّها من خجل وارتباك وهي تجيب عن أسئلة رئيس المحكمة.. فقد كانت تكنّ مروءتها في أعماقها، وكان إظهارها للملإ لا يروق لها. وأخذت تنعى على نفسها تواضعها الذي تراءى لها كما لو كان جبناً، فخشيت أن تكون قد أساءت بتردّدها إلى ما كانت ترمي إليه من جعل شهادتها واضحة صريحة.

تُرى، ما الذي جرى قبل دخولها إلى قاعة الجلسة، وبعد خروجها منها على عجل كما لو كانت هاربة؟.. لم تكن تذكر شيئاً من كل هذا، وكان ما تذكّرته هو ذلك الخوف الذي استحوذ عليها من جراء هذا الاتصال القصير بالعدالة، والذي لم تستطع أن تتغلّب عليه. فما إن ضمّها مع الشهود الآخرين المكان المخصَّص لهم حتى سمعت الحاجب يستدعيهم واحداً تلو آخر، ثم رأتهم يختفون.. وكان عم أبيها «إتيين»، وزوجة عمها «تيريز» من بينهم. وظلت وحيدة، تقريباً، حتى جاء دورها، فاقتيدت إلى قاعة الجلسة. وكالممثلة الجديدة، حين يُدفع بها على خشبة المسرح، راحت ترتجف وهي تلمح الحشد الذي زخرت به القاعة: تحت المنصة التي في الصدر، وفوقها، وفي القاعة، وفي الشرفة.. كانت ثمة

أنظار كثيرة تحدّق إليها وكأنها تخِزها وتجرحها. كانت بلدة «شامبيري» بأسرها هناك، تحملق، في غير إشفاق، في ابنة خائفة، ولعلها ستحملق بعد قليل بنهم في أسرة عريقة تحتضر!

ووجدت نفسها أخيراً أمام ثلاثة قضاة في زيّ أحمر، وإلى يمينهم مقاعد المحلّفين. وكادت تسقط على الأرض وهي تذكر اسمها، لولا أن جلجل في أذنيها صوت أبيها.. هذا الصوت العذب، الدافئ ـ الذي كانت تألفه ـ فشدَّ من أزرها في الحال، وكأنه دواء مقوٍّ للقلب!.. وكان المحامي يقف أمام موريس وكأنه يحميه.. وكان هادئاً إلى درجة أدهشتها وسرّبت إليها عنه عدوى الطمأنينة. وكان يملي في نبرات واضحة صيغة السؤال الذي يريد أن يوجِّهه إليها. ولقيت عناء في سبيل الإجابة بوضوح، ثم أذن لها بالانصراف، فانطلقت إلى خارج القاعة كصيد يلوذ بالغابات، وهي تلوم نفسها قائلة: «لن يرضى أبي عنّي.. ما أقواه في اعتداده وطمأنينته!.. وما أعظم تمالكه لنفسه، وما أشد مهابته! لقد نهض مرتين، فأحسست في كل مرة بصمت عميق يسيطر على القاعة.. وكانت عيناه تشعان لهيباً.. وكان يبدو شابّاً.. إنَّه قوّتنا وعمادنا!».

وعاد السيد روكفيار ـ في منتصف الساعة الواحدة ـ لتناول الغداء، فما إن بلغ الباب حتى قال للخادم: «أعدّي لنا الطعام بسرعة يا ميلاني، فإني في عجلة!».. وكانت تبدو عليه سيماء المجاهد: فقد تجعّد جبينه، وانطلقت نظراته سديدة، لا سبيل إلى تحاشيها، ومن الصعب الصمود لها، بينما تقلَّصت عضلات وجهه.. كانت الليالي الأخيرة، التي قضاها مسهداً، قد تحالفت مع الحزن والقلق فمكّنت للشيخوخة من أن تدبَّ إلى قسماته، وإن كانت إرادته الفولاذية قد حدّت موقَّتاً من أثر تألُّب السنين والتعب والهمّ عليه!.. وسألته مرغريت في رجاء: «ما الأنباء يا أبي؟». فقال مطمئناً:

«ستستأنف الجلسة في الساعة الثانية».

ـ ألم تنتهِ القضية بعد؟

ـ لا، لا.

ـ وما الذي جرى؟

ـ وكأنك لم تري شيئاً!

ـ أوه! لا يا أبت. لقد غادرت المكان، فقصَّ عليَّ كل شيء.. ألا انظر، إنني أرتعش!

ـ ينبغي أن لا ترتعشي يا مرغريت.. كوني واثقة!

وخلال تناول الطعام ـ بسرعة، ودون شهية ـ شرع يلخِّص لها المناقشات التي جرت: «لا شك أنك لم تفهمي شيئاً من الإجراءات الرسمية الخاصة بالمحلّفين، وبحلف اليمين، والاتهام، واستدعاء الشهود!». فقالت: «لقد كنت على مقربة منك في القاعة يا أبي. وعندما نودي باسمي نهضت وأرشدت إلى حجرة أخرى، وجدت فيها العم «إتيين» والعمة «تيريز»».

ـ هذه كانت قاعة الشهود. لقد ابتدأت أقوال الشهود بعد قراءة قرار الاتهام، والمحضر الذي أعدّه رئيس الشرطة عن سرقة المائة ألف فرنك، واستجواب «موريس» الذي أصر على أنه بريء، ورفض أن يتهم أحداً رغم إلحاح رئيس المحكمة.. ثم شهود الإثبات. ولقد كان رئيس كَتَبة فرازن أكثر الناس تحاملاً على «موريس». إنَّ هذا المدعو «ڤيليپو» يكرهنا لسبب أجهله، إذ أدلى بشهادته وقد استبدّ به سعار التشهير والتجريح، وراح يورد قرائن ابتكرها وفسّرها وفق هواه ـ في خسّة ولؤم ـ وصاغها في شكل أدلة لا تقبل الدحض!

وتساءلت مرغريت: «وما هذه القرائن؟». فأجاب: «معرفة

وجود المال في الخزانة الحديدية، وإمكان اكتشاف الأرقام السرية لقفل الخزانة ـ من المفكّرة ـ وإن لم يستطع إقامة الدليل على ذلك.. ثم بقاء «موريس» في المكتب ومعه المفاتيح إلى ساعة متأخرة من الليلة التي سافر فيها إلى الخارج.. واستحالة تصوُّر وجود متهم آخر.. وغير ذلك. ولقد ردَّد الكَتَبة الآخرون شهادته كتلاميذ يردِّدون درساً لُقّنوه، ولكنهم كانوا أقل تفصيلاً وتأكيداً. وحان في النهاية دور خادم السيدة فرازن، التي أغروها ـ ولا بد ـ بالمال، لأنها ادّعت أن سيدتها لم تدخل حجرة المكتب قط، في غياب السيد فرازن. ولكن، أي قيمة لهذا؟ أكان على السيدة فرازن أن تستدعي خدمها كي يشاهدوا عملية اختلاس المال؟.. على أني مضطر إلى أن لا أتهمها أنا الآخر!».

ـ ولكن موريس لم يعد يعارض في اتهامها؟

ـ لن أفعل ذلك. لقد دفعنا فديته، وليبق السر دفيناً إلى الأبد!.. ولقد ذكرت اسمك واسمي عمك «إتيين» وعمتك «تيريز» كشهود نفي، لأثبت أن موريس لم يسافر وهو معدم بلا مال. كذلك ذكرت اسم الموظف الذي يعمل في شركة الائتمان، الذي سلّمك في آخر تشرين الأول/ أكتوبر الماضي إذناً بمبلغ ثمانية آلاف فرنك تصرف باسم أخيك من المصرف الدولي في «ميلان».. وأخيراً، اسم الأستاذ «دودان» الموثّق.

فتساءلت «مرغريت»: «ولم ذكرت اسم هذا الأخير؟». فقال: «ليبيِّن حقيقة المائة ألف فرنك التي دفعتها من طريقه للسيد فرازن، واسم المشتري الحقيقي لمزرعة البرج. ولقد أحله الرئيس ـ بعد مشورة السيد «لاتاش»، رئيس غرفة الموثّقين ـ من سرّ المهنة، فاستوجب هذا أن يكشف للمحلّفين عن الصفقة الرابحة التي دبَّرها السيد فرازن». فسألته الفتاة: «إذاً، فالسيد فرازن هو الذي اشترى

المزرعة، لنفسه، وليقيم حيث كنّا؟». فسألها الأب بدوره: «ألم تعرفي هذا؟». فأجابت: «ما كان ليخطر ببالي.. وما أكثر الأشياء التي لا أفهمها!.. لقد كان يبدو عليه - في موسم حصاد العنب الماضي - الاهتمام بالاستعلام والتحرّي.. كان مهتمّاً بكل شيء!».

- أجل يا صغيرتي.. إنه هو الذي سيحلّ محل آل روكفيار، ويستأنف عملهم. لقد استولى على كل شيء، دون مقابل!

ثم استأنف الحديث بعد هذا التعليق المرير: «لقد بدأ محاميه الكلام في الساعة الحادية عشرة». فسألته مرغريت: «وأي محام هو يا أبي؟». فأجاب: «محام يُدعى «بورتيريو»، من «ليون». فإنه لم يوفّق إلى محام من «شامبيري»!».

- مراعاة لخاطرك؟

- دون شك!

- وما الذي جرؤ على قوله؟

- إنه محام ماهر، حسن الإشارة، عنيف في اتزان وبرود.. ولقد شرع يرسم لموريس صورة مغرضة، تمثّله كشباب اليوم الذي لا يقوى على كبح جماحه شيء، ووصفه بأنه متطرّف في تفسير حقوقه الفردية، حريص على تنمية شخصيته، وعلى الفوز بسعادته ولو داس في سبيل ذلك سعادة الآخرين، ويأبى الانضواء تحت لواء مجتمع منظّم، وإنما هو - في النهاية - من أولئك المثقّفين، الفوضوّيين، القادرين على أن يتجاوزوا نطاق الأفكار إلى نطاق الأعمال. واستطرد يقول: «سلوا زملاءه وأصدقاءه.. إنهم لا يستطيعون أن ينكروا أنه لم يكفّ في مناقشاته قطّ عن ازدراء وهدم الأوضاع القائمة، وأنه يقصر إعجابه على النظريات الهدّامة التي ينادي بها فيلسوف ألماني يرى أن المثل الأعلى للإنسانية - أي الرجل المثالي - هو ذاك الذي يبني صرح سعادته على أنقاض وآلام

الصغار، والعزّل، والضعفاء!.. ومن ثم لم يوفق المتهم إلى التفاهم مع أبيه، لأنه كان يضيق ذرعاً بسلطانه عليه!».

فتمتمت مرغريت مستنكرة: «هل قال هذا؟». فأجابها أبوها: «أجل، فأنا أوجز لك ما قال.. لقد اتخذ مني حجَّة، ومن أسرتنا حجة أخرى تذرّع بها ليزعم أنَّ المتهم لا يستطيع أن يلتمس لنفسه عذراً، متعلّلاً بسوء تربية، أو بنقص تعليم، أو بقدوة سيئة، أو بطفولة تعسة تملأ نفسه مرارة إلى الأبد.. ولست أحب أن أروي لك ما صوّر به إغراء الشاب للسيدة فرازن، من أجل مصلحته الشخصية». فهتفت الفتاة: «مصلحته الشخصية!؟». فأجاب أبوها: «أجل، فإنَّ موريس في استهتاره بجميع القيم الخلقية ـ كما صوّره هذا المحامي ـ اشتهى المرأة والمال معاً، دون وازع من ضمير.. ولما تمكّن الأستاذ «پورتيريو» ـ أو ظنَّ أنَّه تمكّن ـ من أن يجعل سوء استغلال الثقة أمراً ملموساً، طرق موضوع الاتهام، وتلك التي لم يتورّع عن أن يسميها بالأدلة المادية: السيدة فرازن توافق على الفرار والرحيل، والزوج غائب، واليوم مناسب، والساعة ليس لها شبيه. ولمّا كان العشيق لا يملك ثروة خاصة، فلا بدَّ من أن يبحث عن نفقات الرحلة.. وهو يعلم بوجود المبلغ الذي قُبض ثمناً لمزرعة «بيلفاد»، وقد اكتشف الأرقام السريَّة في مفكرة، فعمل على أن يستولي على المفاتيح، ودبر البقاء بمفرده في المكتب، ثم أخذ المبلغ وفرَّ مع عشيقته إلى الخارج.. فهو ليس المذنب الوحيد فحسب، بل لا مذنب هناك سواه!».

وسألته مرغريت: «والسيدة فرازن؟». فقال: «السيدة فرازن؟.. ليتهمها. ليجرؤ على اتهامها!.. لقد لاذ بالصمت في التحقيق، وهو يتشبَّث به في الجلسة.. إنني أتّحداه أن يتَّهمها!».. «هكذا قال المحامي الذي علم ولا بد ـ من طريق عدم حيطة «باستار»! ـ بعناد موريس

الشريف. واستطرد مبيّناً أن هذا الصمت يدينه، لأنّه بمثابة اعتراف!».

وغادرا غرفة الطعام إلى غرفة المكتب. وكانت مرغريت تسمع خلال هذا التلخيص اللاذع - الذي حرص أبوها على سرده بأمانة - هدير الغضب والأسى الأبويين، فذعرت، وتمتمت: «أنعتبر في حكم الضائعين يا أبي، أم لا يزال لديك أمل؟». فأجاب: «بل لا يزال لديَّ أمل». وعادت تسأله: «ومتى تنتهي القضية؟». فقال: «سيستأنف السيد «پورتيريو» مرافعته في الساعة الثانية.. بعد أربعين دقيقة». فهتفت: «ألم يكتف بما أساء به إلينا؟».

- لا يبدو عليه أنه اكتفى، فإنَّ لديه حجة أخيرة يريد أن يسوقها.

وسألت مرغريت في قلق: «وما هي؟». فأجاب السيد روكڤيار: «ما يعتبره اعترافاً جديداً، ممثَّلاً في تسديدي مبلغ المائة ألف فرنك. وأعتقد أن دوري سيحين قبل الساعة الثالثة. وفي الرابعة، أو الرابعة والنصف، أكون قد انتهيت من مرافعتي». ثم إنه أضاف متظاهراً بهدوء البال: «إنَّ قطار «شارل» يصل في الساعة الواحدة، فلا بد من أن يكون زوج أختك قد وصل». وفعلاً، لم يلبث «شارل مارسيلاز» أن طرق الباب بعد قليل، وأقبل على حميِّه قائلاً: «ما الأنباء يا أبي؟ لقد بكت «جيرمين» وهي تودّعني - في هذا الصباح - فحذا الأولاد الثلاثة حذوها. إنَّ البرقية التي أرسلتها أمس أحزنتنا كل الحزن.. يا لهوبير المسكين!».

- لقد كنت في انتظارك يا شارل، فإن مكانك إلى جواري.. ستطلعك مرغريت على الأنباء، ريثما تتناول غداءك. فاتركاني بضع دقائق، وكن مستعدّاً، يا شارل، في الساعة الثانية إلاّ خمس دقائق.

- لسوف تجدني مستعدّاً. آه!.. أريد أن أنبئك بأنني دبَّرت إجراءاتي لأردَّ لك نصف صداق «جيرمين»، على أن أدفع الباقي فيما بعد.

وكانت لهجته تنم عن عدم الرضى، كمن لم يألف فعل الخير، ومن ثم فهو يفعله مكرهاً!.. كان تيار الصالح العام قد جرفه، ولكن عقله ظلّ يعترض، وإن أبى أن يعلن تخلّفه.. على أن السيد روكفيار قال له: «لن أقبل!». وكان تأثّره بهذه التضحية أقوى من تأثره بالعوامل المعارضة التي اكتنفتها وحاولت منعها، فأردف: «ألا قبلني!».. وهكذا توثقت عرى الألفة بين الأسرة في البأساء..

وخلا المحامي إلى نفسه ربع ساعة ليستجمع الحجج التي سيسوقها في مرافعته.. وكان ما رواه لابنته، في ثورة نفسية عارمة، قد خفَّف من الغضب والهوان اللذين تكاثفا في نفسه منذ الصباح، وهو يصغي إلى الاتهامات المشينة التي وجهت إلى ابنه. لذلك استراحت أعصابه، وانفثأ غضبه كبحر تعاوده السكينة بعد هبوب الريح!.. وعندما حانت اللحظة التي كان عليه أن يعود فيها إلى دار القضاء، تبيَّنت مرغريت في ملامحه أنه صار أهدأ نفساً.. ورأت في نظرته ذلك الصفاء الذي عاد به من المزرعة ليلة أمس.. فقالت تودِّعه: «إلى المساء يا أبي.. وليساعدك الله!». فأجاب مسرعاً وقد بلغ الباب الخارجي: «إلى المساء يا صغيرتي.. مع موريس!».

*

ما إن احتبست الفتاة نفسها في غرفتها لتصلّي حتى أقبلت «جين ساسيناي» تنشد مقابلتها قائلة للخادم: «الآنسة مرغريت، من فضلك».. ولمّا كانت الخادم قد أصبحت أكثر حذراً ويقظة، منذ الوقت الذي أصرّ فيه «ريمون بيرسي» على مقابلة مرغريت، فقد رفضت في إصرار أن تجيب هذا الطلب غير المناسب، قائلة: «إن الآنسة متعبة، وهي لا تستقبل أحداً». فهتفت الزائرة: «فليكن.. ولكنني سأراها رغم ذلك». وأزاحت الخادم المشدوهة عن طريقها، قبل أن تتمكّن هذه من أن تعترضها، وركضت في الردهة

نحو غرفة صديقتها ـ وكانت تعرف موقعها ـ ثم راحت تطرق الباب في عجلة، ودخلت فألقت بنفسها في أحضان مرغريت هاتفة: «أنا القادمة، فلا تطرديني.. ليس لخادمتك ميلاني ذنب في ذلك!». وصاحت مرغريت: «أهذه أنت يا جين؟ لماذا أتيت؟». فأجابت الفتاة: «لأنك وحيدة حزينة.. إن هناك عدداً كبيراً من السيدات اللاتي ذهبن إلى الجلسة وكأنهن ذاهبات إلى حفلة للهو والسمر. أمّا أنا، فقد رأيت أن مكاني هنا، بجوارك. إنني أحبك كل الحب». فربتت مرغريت خدّ صديقتها قائلة: «ما أطيبك!».

ـ آه، لا! كل ما هنالك هو أنني أكنّ لك ودّاً كبيراً.. لقد كنت أُعجب بك منذ صغري، ولكم أود أن أكون مثلك!

وغيَّرت الفتاة مجرى الحديث فجأة، إذ قالت وكأنها تسر إليها بأمر خاص: «تصوّري أنهنّ اتخذن أبهى زينة ليذهبن إلى دار القضاء.. تماماً كما لو كنّ ذاهبات إلى حفلة صباحية!». فسألتها مرغريت: «مَن؟».. وأجابت الفتاة: «هؤلاء السيدات!». فقالت الآنسة روكفيار في حسرة: «أجل. إنّ الأمر يمسُّ شرفنا، ومن ثم فهو مشهد ممتع!».. فأمسكت «جين ساسيناي» بيدها وقالت: «أمّا أنا فلا يساورني أي قلق»، ثم أضافت في لهجة المسيطر الذي يحسم نزاعاً: «وعلى العموم، فبأي جرم خطير يؤاخذ أخوك؟.. أبأنه اختطف امرأة؟.. ليس هذا بوزر يذكر!».. وابتسمت مرغريت بالرغم من حزنها، فتشجّعت صديقتها على المضيّ في حملتها: «إنك لتفهمين جيداً أن المرأة لا تُنتزع كما تنتزع الشائبة عن الثوب!.. إنني أنشب أظفاري فيمن يقدم على اختطافي، وأعضّه، وألحق به ضرراً جسيماً.. ما لم أكن راغبة في الرحيل معه!».. فهتفت مرغريت: «اسكتي يا جين!».

ـ آه! مَن يدري؟ إنّ المرء إذا أحب يصبح قادراً على فعل كل

شيء.. فالحب شيء فظيع!

ـ وما الذي تعرفينه عنه؟

ـ ولم لا أعرف عنه شيئاً؟.. إنني لم أعد صبية صغيرة!

وضغطت الآنسة «ساسيناي» قبعتها التي فقدت التوازن فوق شعرها الأشقر، ثم أخذت تنسق الخصلات التي تهدلت على جبينها، وتصنّعت شرود البال ريثما تتغلّب على حمرة الخجل التي سرت في وجهها. ثم تساءلت: «وهذه المرأة الشريرة، أتظنينه لم يعد يحبّها؟». فقالت مرغريت: «موريس؟.. لا أظن!».

ـ أواثقة أنت؟

ـ إنه لا يتحدّث عنها.

ـ ألم يرها أحد بعد فرارها؟

فأجابت الآنسة روكڤيار: «لا». فاندفعت «جين» تقول: «هذا أفضل! إنني أكرهها، فهي ـ أولاً ـ لم تكن جميلة إلى هذا الحد. صحيح أن عينيها كانتا جميلتين، ولكن نظراتهما كانت متكلِّفة. ولقد كانت لها ابتسامات، وغمزات، وتصنُّع مغرٍ، وفن في تكلُّف أوضاع رأسها على عنقها، وهزات أكتاف وأرداف».. ونهضت عن مقعدها بسرعة، وراحت تسير في الحجرة مقلِّدة السيدة فرازن، ممثِّلة حركاتها وإشاراتها العصبية التي كانت تنم عن ثورات داخلية. فصاحت مرغريت: «جين.. أرجوك!». ولكن الفتاة استأنفت حديثها، وقد استبدت بها الحماسة، قائلة: «لا، لا، أؤكد أن السمراوات لا يضارعن الشقراوات، لا في اللون ولا في البهاء. فأنت بشعرك الكستنائي تجمعين جمال النساء جميعاً.. ولكنك لا تتكلّفين ولا تتصنّعين.. ثم إنني أكرهها!».

ـ ولكن.. مَن تقصدين؟

ـ السيدة فرازن، لأنها امرأة مشؤومة، تجلب النحس. ولقد أصاب أخاك من ورائها شرّ مستطير!.. لقد أشقته، ولم تكن تحبّه، فهي الجديرة بأن تلقى في غيابة السجن. أما أخوك، فسوف تبرَّأ ساحته. ولعلك تعلمين أن أبي وأمي يتحمسان له. وقد كان والدي ينفر منه، ولكنني أنَّبته ولمته. ولكم أود أن أراه حرّاً طليقاً. فإذا تحقّق ذلك، فهنّئيه عني.. لا بد أن الأمر سينتهي على خير وجه، فيقضى ببراءته.

كانت تثرثر دون توقف، فقاطعتها مرغريت في لطف: «هل تحبّين أن تصلّي معي يا جين؟». فأجابت الفتاة: «إذا راق لك ذلك». ومن ثم جثت الفتاتان جنباً إلى جنب، ولكنهما لم تكادا تشرعان في صلاتهما حتى دوّت طرقات على الباب، وإذا الخادم تقول وهي تدفع إلى الآنسة روكفيار ببضع رسائل: «البريد يا آنسة». وهنا قالت مرغريت لصديقتها: «أتأذنين لي؟ إنّ اليوم هو الموعد الذي اعتدت أن أتلقى فيه خطابات هوبير. آه! ها هوذا خطاب منه.. لقد كنت أرتقبه!». وبيد مرتجفة فضّت غلاف الخطاب الوارد من السودان. وعلى هذا النحو اشترك الضابط الشاب المتوفّى في مأساة الأسرة من وراء حاجز الموت!.. وما أقل الأمور التي تهز المشاعر قدر ما يهزها تسلّم براهين الودّ من أولئك الذين لم يعد لهم وجود! وأفلت من مرغريت ذلك التجلّد الذي كان يبديها ـ حتى ذاك الوقت ـ في مظهر من الهدوء والسكينة، فأرسلت صرخة مفعمة بالأمل، وهي تتلو الخطاب. ولاذت «جين» بالصمت وقد تغلّب عليها الارتباك، فلم تجد ما تواسيها به. ولكن مرغريت ما لبثت أن تمالكت جأشها من تلقاء نفسها، فما كانت تلك ساعة البكاء أو الاستسلام للأحزان.. ألم يرسم لها أبوها خير مسلك يحتذى؟

وتمتمت مرغريت: «هوبير!»، وبدا عليها برهة أنها كانت تفكر فيما يجب أن تفعل، ثم هتفت: «يجب.. يجب أن أذهب إلى دار القضاء في الحال». فسألتها «جين»: «لماذا؟». وكان الجواب: «آه! لأن هوبير كان هو الآخر يفكّر فينا!». وحملقت فيها جين مذهولة، وغمغمت: «هوبير؟».

ـ أجل، كان يعرف أنه موشك على الموت، وقد حاول في بداية الخطاب أن يموّه علينا، وأن يدخل علينا السرور. ثم.. ثم كتب.. إليك ما كتب. يا إلّهي! إن عينيَّ لم تعودا تبصران.. إليك: «ومع أنني مضطر إلى البقاء هنا، دائماً، إلاّ أنني سأجود بحياتي ضحية من أجل اسمنا، ومن أجل سلامة موريس ونجاته..»، ومن ثم ترين أنني مضطرة إلى الذهاب إلى دار القضاء.

وانفجرت «جين» باكية. وكانت الحماسة قد بلغت بمرغريت مداها، فقالت وهي تعتمر قبعتها وتضع نقابها: «إنني واثقة من أن أبي في حاجة إلى هذا الخطاب، ومن ثم لا أملك أن أُحجم عن الذهاب!».. لقد كان من خصائص الأسرة أن ثمة رباطاً غامضاً يربط ـ عبر الزمان والمكان ـ بين أمواتها وأحيائها!.. وقالت جين ـ في إلحاح ـ بدورها: «سأصحبك!». فهتفت مرغريت: «أجل، تعالي! سأزداد شجاعة في صحبتك!». واندفعت الفتاتان إلى الخارج، واجتازتا موقع القصر الذي كانت واجهته القاتمة تستدفئ تحت شمس الشتاء، وسلكتا دروباً تساعد على تقصير المسافة، حتى إذا اجتازتا ساحة السوق، أشرفتا على دار القضاء في دقائق معدودة. فسألت مرغريت حارس الباب في أدب: «أين تعقد الجلسة يا سيدي؟». فأجاب: «هناك يا سيدتي، في الطابق الأسفل. ولكن القاعة مكتظّة، ولن تستطيعا الدخول». فقاطعته «جين ساسيناي» قائلة: «بل لا بد لنا من الدخول! إنَّ معنا خطاباً.. مستنداً

هاماً يجب أن نسلّمه لمحامي المتهم».

ـ مستحيل، يا سيدتي، فقد بدأت المرافعة، والوقت جد متأخّر، ولكن، مَن تكونان؟

فرفعت أخت موريس النقاب، قائلة: «الآنسة روكڤيار». وإذ ذاك قال الحارس: «آه، لا بأس.. اتبعاني!». كان الاسم قد أحدث في نفسه مفعولاً عجيباً، فقادهما إلى الباب المخصَّص للشهود، وقال: «ما عليك سوى أن تفتحي الباب يا آنسة، فتجدين مقاعد المحامين أمامك.. إلى اليسار قليلاً. وبعد ذلك، اخرجي من الباب عينه، ما لم تجدي مكاناً خالياً لتجلسي فيه!».. ولمّا كان الحارس في خوف من تصرُّفه، فقد أردف قائلاً وهو يترك الفتاتين: «أرجو ـ بوجه خاص ـ أن لا تذكرا أنني أنا الذي قدتكما إلى هنا».

كانت مرغريت في المقدمة، فوضعت يدها على مقبض الباب، وسمعت حديثاً في القاعة، ولكنّها لم تستبن صوت أبيها.. كان مصير موريس، ومصير آل روكڤيار، يتقرران معاً في تلك الساعة، خلف ذاك الباب! ولكنها كانت تحمل التميمة العظمى.. من لدن أخيها «هوبير»!

8 - المرافعة

دخلت الفتاتان.. وكانت الساعة قد تجاوزت النصف بعد الثانية، وقد أوشك الأستاذ «بورتيريو» أن ينتهي من مرافعته السامّة المهينة، ليترك الجمهور - الذي ضاقت به القاعة والردهة، واختلط حابله بنابله - كي يلتهم كل فرد منه نصيبه من الأكلة الساخنة التي قدَّمها إليهم المحامي المحنك القاسي، والتي صنعها من قلب آل روكڤيار النابض!.. وشوهدت الفتاتان تتمشّيان على خوف، بعد أن اجتازتا الباب، فقال الموثق «كولانج»: «إنهما قادمتان للبحث عن زوجين!».. وكان الموثّق إذ ذاك يشرح - مع الأستاذ «بابيه» - ما كان يجري في الجلسة، لبضع سيدات من الطبقة الراقية، وقد خيل إليه، إذ قال ما قال، أنه يتظرّف!.. وصاحت إحدى هؤلاء السيدات، وهي تبدي اشمئزازاً: «انظر إلى هذه الوقحة!».. ذلك أن «جين» استهانت باحتقار البلدة كلها - بينما كانت مرغريت تسعى إلى أبيها لتسلمه خطاب «هوبير» - فاستدارت في جرأة وهدوء، بل في زهو، نحو موريس روكڤيار الذي كان يجلس في مقعد الاتهام، وأومأت إليه بيدها وقد ارتسمت على شفتيها ابتسامة عريضة!

وجُزيت على جرأتها في الحال، إذ رأت إشراقة العرفان بالجميل تسطع على وجه المتّهم.. ذلك الوجه الذي أصابه النحول والتغضُّن، وكأنما كان يتقلّص في محاولته أن يظل جامداً تحت وابل السباب والتشهير. وسرعان ما أثار هذا الحادث تعليقات الحضور جميعاً. ولمّا كانت مرغريت مطأطئة الرأس، فإنها لم تلق بالاً إلى شيء ممّا حدث. وكانت هي الأخرى قد حيَّت أخاها، ولكنها كانت أكثر تحفّظاً من زميلتها. ثم همست في أذن هذه:

«فلننصرف!». فأجابتها «جين» وقد تملّكتها الرغبة في حضور المناقشات: «أوه! لا.. سأبقى!».

وأشار لهما السيد روكڤيار - بحركة سريعة - إلى مكانين خاليين في مقاعد الشهود، كي تجلسا. وكانت الشمس تنفذ خلال النوافذ الزجاجية، ولكنها كانت بعيدة عن مقاعد المحلّفين، فتركتهم في الظلال لتلقي ضوءاً على مقاعد القضاة، والمدعي العام والمحامين والمتهم بوجه خاص، وكأنها تبرز مشهداً يُعرض على خشبة مسرح. وهكذا ظهر الأستاذ «پورتيريو» وهو يهتز ويكرّر اتهاماته، مختتماً مرافعته بملخّص مركز لحججه، وهو يضفي لهجة التأكيد تارة على قائمة من القرائن أخذ يكدّس بعضها فوق بعض، ويفتر تارة أخرى امتناع المتهم عن ذكر اسم السيدة فرازن وسداد مبلغ المائة ألف فرنك بالكامل إلى السيد فرازن، على أنها اعترافات لا تقبل الدحض. ثم انتهى إلى أن طالب - بعنف! - بصدور حكم صارم رادع على هذا الشاب الذي احترف الحب النفعي ولم يتورع عن أن يسلب مع شرف المرأة خزانة الزوج!

ثم جلس المحامي وقد أثارت مرافعته الضافية - التي ألقاها مبالغاً في اجتلاب الاشمئزاز والغضب - همسات غامضة لا تحصى، تشبه وسوسة الموج.. همسات تتناقل من شفاه إلى شفاه دون أن يعرف مصدرها. كانت المرافعة شبيهة بوابل من السهام السامّة تُرمى تباعاً، وفي غير هوادة، وفي اتجاه واحد.. بل من الممكن أن يقال إنّ المحامي كان يصوِّب سهامه إلى الأب، وهو يتظاهر بتسديدها إلى الابن.. كان يصوّبها إلى الأب - الذي أجبره الشعور بالعار على ردّ المبلغ - ويهدف من وراء تصويبها إلى أن ينال من الأسرة التي كانت تتمرّغ، مع ابنها المذنب، في الوحل!.. كان أقسى ممّا ينبغي على فريسته، وأثبت أنه خصم لدود عنيد لا يتورَّع عن أن يدوس

جثث خصومه بقدميه! والواقع أنّ الموثق أحسن اختيار المحامي الذي يتحدّث باسمه، فما كان يتصوّر أن يتدفق كل هذا السم وهذه المرارة من فم واحد!.. ولقد اضطر السيد روكڤيار إلى أن يلتفت إلى ابنه وزوج ابنته - أكثر من مرة - ليهدئ ثائرتهما، ضارباً بنفسه المثل في الهدوء وضبط النفس في أثناء هبوب العاصفة.

قال رئيس محكمة الجنايات بعد ذلك: «الكلمة الآن للمحامي العام».. وكان صوته حزيناً، وكأنما أراد أن يقول: «ما الداعي إلى محام ثانٍ للاتهام؟».. ودفع الفضول المدعي العام - السيد «ڤاليروا»، الذي كان يجلس وراء المحامي العام - إلى أن يميل إلى الأمام ليسر ببضع كلمات إلى زميله. ولكن هذا أبدى ما ينم عن رغبته في استبعاد رأي لا داعي له، واكتفى بأن ذكر أنه يعتمد على تقدير المحلّفين في قضية رفعت بناء على شكوى المدعي بالحق المدني، وسبق للقضاء أن أصدر فيها حكماً غيابياً. فما لبث الرئيس أن صاح في لهجة مدوّية: «الكلمة للدفاع!»، وكأنه يبدي اغتباطه لإعفائه من الإصغاء إلى اتهام آخر. وهنا سأل الأستاذ «هاميل» زميله روكڤيار - إذ كان يجلس إلى جواره: «أمستعد أنت؟». فهتف السيد روكڤيار: «دون شك. لماذا؟».

- تكلم أنت أولاً، وإذا دعت الضرورة فسأحل محلك!

وأدرك السيد روكڤيار أن النقيب الشيخ كان لا يزال يتأرجح تحت وطأة تقاليده الموروثة التي لا تسوّغ له الدفاع في أمثال هذه القضايا، ولكنه ادّخر جهوده ليبذلها إذا ما أخفق الدفاع بتأثير الانفعال والضعف والعجز! على أنه وافق على اقتراح زميله قائلاً: «حسن!».

وفي خلال هذا الحوار، المتبادل همساً بين الشيخين، أخذت الأحاديث الخاصة بين أفراد الجمهور تزداد شيئاً فشيئاً، هنا وهناك،

فتشيع في جو القاعة كما يشيع الغبار بعد مرور موكب ما. قال «كولانج» ـ الموثق الذي كان من أنصار السيد فرازن ـ معلّقاً على حملات محامي هذا الأخير: «لن يبرأ آل روكڤيار قطّ من هذه الجراح!». فعارضه السيد «بابيه» ـ الذي كان حاضر الدعابة دائماً: «ايه! ايه!.. انتظر رد الأب، فلن تلبث أن ترثي للأستاذ پورتيريو!».. وعقّب واحد من عامة الشعب ـ سمع هذا الحديث، وكان من المتردّدين على قاعة محكمة الجنايات ـ فقال لجاره في حماسة: «أجل.. إنَّ الشيخ لشديد المراس».. وكان السيد «بابيه» في تلك الأثناء يضحك ويقول في إصرار: «سترى أنه يعرف كيف يعضّ، وأنه حاد الأنياب».. وتمتمت إحدى السيدات في إشفاق: «لشد ما يبدو متعباً!». فقال السيد «كولانج» وهو يسوي هندامه الدقيق: «تريدين أن تقولي إنه يبدو منهاراً.. إنَّ شيخين لا يعادلان شابّاً!».. وأضاف بلهجته المبتذلة: «ولا سيما عند النساء!».. ثم أشار خلسة نحو المحاميين الشيخين وهما يتبادلان ملاحظاتهما، وقد جلسا غير بعيدين عن السيد «باستار»، الذي غاصت أصابعه في لحيته، وهو يتأهب متربصاً للدفاع، أملاً منه في أن يشهد روكڤيار وهو ينهار!

ورفع السيد روكڤيار قلنسوته عن رأسه، ثم نهض.. ونظر على التوالي، وفي غير عجلة، إلى ابنته وابنه، فتزوّد مما كان يبدو عليهما من أمل وثقة فيه.. وسرعان ما ساد الصمت: عميقاً، مثقلاً بالانتظار الذي حبس على الحضور أنفاسهم وخفقات قلوبهم!.. كان وقوف هذا الرجل، ذو الشعر الأشيب، بل الأبيض تقريباً.. كان وقوف هذا الشيخ الذي تمثّلت في شخصه سلالة عريقة طويلة من الأجيال الشريفة، وصفحات حافلة بالخدمات التي ظلت تبذل في الحياة خلال نيف وستين عاماً، عن مواهب وإقدام.. كان مجرد وقوفه

احتجاجاً بليغاً على السباب والتشهير اللذين خُيِّل للبعض - في أثناء مرافعة المدعي المدني الطويلة - أنهما قادران على النيل من أسرته: ألم يذكر خصمه أن ثمن المزرعة دفع وفاء لمال لم ينفق جميعه بوساطة السارق؟.. إنَّ جميع المحامين من أمثال «باستار» - في العالم بأسره - ليعجزون عن سوق اعتراضهم بمثل هذا الوضوح الذي ساقه روكڤيار - ممثَّلاً في مجرد وقوفه! - قبل أن يتكلم!

ودقّت ساعة القاعة مؤذنة بالثالثة، فشدَّ المحامي روكڤيار قامته - في بطء - منتصباً، ولاح رأسه مرفوعاً وسط هالة من ضوء الشمس التي كانت قد بلغت من الشحوب درجة لا تجعل المرء يضيق بأشعتها. وتجلّى الجبين العريض، والقسمات الجميلة الحادة، التي زادتها السن حدة وإرهافاً، والتي ظلت محتفظة بشممها وعزتها. وأضفى عليه شارباه - بشعرهما القصير الكثيف - هيئة المناضل، والزعيم الذي لا يتطلع إليه امرؤ إلاّ واستمد منه شعوراً بالقوة وحب الحياة! أمّا اللهب الذي كان يتّقد في أعماق عينيه عادة، والذي كان ينبعث منهما حادّاً قاهراً، فقد انقلب هادئاً صافياً، يوحي بالجلال بدلاً من الرغبة في الانتصار!

قالت السيدة التي كان السيد «كولانج» يغازلها: «تقول إنه منهار.. ألا انظر إليه!». فعقّب السيد «بابيه» قائلاً: «إنني لم أعد أعرفه لفرط سلطانه!». أمّا مرغريت والسيد «هاميل»، فإنَّ يقظتهما والقلق المستحوذ عليهما كشفا لأعينهما الحماسة الخارقة التي تملكت «روكڤيار» منذ نزهته الأخيرة في المزرعة!

وبدأ الأب المحامي يتكلّم بصوت خافت - بعض الشيء - ما أوحى إلى السيد «باستار» بخاطر جعله يقول في رضًى: «لقد فقد صوته المجلجل!».. ولكنَّ الصوت وضح فجأة، وكأنه دويّ نفير شقّ الحجب، لينادي الأموات على سفوح التل الثلجية - التي كانت

مستلقية تحت الظلام بالأمس - فيحشد من أطيافهم جيشاً يشد أزره!.. وأخذ صوت الشيخ يدوي منساباً وسط الصمت الحيّ، الجاثم كالغيوم المتلبّدة، وكأنه قارب يشق عباب البحر. وشرع يقول أن لا بد من معرفة المتهم لكي يتسنى الحكم عليه.. وفي سبيل معرفته، لا بد من تعقب الأصول التي نبت منها، فإنَّ مصير الإنسان يختلف تبعاً للبقعة التي نبت عليها، وللأصل الذي انحدر منه، ولقدر مكتوب لا بد لعزيمته من أن تستمدَّ منه القوة والهدف «.. فأنتم يا من تنتمون إلى سلالة أناس أشراف، ويا من أسستم أسرات عريقة، يجب أن تنصتوا إلى تاريخ أسرة عريقة قبل أن تنطقوا بحكمكم!».

وما كان في وسع أولئك الريفيين القادمين من السهل والجبل، والذين تشكّلت منهم هيئة المحلفين.. ما كان في وسعهم - بحكم طبيعتهم وجبلّتهم وتفكيرهم - أن يظلوا بمنأى عن التأثر بهذه القصة الإنسانية الواقعية التي هزت حقيقتها عقولهم هزّاً عنيفاً!.. وهكذا انطلق السيد روكفيار يروي تاريخ أسرته الطويل: فلقد غرس الجد الأول - حين أرسى أول حجر في أساس البيت العتيق - جذور شجرة حياته، في الأرض التي صارت موطناً لأسرته. راح يسرد تاريخ جهود الأجيال المتعاقبة، والعرق الذي سكب على الأرض المستصلحة، والحوادث التي تعرّضت لها والتي تسببت في تلف المحصول تحت وطأة الصقيع، والقناعة التي كانت تتقبل القليل في رضىً، والاقتصاد الذي كان يعبّد طريقاً للمستقبل على حساب المتعة الشخصية، والذي يعتبر مثالاً للتجرد من المصلحة الخاصة وينطوي على ثقة في الذرية المقبلة!.. هكذا سارت الحال في المزرعة الرائعة، التي كانت كرومها وغاباتها وحقولها ومراعيها تنبت محصولاً يتمثّل فيه الدأب والاقتصاد والصبر على المشاق

التي ناءت بكلكلها سلالة بأكملها كانت تسير في الطريق المستقيم كالدوحة الباسقة.. إنَّ الأرض المزروعة تتخذ شكل الوجه البشري، فنحن حين نتطلع إلى ممتلكاتنا إنما نتأمل وجوه أجدادنا!

ومع كل هذا، فما الثمار التي أجداها العمل الذي اشترك في أدائه آل روكڤيار؟.. إنَّ الأرض التي كانوا يمتلكونها، باتت اليوم ملكاً لخصمهم الذي استولى عليها دون مقابل. أفكان كدّ آل روكڤيار وكفاحهم، زهاء خمسمائة عام، من أجل أن يقدّموها هدية؟.. لا، إنما هم افتدوا بالميراث ـ الذي كونوه بالجَلَد والعناء ـ آخر سليل من ذريتهم. فمن الخاسر، ومن السارق؟.. إنَّ السيد فرازن ـ في مقابل مائة ألف فرنك اختفت ـ تقبّل أرضاً تساوي ضعف هذا المبلغ، فمَن الذي أثرى؟ ومَن الذي فقد ثروته؟.. فباسم الأموات الذين دفعوا الفدية، يجب أن يبرَّأ المتّهم!

ولكن، أليست الأسرة قوة مادية ضخمة، تتجلّى ـ في ظاهرها ـ في توارث الأرض، وتمكّن بصلابتها وتماسكها من المساهمة في تسديد ديون جزء منها بثمرة أعمال الجزء الآخر؟.. ثم، أليست هذه كذلك شيئاً آخر، أقل مادية وأكثر قداسة؟ أليست سلسلة متينة من التقاليد، ومن الشرف المتوارث، ومن الشجاعة والقناعة؟.. فما جدوى تناقل الحياة من جيل إلى جيل، إذا لم يكن من أجل إحاطة هذه الحياة بإطار يليق بها، يتمثّل في مؤازرة الماضي، وفي تهيئة مستقبل مشيد على أسس وطيدة؟.. ذلك لأن تناقل الحياة تمكين للخلود!

ثم أخذ يسرد الأعمال العامة، وما كان لآل روكڤيار من وجود نافع كان يرقى أحياناً في نفعه إلى المجد!.. فذاك كبير العشيرة: وافته المنيّة وهو في مقر عمله في أثناء وباء تولى إدارة المعركة

ضدّه.. وذاك آخر أشرف ـ فيما بعد ـ على إدارة بلدة «شامبيري» في أثناء فترة من القلاقل والاضطرابات، فأنقذ ماليَّتها من أخطار كانت محدقة بها.. وهناك من كانوا منهم رؤساء أمناء لمجلس أعيان «سافوا»، ومن كانوا جنوداً ماتوا وهم يقاتلون الأعداء في حروب طاحنة.. كانوا جميعاً ـ سواء من لبسوا منهم أوشحة المناصب المدنية، أو من ارتدوا الثياب العسكرية ـ يحملون القلب الجريء الباسل ذاته الذي طالما خفق بين جوانح الأجداد والأسلاف!.. وكان «هوبير» آخر الجميع.. هوبير الذي لفظ أنفاسه في خدمة الوطن، وحيداً، بعيداً عن ذويه، في أرض عدوّة ملتهبة، وقد عبّر عن رغبة الأسرة فيما كتبه، قائلاً: «إنني أجود بحياتي من أجل شرف اسمنا، ومن أجل خلاص أخي!».. فهل في وسع امرئ أن يرفض هذا القربان وينسى القرابين السالفة، التي تشهد بالفضيلة المتجدِّدة في الأسرة عبر القرون دون انقطاع؟.. إنَّ مثلها في ذلك مثل النيران تطهر الحقول من الأعشاب اليابسة في الأمسيات!

وهكذا ألقى الشيخ في كفّة الميزان بفضائل الأسرة، فرجَّحَ الكفة. وراح جيش الأموات، الذي هبط بالأمس من مزرعة البرج وانتشر في الوادي الصغير خلال القمة لينضم إلى زعيمه الذي كان واقفاً إلى جوار شجرة البلوط على هضبة «سان كاسان».. راح هذا الجيش يمر أمامه وكأنه في عرض عسكري!

وتحوّل السيد روكفيار يضيف إلى فضائل الأموات مناقب الأحياء! فما كانت الساعة ساعة تواضع وإخفاء للحياة الخاصة: ففي مستشفى «هانوي» كانت «فيليسي» تثبت جدارة لا تقل عن جدارة أختيها اللتين ارتضيتا الفقر لتمحيا عن أخيهما مجرد شبهة الاختلاس.. إذ إن المبلغ الذي دفع إلى السيد فرازن لم يكن ـ وما كان من الممكن أن يكون في نظر الأسرة والقضاة ـ سداداً لمبلغ أو

اعترافاً بجريمة، وإنَّما هو دحض قاطع لأي اشتراك في جرم، ولو عن جهل أو غير قصد!.. واعتذر المحامي الأب عن إسهابه في تعداد هذه الخدمات الكثيرة، فقد كان في تعدادها تقريع لخصومه على جحودهم.. ففي الجانب الآخر من القاعة ـ جانب الخصوم ـ أناس لم ينسوا هذه الخدمات فحسب، بل إنهم لم يتورّعوا عن اتخاذها ذريعة للتحامل على المتّهم، إذ كانوا يريدون أن يتسللوا إلى الماضي من طريق المتّهم المزعوم، وأن يتخذوه معولاً يحطمون به أمجاد هذا الماضي التليد العريق، وأبوا في تعنّت ظالم أن يبقوا عليه ليكون حمًى للمتهم!.. على أن فضائل أية سلالة تظل تحميها، إلى اليوم الذي تتكالب فيه المثالب فتجرفها، وبذلك تكون السلالة قد اختارت سقوطها بنفسها!.. ولكن، مَن ذا الذي يجرؤ على الزعم بأن سيل المعايب قد جرف آل روكڤيار؟ أجل، إن الأموات قد قدموا لآخر سلالة روكڤيار ضماناً أدبيّاً، كما قدموا له ضماناً ماديّاً تمثَّل في التضحية بالمزرعة.. وإذاً، فلن يحكم قضاته بإدانته ـ ولو كان مذنباً ـ دون أن يتجنوا على العدالة!

ولكن، كيف يمكن أن يكون مذنباً؟ وكيف استطاع سليل أمثال هؤلاء الأشراف أن يتحوَّل في استسلام إلى مجرم؟ وأية أدلة قاطعة تقدَّم على جرمه؟.. أي وزن لهذه القرائن التافهة ـ التي ساقتها المصادفات، وجسّمها تأويل الظروف ـ أمام قرائن أدبية ومعنوية تنساب من بيئته العائلية في تدفق مياه السيل؟!.. أهي مفاتيح المكتب؟ لقد تداولتها يد بعد يد!.. أهي الأرقام السرية؟ وكيف بحث عنها المتّهم، وعثر عليها، وفسرها.. ومتى سجلها الكاتب «ڤيليپو» في مفكرته؟!.. أم هي الحاجة إلى المال؟ لقد دفع المتهم جميع النفقات الرئيسيَة والثانوية التي تكبّدها في رحلته، إمّا من المال الذي حمله معه، والذي أثبت التحقيق هنا حسابه، وإمّا من

المال الذي تلقّاه في «أورتا». وقد شهدت بذلك أوراق حساب الفندق، التي تسنّى الحصول عليها!.. فما الذي فعله بالمائة ألف فرنك إذاً، ما دام قد دفع جميع نفقاته من المبالغ التي أمدّته بها أسرته؟ وإذا كان قد أودعها مكاناً ما، كما أُشير في معرض التلميح، فلماذا عاد وسلم نفسه ليسجن، بمجرد أن علم بالحكم الذي صدر عليه غيابيّاً؟

لم يبق شيء من أدلة الاتهام قائماً، سوى شهوة انتقام لم تقو على أن تقاوم شهوة الكسب الاستغلالي.. إنَّها لقضية فريدة في نوعها، يستحوذ فيها المسروق على مال سارقه المزعوم!.. وختم السيد روكڤيار مرافعته بهذه الكلمات: «لقد انتهت مرافعتي أيها السادة المحلّفين. فباسم كل موتانا الذين يتألف من تعاقب ذريتهم شرفنا الحي على الدوام.. وباسم الأرض - التي اكتسبت في بطء، والتي حرثتها جهود الأجيال المتعاقبة، والتي تخلينا اليوم عنها لتكون قرباناً لتدعيم هذا الشرف! - أسألكم أن تردّوا عليَّ ابني.. أعيدوه إليَّ، لا بدافع من الشفقة، وإنما بدافع من العدالة.. ولا كمنحة، وإنما كحق تقرّرونه بالإجماع. إن عشيرتي كلها، وأنا معهم، لبراءته ضامنون!».

*

وجلس.. ولم يكن قد سلخ في الكلام أكثر من ساعة. وما إن تلاشت أنغام صوته العذب الهادئ، الذي ظل محتفظاً طيلة الوقت بمتانته، حتى خيم على القاعة صمت دام بضع لحظات، له ما لصمت الكنيسة من وقار!.. فبدلاً من فورات الغضب المريرة التي كان الجمهور يتوقع سماعها من المحامي الشيخ الذي عرف بحماسته الدافقة، ردّاً على الهجمات السامّة التي شنها السيد «پورتيريو».. وبدلاً من إثارة غبار الفضيحة، وإلقاء التهم الملصقة

بالعشيق على العشيقة.. بدلاً من هذا وذاك، سمع الجمهور دفاعاً كريماً مترفّعاً، تسامى على السباب اعتداداً منه بقوته، وسلك خطوطاً بسيطة مستقيمة أثارت إعجاباً كذلك الذي تثيره التماثيل الجامدة، النبيلة، التي تطهر الرغبات من دنسها وتضطر النفوس إلى أن تخشع أمامها.. كل ذلك، دون أي ذكر لاسم السيدة فرازن!

فجأة، علت صيحة مدوية: «عاش آل روكفيار!».

وكانت العجوز «لافوشوا» هي التي بعثت هذه الصيحة من أعماق قلبها. وإذا الجمهور المكبوت المأخوذ يضج بالتصفيق.. وبينما كان الرئيس يهدئ هذه الجلبة - التي اضطرت السيد «باستار» إلى أن يهرب من القاعة في انزعاج - انحنى الأستاذ «ڤاليروا» من جديد على السيد «بابيه»، المحامي العام، الذي طلب الكلمة بعد أن تنحى السيد «هاميل» عن الكلام، معتذراً لعدم استعماله حق التعقيب بعد أن تنحى عن حق استهلال الدفاع.. وما لبث السيد «بابيه» أن قال للمحلّفين: «لقد سمعت مثلكم مرافعة الأستاذ روكفيار.. لا، ليس المذنب هذا الشاب الذي ستصدرون حكمكم في أمره بعد دقائق.. بل إن المذنب غير موجود هنا. وما دام المتّهم قد أوتي من الكرم ما جعله ينأى عن الإشارة إليه، فإنني بدوري أتجنب الإشارة إليه كذلك، ولكنني أستنكر التدبير البارع الذي انتزع به الاتهام العطف من قلوبنا، متّخذاً من مصائبه الشخصية سبيلاً لإنماء ثروته. فبادروا إلى تبرئة موريس روكفيار، وردوه إلى أبيه الذي يتمثّل فيه شرف مهنتنا. وإذا كان المتهم قد ارتكب في حياته الخاصة ما يؤاخذ عليه، فمن الواجب ألاّ يطول حبسه بتهمة سوء استغلال الثقة!».

وبدأ النهار في الزوال، مسلِّماً القاعة إلى ظلمة المساء المتكاثفة. وانسحب المحلّفون ليتشاوروا فيما بينهم، وسرعان ما

عادوا ليعلنوا إجماعهم على البراءة. وإذ ذاك صاحت «جين ساسيناي» بصوت جهير: «براڤو!».. وتمتمت مرغريت في هدوء: «أبي.. لسوف تهنأ أمي في لحدها!».. وانصرف الجمهور وهو يتبادل التعليقات. أمّا السيد «لاتاش» ـ الذي كان يتكلم بحماسة مع جمع من الناس ـ فقد راح يهز رأسه في انفعال صارم، وهو يقول: «إنها صفعة للسيد فرازن. وعليه ـ بعد التأنيب الذي وجهه إليه النائب العام ـ أن يصفي أعمال مكتبه، وأن يغادر البلدة».. فقال السيد «بايبه»: «لسوف يبيع المزرعة ثانية».. أمّا السيدة التي رافقها الموثق «كولانج»، فقد كانت تبدي السرور استثارة لمرافقها، وقالت تعابثه: «ولسوف تكون ابنة «ساسيناي» هي المشترية، فإن لديها صداقاً ضخماً. أتراك لاحظت تلك الابتسامات التي وجهتها إلى الشاب المتّهم.. إلى المنتصر؟ لسوف تتزوج منه!». فعقب السيد «كولانج» على قولها مكتئباً: «أجل، هذا ما سوف يحصل، لقد كان الحظ دائماً حليف آل روكڤيار!».

9 - مقبرة الأموات وقوة الحياة

سرّعت الرغبة الصادقة ـ التي أبداها رئيس محكمة الجنايات ـ إجراءات إطلاق سراح موريس، وبينما كان الجمهور الذي غادر القاعة يتجمع أمام دار القضاء ارتقاباً لخروج المتّهم ومحاميه، ليحيّيهما في حرارة بالغة ـ أذكاها وخز الضمير الذي ثار متأخراً ـ كان السيد روكڤيار ينتظر ابنه في البهو الداخلي وحيداً، إذ عهد إلى «شارل مارسيلاز» باصطحاب السيد «هاميل». وما إن انتهت المعركة حتى أحس الشيخ بوطأة التعب والإعياء، واستغرق في تأملاته. وإذا بصوت يناديه في استحياء: «أبت!».. فهتف: «أهذا أنت يا بنيّ؟».

وبدلاً من أن يرتمي كل منهما في حضن الآخر، ظلاّ متسمّرين بلا حراك، وكأنهما جمدا في موقفيهما!.. كانت أول بادرة تصدر من أحدهما ـ دون تمهّل ـ في مثل هذه الظروف، كافية لأن تجلب النفور والعراقيل!.. وقرأ الأب على وجه ابنه أمارات الإعجاب والعرفان وحنان البنوة.. وقرأ الابن على وجه أبيه آيات الحب والطيبة، ودلائل الألم المبرح الناجم عن الإعياء والشيخوخة. وسادهما صمت أليم لا قبل لهما باحتماله.. وكانت الهتافات تتعالى مدوية في الخارج. وفجأة، قال السيد روكڤيار: «تعال!». واقتاد موريس إلى حديقة عامة خلف المبنى، كانت إذ ذاك خالية من الناس ـ لحسن الحظ ـ ثم اجتازا القنطرة الحديدية القائمة على مجرى «اللييس»، والتي كان الماء العكر يجري تحتها.. حتى بلغا المقابر، دون أن يتبادلا كلمة واحدة!

كانت مدافن «شامبيري» تقوم في شرقي البلدة، عند مدخل السهل الشاسع الممتد إلى بحيرة «بورجيه»، يطل عليها تل

«ليمنك» الصخري، يعقبه جبل «نيفوليه» ذو السفوح المتدرجة. وكان الظلام قد خيم على الحقول، وأخذ يمتد إلى الهضاب شيئاً فشيئاً. ولكن ألسنة شمس الغروب المحتقنة كانت تحيط بالجبل، الذي دبّت الحياة في لونه الأبيض وكأنما سرت فيه دماء!.. كان لأمسيات الشتاء الباردة، الهادئة - التي تبدو وكأنها قُدّت من رخام - جمال ذو نقاء قدسي!.. وتبيّن موريس - في مواجهته - أعمدة هضبة «ليمنك»، التي اجتاح الحب قلبه فوقها.. وتلكأ شعاع أخير ليبدي معالم الهضبة، ثم لاح كأنما كانت الهضبة تأوي إلى المعبد الصغير وتغيب فيه، فهمس لنفسه: «ما أبعد العهد بالذكرى!».

واجتاز الأب وابنه أشجار الصبّار ذات الفروع الصلبة كأنها الحراب، وقد كساها الصقيع، وبدت مهيبة كأنها حراس يسهرون على المنطقة. وكان الدرب المزدوج، المؤدي إلى المدافن الخاصة،يمتدّ خلف قبور الفقراء التي كانت تشير إليها مرتفعات من الأرض لم تكد تبدو تحت الجليد.. وتمتم موريس أخيراً، وهو يفكر في أمه: «كنت أدرك يا أبي إلى أين تقصد».. فقال السيد روكفيار مؤكداً على قوله: «إننا نسعى إلى مقبرة الأسرة، لنشكر للأموات أن أنقذوك!».. فهتف الشاب: «بل أنت الذي أنقذتني يا أبي».. ولكن الشيخ قال: «إنما كنت أتكلم باسمهم!».

وما إن بلغا مدخل المدافن، حتى لمحا شبحاً أسود جاثياً على حجر أمام حائط ذاخر بالنقوش، فهتف الشاب: «ها هوذا القبر يا أبي.. هناك إنسان ما». فأجاب الأب: «إنها مرغريت.. لقد سبقتنا». وتناهى إلى أذني الفتاة صوت تحطّم الجليد تحت أقدامهما، فالتفتت، وما إن تبيّنتهما حتى تضرّج وجهها، ووقفت جامدة وكأنها خشيت أن تعكر عليهما التئام شملهما. وما لبثت أن قالت: «جئت أزور أمي!». فقال الأب مترفّقاً: «ابقي!».

وكان المساء قد أطبق على جنبات جبل «نيفوليه»، فلم يعد يبدو سوى الجليد المتراكم على طبقاته العليا. وأخذ النور ينسحب في انسياب لين كأنه جدول من ذهب أو أرجوان. وبعد إشراقة سريعة رائعة، ارتقى الظلام المظفر عبر الطبقة الأخيرة من الجبل، واحتل القمة. وكان في صدر المدفن حائط منقوش، حمل لقباً واحداً، هو لقب الأسرة، وتحته أسماء عديدة، وكثير من التواريخ،وقد حف به سعف ناضر، ذو فروع خضراء، انحنى متقارباً بعضه من بعض كتاج من تيجان الربيع!

قال السيد روكفيار ـ الذي بدا وجهه على ما كان عليه من صفاء في أثناء الجلسة: «أنصت!.. ها هو ذا الليل، وها هي ذي ساحة الموتى! ومع ذلك، فإنك لن تسمع في أي مكان آخر على الأرض أقوالاً عن الحياة أقوى ممّا تسمع هنا!.. تأمل، قبل أن يخيّم الظلام. ها هو ذا الأفق الذي يفضله قلبك، يحيط بك.. وها هي ذي أسرتك ترقد مستريحة!».

وجثا موريس.. وما إن تذكر تلك التي رحلت دون أن تودّعه، وذاك الذي قدّم حياته قرباناً من أجله، حتى أخفى وجهه في راحتيه. ولكن أباه لمس كتفه، وقال بصوت حازم: «إنني أصبحت شيخاً يا بني، ولسوف تخلفني عمّا قريب، فأصغ إليَّ في هذا اليوم الذي يدعوني فيه الواجب إلى أن أتحدث إليك:إن ما تراه هنا لهو الصورة الباقية.. وإن تمجيد الأموات لهو جوهر مصيرنا الخالد. فما قيمة حياة امرئ ما، بل ما قيمة حياتي أنا، إذا لم يخلع عليها الماضي والمستقبل معناهما الحقيقي؟ قد نسيت أنت هذا المعنى حين انقدت لأهوائك الشخصية، فما من مصلحة فردية يمكن أن تكون جميلة، وما من مَجد إلاّ في خدمة المجموع. يجب أن يخدم المرء أسرته، ووطنه، والله، والفن، والعلم، والمثل الأعلى. ويا لعار

من لا يخدم سوى وطنه!.. وأنت: لقد وجدت فينا سندك، ولكنك تبيّنت أيضاً أن لا استقلال لك عنّا.. إنَّ شرف الإنسان وكرامته في قبوله لهذه التبعية!».

ولمح موريس - وهو ينهض - الشفق الراحل عن «كالڤير دو ليمنك»، فتمتم لنفسه في أسًى: «والحب؟».. وكأنما قرأ أبوه ما كان يدور بخلده، فقال: «ما أضأل الفارق الذي يفصل أحياناً بين الرجل الشريف والرجل الخسيس. والحب هو الذي يزيل هذا الفاصل بين الرجلين، في حين أن الأسرة تعزّزه. ومع ذلك، فلست أُعيب الحب - حتى في هذه الساعة - لو أنك عرفت كيف تفهمه يا موريس. إنه العزاء الذي يواتينا رغم المحن.. هذا هو الحب، فاحفظه في فؤادك، لأنه ملك لك!.. ولسوف تجده في عظائم الأعمال، وفي الصمود للطبيعة، وفي خوض مصيرك دون خوف أو ضعف!.. وقبل أن تحب امرأة، فكر في أمك، وفكر في شقيقاتك، وفكر في السعادة التي قد تكون مدّخرة لك، إذا ما رزقت ابنة وعكفت على تربيتها!.. لكم اغتبطت أنا عند مولدك - كما ابتهجت عند مولد شقيقك وشقيقاتك - فعملت على حمايتك بكل قواي. وإني لأنذرك بأنك ستشعر عند موتي كأنَّ جداراً قد انهار، وتركك أمام الحياة وجهاً لوجه. وإذ ذاك، ستفهمني خيراً مما تفهمني الآن!».

وتمتم موريس وقد تهدّجت أنفاسه لفرط انفعاله: «اغفر لي يا أبتاه.. لسوف تجدني أهلاً للانتماء إليك!». فلم يزد السيد روكڤيار على أن قال ببساطة: «يا بنيَّ!».

وما إن رأتهما مرغريت - وقد تأبط كل منهما ذراع الآخر - حتى تذكرت الأمنية التي طالما راودت أمها!

وفي السماء التي كساها الظلام، وفي اتجاه المزرعة، بزغ أول

نجم من نجوم المساء، متألِّقاً. ورأى السيد روكفيار - وهو يضم إلى صدره ابنه الضال الذي عاد إليه.. آخر أبنائه.. ابنه الوحيد - رأى في النجم بارقة أمل!

وفي المقبرة المعتمة - التي جاءها ردّاً لزيارة موتاه له بالأمس - وعلى الرغم من شعوره بأنَّ منيَّته هو الآخر باتت وشيكة، فقد عزَّز رب الأسرة ثقته في الحياة!

الفهرس



الابنُ الضّال

تُمثّل هذه الرواية لوناً من ألوان الأدب القصصي ونعني به الأدب الواقعي المعاصر الذي تشعر وأنت تقرأه بنسمات الصدق والواقعية تهبّ عليك من خلال سطوره وكأنك تعيش مع أبطال الرواية في الجو الذي يعيشون فيه، وتعاني من الانفعالات التي يعانون منها، وتنتابك المشاعر التي تنتابهم، وتضطرب في محيط الحياة التي يضطربون في غمارها، بل إن في بعض المواقف ما يملك عليك مشاعرك إلى حدّ تنسى معه أنك تقرأ أدباً يُفترض أنه من نسج خيال مؤلفه، فتخال كأنك تعرف هؤلاء الأشخاص الذين تتلاعب أحداث حياتهم بعواطفك، فتأسى لأحزانهم حتى لتنساب دموعك من مآقيك مشاركة لهم، أو تفرح لفرحهم، وكأنك أنت من أصابه الحادث المفرح، أو ربما يخفق قلبك حباً لمحبوبهم فتحسّ بنفسك قد رددت إلى شبابك الباكر ردّاً عنيفاً لا هوادة فيه، وإذا أنت مستغرق في أحلام الهوى وأماني الصبا ونزوات الغرام الطائش الذي أنسى بطل هذه الرواية كل اعتبارات التعقّل والاحتكام إلى الضمير والإخلاص للصديق أوالأقرباء.. بل الإخلاص للذات، ولو بهدف حمايتها من التردّي في الهاوية التي تصل إليها فيها يد القانون وسطوته وعقابه.

ولا شك في أنّ أسلوب المؤلف الفذّ بلغ غاية الإعجاز في التوفيق بين النقيضين: بين الواقعية في تصوير المواقف والانفعالات، وتحليل المشاعر والنزعات، وبين الإبداع والرقّة في وصف الأشياء والمناظر والمرئيات، إلى حدّ يرفعه ـ كما يقول بعض النقاد ـ إلى مستوى ورومانسية «لامرتين» و«شاتوبريان» وإلى دقة وصف «تشارلز ديكنز».

دار الحرف العربي
للطباعة والنشر والتوزيع


فراديس للنشر والتوزيع


ISBN: 978-9953-542-49-2